دكتور
حمدي عبد المنعم محمد حسين
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

التاريخ السياسي والحضاري
للمغرب والأندلس في عصر المرابطين

Bibliotheca Alexandrina
0103010
١٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

13802
946.8

التاريخ السياسي والحضاري
للمغرب والأندلس في عصر المرابطين

دكتور
حمدي عبد المنعم محمد حسين
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف : 946.8
رقم التسجيل : ٣٨٧٦٨

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٦٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل ربى زدنى علمــــا »

صــدق الله العظيــم

إهداء

الى أمى ...

نبـــع الحب والعطـــاء الـــدائم ...

مقدمة

يتناول موضوع البحث تاريخ دولة المرابطين فى عصر على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ — ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ — ١١٤٣ م) • ودولة المرابطين دولة مجاهدة عظيمة لعبت دورا هاما وخطيرا فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وتاريخ المغرب والاندلس بصفة خاصة ، فقد تمكنت من نشر رايات الاسلام فى ربوع السودان الغربى ، ونشرت الثقافة الاسلامية بين تلك القبائل البربرية المتخلفة ، ثم لم تلبث أن توسعت صوب الشمال ، فاقتحمت ميدان المغرب والاندلس وشاركت فى معركة الجهاد ، فأنقذت الاسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه ، وناصبت الممالك المسيحية فى أسبانيا العداء وتصدت لعدوانهم وروت بدماء أهل المغرب أرض الاندلس، وقد سجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين وفرسانهم فى سجل الخالدين ، وأصبح اسم يوسف بن تاشفين يقترن باسم صلاح الدين الايوبى وغيره من أبطال المعارك الصليبية ، وتبع ذلك عهد تألقت فيه دولة المرابطين وازدهرت ازدهارا أشبه ما يكون بشفق المغيب ، وأعنى به عهد الامير على بن يوسف الذى يعتبر عصر الصحوة التى تسبق السقوط والانهيار لدولة المرابطين •

وعندما عزمت على اختيار موضوع البحث لم تتيسر لى المصادر الكافية التى يمكن أن تعيننى على تسليط الاضواء على عصره ، ولكن احساسى بأهمية لموضوع ، وأن هذه الفترة من تاريخ المغرب والاندلس كانت فترة حاسمة خطيرة ، دفعنى بالحاح الى المثابرة على تحصيل المادة العلمية من مختلف المصادر والوثائق •

وأرجو أن أكون قد وفقت فى ابراز المعالم الرئيسية لعصر هذا الامير وتوضيح الدور الذى لعبه فى تاريخ المغرب والاندلس •

وقد واجهتنى فى هذا البحث الكثير من الصعاب ، لعل أهمها ندرة

الوثائق والمصادر الاصلية المعاصرة لهذه الفترة موضـوع البحث ، فقد تعـرض المرابطون لعـداء الموحدين الذين عملوا على اسـاءة اليهم ، فمحوا آثارهم وشوهوا تاريخهم ورموهم بكل نقيصة ، وقد عمد كثيرون منهم الى تجريح المرابطين وتشويه صورتهم ، كما تعرضت دولة المرابطين لكراهيـة أدباء الاندلس الذين دفعتهم عصبيتهم الاندلسية الى احتقار هؤلاء اللمتونيين البربر واعتبارهم أغرابا دخلاء استولوا على بلادهم باسم الجهاد ، متناسين بذلك العاطفة الدينية التى كانت توجب عليهم أن يعترفوا للمرابطين بفضلهم الاكبر هـو انقاذهم للاسـلام فى الاندلس بعد أن ضاق عليه الخناق منذ طليعة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) • ولم يكن غريبا أن يتحامل على المرابطين أمثال هؤلاء الادباء ممن كانوا يجدون فى حياة الترف والانحلال التى استغرق فيها ملوك الطوائف مرتعا خصبا ومعينـا لا ينضب يروون منه أطمـاعهم وشهواتهم ، وقد كان من مظاهر ذلك ما كتبه الشقندى فى رسالته التى تعصب فيها للصقلب وراح ينتقص من العرب ومن البربر على السواء ، وقد رمى الشقندى المرابطين بالجهل والتعصب • كذلك تعرض المرابطون لتحامل فريق من المؤرخين الاوربيين المحدثين يتزعمهم دوزى الذى شن حملة شعواء على المرابطين ، لتعاطفه مع ملوك الطوائف وعلى الاخص لبنى عباد أصحاب أشبيلية •

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقـد مضيت فى سبيل البحث قـدما ، واعتمدت على كل ما توفر لدى من المصادر العربية تاريخية وجغرافيـة وأدبية كما اعتمدت على المراجع الحديثة سـواء العربية منها والاوربية التى تناولت تاريخ المرابطين من قريب و بعيد •

ولقد وضعت نصب عينى منذ البداية هدفين أساسيين ، حاولت أن

خلال بحثى أن أصل اليهمـا ، أولهما ابراز الدور الذى لعبتـه الدولة المرابطية فى عصر على بن يوسف على الصعيد السياسى سواء فى المغرب أو فى الاندلس ، وثانيهما ايضاح الدور الحضارى للدولة ، متبعا فى كل ذلك المنهج العلمى القائم على المقابلة بين النصوص وتحليلها ، واستنباط الحقائق التى يمكن عن طريقها أن أسـجل الافكار الجديدة وأصـوغها الصياغة العلميـة •

وقد قسمت بحثى الى مقدمة وتمهيد تاريخى وبابين أحدهما سياسى والآخر حضـارى •

وقد اشتملت المقـدمة على خطـة البحث والدوافـع التى دفعتنى لاختياره ، والمنهج الذى سلكته فى معالجة الموضوع ، اتبعتها بدراسـة لاهم مصادر البحث •

فالتمهيد التاريخى أفردته للحديث عن قيام دولة المرابطين فى المغرب والاندلس ، فقد تتبعت بالدراسة أصل المرابطين ونشأتهم فى الصحراء والدور الذى لعبه الفقيه عبد الله بن ياسين والامراء المرابطين الاوائل فى قيام الدولة فى المغرب الاقصى ، ثم تعرضت بالتفصيل للدور الكبير الذى قام به يوسف بن تاشفين فى تدعيم أركان دولته ، ثم عبوره الى الاندلس تلبية لنداء ملوك وأمراء وأهل الاندلس ، وانتصاره الساحق على نصارى الاندلس فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، ثم عبوره الثـانى وحصاره لحصن لييط هذا الحصار الذى أظهر للعاهل المرابطى دويلات الطوائف على حقيقتها من الضعف والانحلال ، فأصدر أوامره لجيوشه التى سـارعت بالاستيلاء على الاندلس والقضـاء على ملوك الطوائف واصبحت الاندلس ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش • وختمت هذا التمهيـد التاريخى بعبور يوسف الى الاندلس عبوره الرابع والاخـير وعقده لولاية العهد لولده على بن يوسف •

أما الباب الاول فقد خصصته لدراسة التاريخ السياسى ، ويتضمن هذا الباب فصلين ، أفردت أولهما لاهم الاحـداث الداخلية فى الدولة ، تحدثت فيه عن الصراع بين المرابطين والموحدين وثورة مدينة فاس وثورة مدينة قرطبـة •

أما عن الصراع بين المرابطين والموحـدين ، فقد تحدثت عن نشـأة محمد بن تومرت ورحلته الى المشرق لطلب العلم ، فعودته الى المغـرب ونشره لدعوته الدينية القائمة على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم لقاؤه مع أمير المسلمين فى المسجد الجـامع ومناظرته لفقهاء المرابطـين وظهوره عليهم ، وما أعقبها من فراره الى جبل ايجليز حيث بايعه أصحابه بالمهدوية • ثم بداية الصراع بين المرابطين والموحدين هذا الصراع الذى انتهت مرحلته الاولى بانتصار المرابطين الحاسم فى معركة البحيرة وما أعقبها من وفاة المهدى بن تومرت وتوليه عبد المؤمن بن على الذى واصل الصراع المسلح ضد المرابطين ، هـذا الصراع الذى انتهى بانتصـار الموحدين وقيام دولتهم على أنقاض دولة المرابطين •

وفيما يتعلق بثورة مدينـة فاس سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م تعرضت بالحديث عن دوافع تلك الثورة التى تزعمها الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، وتحدثت عن مـدى خطورتها كأول بادرة من بوادر الضعف التى بدأت تدب فى كيان الدولة عقب وفاة يوسف بن تاشفين •

وأما عن ثورة مدينة قرطبة سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ، فقد أشرت الى مقدمات تلك الثورة المتمثلة فى احراق كتاب احياء علوم الدين للغزالى ، وتحدثت عن الدور الذى لعبه الفقهاء وعلى رأسهم ابن حمـدين قاضى قضاة قرطبة فى احراق هذا الكتاب وألقيت الضوء على دور الفقهاء فى

هذا العصر ، ثم أوضحت الظروف والدوافع التى أدت الى اشعال ثورة قرطبة ، وكيف أنها كانت تعبيرا عن سخط أهل الاندلس من سوء الادارة المرابطية فى الاندلس ، ثم أشرت الى مدى اهتمام أمير المسلمين باخماد هذه الثورة بحيث أنه عبر بنفسه الى الاندلس وأخمد الثورة سلميا ٠

وأفردت الفصل الثانى من الباب الاول لدراسة العلاقات الخارجية للدولة ، ويتضمن هذا انفصل علاقة الدولة مع القوى المسيحية فى الاندلس وهى قشتالة وأرغون والبرتغال وقطالونية ، فضلا عن علاقة الدولة مع دولتى بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيتين فى المغربين الادنى والاوسط وكذلك مع الخلافة العباسية فى بغداد ٠

فأما عن العلاقات مع قشتالة،فقد أشرت الى مدى اهتمام على بن يوسف بالاندلس باعتباره أرض جهاد ، وكيف أنه استفتح حكمه بزيارة خاطفة للاندلس لم يكن الغرض منها تنظيم أمور الاندلس وانما استهدف بوجه خاص الوقوف على أحوال المسلمين والاطلاع على التقارير الواردة من القادة والولاة عن التفاصيل العسكرية لمواجهة الدفع المسيحى فى أملاك المسلمين ، وما أعقب ذلك من تقليد الامير تميم بن يوسف بن تاشفين القيادة العليا للجيوش المرابطية فى الاندلس ، وكيف أن عليا بادر بغزو القشتاليين فى عقر دارهم وألحق بهم الهزيمة عند اقليش سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ومواصلة المرابطون توجيه حملاتهم السنوية ضد مملكة قشتالة ورغم أن هذه الحملات لم تكن تكلل دائما بالنصر الا أن المرابطين كانوا يبلون فيها أحسن البلاء ، ثم تعرضت لدور الامير تاشفين بن على بن يوسف فى جهاد القشتاليين وكيف أن فترة ولايته على الاندلس كانت فترة انتصارات متلاحقة على جيوش قشتالة ٠

وأما عن العلاقات مع أرغون ، فقد أشرت الى العلاقات الودية التى

كانت قائمة بين المرابطين وبنى هود فى سرقسطة ثم وفاة الامير أحمد المستعين بن هود وما أعقبها من تحالف ابنه عبد الملك عماد الدولة مع الفونسو المحارب ملك أرغون الذى تطلع الى السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى ، مما جعل المرابطون يسرعون الى استنقاذها ويسيطرون عليها سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، غير أن محاولات الفونسو المحارب لم تنقطع طوال فترة حكمه لانتزاعها من أيدى المرابطين الى أن تحقق له ذلك سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، وما تلى ذلك من سقوط معظم قواعد الثغر الاعلى فى أيدى الارغونيين مما شجع النصارى المعاهدين فى غرناطة على التآمر على المسلمين وراسلوا الفونسو المحارب بهدف التخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، مما دفع بالفونسو المحارب الى القيام بحملته الكبرى على الاندلس فيما بين عامى ٥١٩ / ٥٢٠ هـ (١١٢٥ — ١١٢٦ م) ، وما انتهت اليه هذه الحملة بالفشل التام، غير أن هذا الفشل لم يمنع الفونسو المحارب من مواصلة نشاطه ضد المرابطين فى الثغر الاعلى ، وتتويجه لهذا النشاط بانتصاره فى معركة القلاعة سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، غير أن الفونسو المحارب شغل بالحرب مع الفونسو ريموندیس ملك قشتالة ، وبحروب أخرى فى جنوبى فرنسا، مما شجع المسلمون على الاغارة على أراضى أرغون ، مما دفع الفونسو المحارب الى تصفية خصوماته مع الفونسو ريموندیس وأخذ يتأهب لتنفيذ مخططه القديم ضد المرابطين ، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الارغونيين ومقتل الفونسو المحارب وهى معركة افراغه التى كانت من المواقف المشرفة لدولة المرابطين ، وصفحة مشرقة فى تاريخهم العسكرى.

وفيما يتعلق بالعلاقات مع البرتغال ، تحدثت عن الحملة التى وجهها على بن يوسف فى بداية عام ٥٠٤ هـ (١١١١ م) بقيادة سير بن أبى بكر اللمتونى صوب مملكة البرتغال وتمكنه من استرجاع مدن يابره

وأشبونة Lisoba وشنترة Cintra وشنترين Santaren Evora
وكذلك خروج على بن يوسف فى المحرم سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) لغزو مدينة قلمرية Coimbra عاصمة البرتغال واقتحامه لها بعد حصار استمر ما يقرب من عشرين يوما ، ثم انصرافه عنها .

أما فيما يختص بالعلاقات مع قطالونية ، فقد أشرت الى الحملة التى وجهها على بن يوسف فى صفر سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) بقيادة محمد بن الحاج صوب أراضى برشلونه وفشلها فى الاستيلاء عليها لحصانتها ، غير أن القطلانيين نصبوا فخا أوقعوا به ابن الحاج وتمكنوا من قتله ، فلما علم على بن يوسف بما حدث ، أرسل حمله أخرى لغزو برشلونه وحاصرها ما يقرب من عشرين يوما ، حيث دارت معركة عنيفة خسر فيها المسلمون سبعمائة قتيل واضطروا الى الانسحاب .

وفيما يتعلق بالعلاقات مع بنى زيرى فى المغرب الادنى ، فقد أوضحت أن تلك العلاقات سادها روح الود والصداقة ، لان كل من المرابطين والزيريين ينتمون الى قبيلة واحدة هى قبيلة صنهاجة البربرية، وقد انعكست هذه العلاقات الودية فى الكتاب الذى وجهه يوسف بن تاشفين الى الامير تميم بن المعز بن باديس يصف له فتح بلاد المغرب وجوازه الى الاندلس وانتصاره على القشتاليين فى مركة الزلاقة ، كما نتمثل هذه العلاقات الودية فى استعانة الزيريين بأسطول المرابطين لمواجهة الخطر النورمندى الذى كان يتهدد سواحل الدولة الزيرية . أما عن العلاقات مع بنى حماد فى المغرب الاوسط ، فقد أبرزت الظروف التى أدت الى قيام هذه الدولة ، وكيف أن العلاقات بينها وبين المرابطين لم تكن ودية تماما نتيجة لاصطدام الحماديين بسياسة المرابطين التوسعية فى المغرب الاوسط ، وقد عبر الحماديون عن كراهيتهم للموابطين ،

فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على القسم الغربى من المغرب الاوسط الخاضع للمرابطين ، كما احتضنوا جميع القوى المعارضة للمرابطين وفتحوا أبواب بلادهم لهم .

وفيما يتعلق بدراستى للعلاقات مع العباسيين ، فقد أوضحت أن المرابطين كانوا يعتقدون أن ملكهم لن يعتبر شرعيا الا اذا باركته الامامة القرشية تلك الامامة التى لم يكن يعد يمثلها فى ذلك الوقت سوى خلافة بغداد العباسية ، ومن هنا تطلع المرابطون الى العباسيين يستمدون منهم التأييد والاعتراف الرسمى أو الشرعى ، وقد كانت هذه العلاقات بينهما روحية فقط ، فلم يكن أمير المرابطين يلتزم تجاه الخلافة بأى التزامات الا بمزيد من الجهاد والطاعة للخلافة فقط .

أما الباب الثانى فقد خصصته للدراسة الحضارية ، ويتضمن هذا الباب فصلين ، أفردت أولهما لنظم الحكم والادارة فى عصر على بن يوسف ، وثانيهما لبعض مظاهر الحضارة فى المغرب والاندلس فى عصر على بن يوسف .

تحدثت فى الفصل الاول الخاص بنظم الحكم والادارة عن النظام الادارى والنظام القضائى والنظام الحربى والنظام المالى . وفيما يخص النظام الادارى ، فقد تحدثت عن نظام امارة المسلمين ، فأشرت الى أن نظام الحكم فى بداية قيام دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين كان يعتمد على نظام الشورى ، حيث كان المرابطون يختارون رئيسهم بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، الى أن جاء يوسف بن تاشفين وخشى أن يعود الامر فوضى من بعده ، فرأى أن يختار وليا للعهد يستخلفه من بعده ، فتحول نظام الشورى الى نظام

وراثى ، فقد وقع اختيار يوسف على ولده على ، وشاور من يهمه الامر وناقشهم فى المبررات التى دفعته لاختياره ، فلما وافقه الجميع على ما اعتزم عليه ، أصدر مرسوم البيعة لابنه ، ثم جاز الى الاندلس حيث أخذ بيعه أهل الاندلس وصدر كتاب التولية والبيعة فى مدينة قرطبة فى ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) ، وقد أعقب ذلك عودة يوسف الى المغرب حيث مرض مرضه الاخير وتوفى فى غرة المحرم سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ، وتولى ابنه على بن يوسف • وأشرت الى لقب أمير المسلمين ، وذكرت أن المؤسسين الاول لدولة المرابطين اتخذوا لقب « الامير » الى أن تولى يوسف بن تاشفين وظل يتلقب بلقب الامير حتى توفى الامير أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، فأصبح الزعيم الاوحد بعد أن كان نائبا عن أبى بكر فى حكم المغرب ، ثم اتفق أن لبى آنذاك نداء أهل الاندلس وأحرز نصره الرائع فى الزلاقة،الامر الذى دعاه الى أن يتخذ لنفسه لقبا جديدا هو لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » وأصبح هذا اللقب هو اللقب الذى تلقب به أمراء الدولة حتى سقوطها • كما تحدثت عن نظام ولاية العهد ، فأشرت الى أن عليا بن يوسف سار على نهج والده فى اختيار ولى عهده خوفا على مستقبل الدولة من بعده، فوقع اختياره على ابنه سير واستدعى كبار رجال الدولة وأشهدهم على عقد توليه العهد لابنه ، وأشرت الى اختصاصات ولى العهد ، وقد ظل سير وليا للعهد حتى قتل فى عام ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، فخلفه الامير تاشفين فى منصبه ، على الرغم من محاولات قمر زوج على بن يوسف لتقديم الامير أبى اسحاق ابراهيم الابن الاصغر لعلى بن يوسف ، كما أشرت الى عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد مما ترتب عليه قيام النزاع بين أولاد على بن يوسف حول أحقية كل منهما فى ولاية عهد أبيهم • كما تحدثت عن منصب نائب أمير المسلمين سواء فى المغرب أو فى الاندلس ومهام هذا النائب • كما أشرت الى ولاة الاقاليم ومراقبة

أمير المسلمين لهؤلاء الولاة خوفا أن يستبد أحدهم بأمر ولايته أو يسيء معاملة رعيته ، كذلك أشرت الى نظام الوزارة ووجود نوعين من الوزراء ، وزراء حرب ، ووزراء أدباء وفقهاء ، كذلك أشرت الى ديوان الرسائل والمكاتبات ، وكيف أنه كان يزخر بطبقة من كبار كتاب وأدباء الأندلس •

أما عن النظام القضائى ، فقد أشرت الى اهتمام الدولة بخطة القضاة ، وتمتع القضاة بمكانة كبيرة فى المجتمع ، واختصاصات القضاة ، وأهم خطط القضاء •

أما بالنسبة للنظام الحربى ، فقد أوضحت اهتمام الدولة بالجيش وكيف أن القيادة العليا للجيش كانت تعقد لأمير المسلمين ، أما قيادة الفرق العسكرية فكانت تعقد لامراء الدولة ، كما أشرت الى أهم عناصر الجيش وفن الحرب والقتال وأسلحة الجيش • كما أشرت الى انشاء البحرية المرابطية فى عصر يوسف بن تاشفين والدور الكبير الذى لعبه الاسطول المرابطى فى الاستيلاء على طنجة وسبتة من يد سقوت البرغواطى ، أو فى جزر البليار ، أو ضد أطماع النورمنديين أو فى الاغارة على السواحل الجنوبية لاوربا ، كما أشرت الى قواد الاسطول وقواعده وعدد قطعه •

وأما النظام المالى ، فقد أشرت الى السياسة الضريبية للدولة فى عهد يوسف ابن تاشفين وولده على بن يوسف ، وكيف أن الدولة عهدت للنصارى بجباية هذه الضرائب ، كما تحدثت عن العملة المرابطية ودور سك العملة •

وخصصت الفصل الثانى من الباب الحضارى لدراسة بعض مظاهر الحضارة فى المغرب والاندلس فى عصر على بن يوسف ، فتحدثت عن

الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية وأمثلة عن الآثار المعمارية فى المغرب والاندلس ، والحياة الادبية والعلمية •

فأمـا عن الحياة الاجتماعيـة ، فقد تحدثت عن المجتمـع المغربى الاندلسى من حيث طبقات الامراء والقواد والفقهاء والقضاة ، ومكانة المرأة فى المجتمع المرابطى ، وكذلك أوضاع أهل الذمـة ، ومجتمع العامة ، كمـا أشرت الى العادات والتقاليد وتأثر أمراء الدولة بكل مظاهر الحضـارة الاندلسية •

وأما عن الحياة الاقتصـادية ، فقد تحدثت عن ازدهـار التجـارة والصناعة وأهم المراكز التجارية والصناعية ، وكذلك الزراعة والنظـام الذى اتبعته الدولة فى مجال ملكية الاراضى الزراعية •

وبالنسبة للآثار المعمارية فى المغرب والاندلس ، فقد أبرزت مـدى تأثر عمارة المرابطين بفن العمارة الاندلسى ؛ كما تحدثت عن أهم الآثار المعمارية التى تبقت عن عصر على بن يوسف كالآثار الدينية ، والمدنيـة والمنشآت العامة ، وكذلك الآثار الحربية •

وأما عن الحياة الادبية والعلمية ، فقد أشرت الى الشعر والنثر ، وأشهر الشعراء والنثريين ، وكذلك الموشحات والازجال وأشهر الوشاحين والزجالين ، وعلوم الفقه والحديث ، وعلوم اللغة ، والتاريخ والجغرافية ، والتصوف والطب والفلك والتنجيم والفلسفة •

اختتمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التى توصلت اليها من خلال تلك الدراسة كما ذيلتها ببعض الخرائط وقائمة بالمصادر والمراجع العربية والاجنبيـة •

أرجو أن أكون بهذا الجهد المتواضع ، قد أضفت شيئا الى المكتبة التاريخية انصافا لدولة المرابطين فى عصر على بن يوسف •

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أقدم عظيم شكرى وامتنانى وتقديرى لاستاذى الفاضل الجليل الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، فهو صاحب الفضل فى توجيهى وارشادى فى اعداد هذا البحث ، فلقد أعطانى من نفسه ومن وقته ومن توجيهاته ما لا يحتويه شكر أو يحيط به عرفان بالجميل ، وهذا جزء ضئيل من جميل يطوق به عنقى ، فجزاه الله عن العلم وعنى خير الجزاء •

التعـــريف بأهم مصـــادر البحث

أولا : الوثائق المرابطيــة

تعتبر الوثائق المرابطية من مراسلات وكتابات وعقود وما الى ذلك من المصادر الرئيسية التى يعول عليها الباحثــون أكثر من غيرها عنــد اقدامهم على دراسة فترة محددة فى تاريخ دولة من الدول ، ولهذا فقد كان للوثائق المرابطية التى تم نشرها بفضل تحقيقات وجهود الاســتاذ الدكتور حسين مؤنس[1] والاستاذ الكتور محمود على مكى[2] أعظم الاثر فى توضيح بعض ما خفى من تاريخ دولة المرابطين سيما ما يتعلق بالرسائل التى أعقبت انتصارات المرابطين فى وقعة اقليش وافراغه ، كذلك تسلط هذه الوثائق أضواء كافية لتوضيح الاحوال الاجتماعية والاقتصــادية والادارية فى الاندلس والمغرب فى الفترة موضوع الدراسة •

---

(١) نشر الدكتور حسين مؤنس المجموعة الاولى من هــذه الوثائق تحت عنوان « الثغر الاعلى الاندلسى فى عصر المرابطين مع أربع وثائق جديدة » فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٤٩ م ، ص ٩١ ــ ١٤٣ ، والمجمــوعة الثانية فى صحيفة معهد الدراســات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثــانى ، ١٩٥٤ م ، تحت عنــوان « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الاندلس » •

(٢) نشر الدكتور محمود على مكى هذه الوثائق تحت عنــوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ، فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد السابع، العدد ١ ــ٢ ، ١٩٥٩ م •

ثانيا : المصادر التاريخية

ابن بلقين (الامير عبد الله الزيرى) ، « مذكرات الامير عبد الله الزيرى المسماه بكتاب التبيان »

يرتفع نسب الامير عبد الله بن بلقين آخر ملوك غرناطة الى أسرة بنى زيرى الصنهاجية ، فجده هو باديس بن حبوس بن زيرى بن مناد الصنهاجى • ولد عبد الله سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٦ م) ، وفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧ م) اعتلى عرش غرناطة وظل يؤدى هذا الدور الى أن عزله المرابطون عن ملكه ونفى الى مدينة أغمات الواقعة جنوبى المغرب الاقصى حيث قضى بقية عمره • وفى أغمات دون مذكراته الخاصة التى تتضمن أخبارا تاريخية عن عصر ملوك الطوائف ، وهذه المذكرات وثيقة هامة تسلط الاضواء على فترة حاسمة من التاريخ الاندلسى وتسبق مباشرة تبعية الاندلس لدولة المرابطين وقد كان لهذه المذكرات أعظم الاثر فى تصوير حالة الانحلال الاجتماعى والتفكك السياسى الاندلسى قبيل وقعة الزلاقة وفى أعقابها ، اذ أمدتنا بمعلومات مفصلة وواقعية فى آن واحد عن الاوضاع السياسية والاجتماعية التى كانت تسود الاندلس آنذاك •

البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) ، كتاب « أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين »

يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر المتعلقة بتاريخ الموحدين خاصة أن أبا بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق كان صديقا للمهدى بن تومرت صاحب

الدعوة الموحدية ومرافقا له ، فجاءت روايته عن الاحداث رواية شاهد عيان للوقائع والحوادث التى كان يعاصرها ولهذا اتسمت هذه الروايات بالوضوح والواقعية وان كان يتعصب فى كثير من المواضع للموحدين ويقف موقف المدافع عن المهدى وأتباعه •

ولقد أفدت كثيرا من روايات البيذق عندما تعرضت للحديث عن قيام دولة الموحدين وتتبعت الخطوات التى مرت بها حركة المهدى بن تومرت منذ عودته الى المغـرب واصطدامه بالمرابطين ثم التقائه بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين ومبايعة أصحابه له بالمهدوية سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م)، وعندما تعرضت للحديث عن الصراع الحربى بين المرابطين والموحدين حتى معركة البحيرة ، والحملات التى تولاها عبد المؤمن بن على لاسيما الغزوة الاخيرة التى انتهت باسقاطه للدولة المرابطية •

ابن القطان (أبو الحسن على بن محمـد الكتامى الفاسى) ، قطعة من كتاب « نظم الجمان فى أخبار الزمان »

يتألف كتاب نظم الجمان الذى ما يزال مخطوطا من سبعة أجزاء ، نشر الاستاذ الجليل الدكتور محمود على مكى منه قطعة هى السفر رقم ١٣ من الكتاب ومن المحتمل أن تكون هذه القطعة هى نفس الجزء السادس منه وتتناول أحداث الفترة من ٥٠٠ الى ٥٣٣ هـ •

ويعاب على ابن القطان تعصبه للموحدين وتحامله على المرابطين ومع ذلك فقـد اضطر لتمجيد هـؤلاء فى بعض المواقف التى تتعلق بجهـاد المرابطين ضد النصرانية الاسبانية • وقد أفدت كثيرا من هذه القطعـة ومن تحقيقات العـالم الكبير الاستاذ الدكتور محمود على مكى عنـدما

عالجت الفترة التى أعقبت ظهور المهدى بن تومرت وتصنيف أصحابه وصراعه مع المرابطين ، بالاضافة الى رواياته عن أحداث الاندلس فى هذا العصر لاسيما تلك التفصيلات الرائعة عن موقعة افراغه وهى تفصيلات لا نظير لها فى أى مصدر تاريخى آخر •

ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) ، كان حيا سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) كتاب «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»

يعتبر ما أورده المؤلف المراكشى عن فترة المرابطين من أهم المصادر المتعلقة بحوادث تاريخهم فى المغرب والاندلس • وقد انتفعت بالقطعة الخاصة بالمرابطين التى نشرها احسان عباس فى دراستى عن أصل المرابطين وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه فى المغرب ودخول المرابطين بلنسية ، وتوليه على بن يوسف ، وقصة احراق كتاب احياء علوم الدين الغزالى ، وغزوة الفونسو المحارب للاندلس واحداث الصراع بين المرابطين والموحدين •

ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسى) ت ٧٢٦ هـ (١٣٢٨ م) ، كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »

على الرغم أن العنوان يشير الى أن الكتاب مخصص لدراسة تاريخ مدينة فاس الا أن المؤلف لم يقف على تتبع مراحل تاريخ هذه المدينة وانما تناول تاريخ المغرب الاقصى كله منذ سنة ١٤٥ هـ الى سنة ٧٢٦ هـ ، أى أن الكتاب يتضمن تاريخ الدول الخمس التى تداولت حكم المغرب فى هذه الفترة وهى دولة الادارسة ، ودولة زناتة ، ثم دولتى المرابطين والموحدين ، وأخيرا دولة بنى عبد الحق أو بنى مرين • وقد أنهى المؤلف

كتابه هذا فى عهد الدولة الاخيرة وأهداه الى السلطان الخامس من ملوكها وهو أبو سعيد المرينى ٧١٩ — ٧٣١ هـ (١٣٠٩ — ١٣٣٠ م)[٣] .

وقد انتفعت بهذا الكتاب فى القاء الضوء على كثير من أحداث عصر المرابطين خاصة ما يتعلق بأصل المرابطين ونشأتهم ودعـوة ابن ياسين ، وجهود الامراء المرابطين الاوائل فى السيطرة على المغرب الاقصى ، ثم عبور المرابطين الى الاندلس وانتصارهم الرائع فى الزلاقة ، وكذلك عند الاشارة الى أهم أحداث عصر على بن يوسف سواء فى المغرب فى صراعه مع الموحدين ، أو فى الاندلس فى صراعه مع الممالك المسيحية ، كما أفدت منه كثيرا عند حديثى عن تأسيس المسجد الجامع للقرويين بفاس .

الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية :

ظل مؤلف هذا الكتاب مجهولا لفترة طويلة حتى بعد صدور الطبعة الثانية منه فى الرباط الى أن تمكن الاستاذ الدكتور محمود على مكى من التوصـل الى اسمه فى دراسته القيمـة الطويلة التى قدم بها لكتـاب الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة ومن هـذه الدراسة عرفنا أن المؤلف هـو ابن سماك العـاملى وهـو نفس مؤلف كتاب الزهـرات المنثورة[٤] .

وضم كتاب الحلل حقائق تاريخية هامة تتعلق بقيام دولة المرابطين

---

(٣) سالم (كتور السيد عبد العزيز) ، المغرب الكبير (العصر الاسلامى)، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م ، ص ١١٤ .

(٤) راجع الدراسة القيمة التى أعدها الدكتور محمود على مكى للكتاب فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد العشرون ، السنة ١٩٨٠/٧٩ م ص ٥ — ٧٦ ، والمجلد الحادى والعشرون السنة ١٩٨١ — ١٩٨٢م، ص ٥ — ٧٩ .

وجهادهم فى المغرب والاندلس ، وبالنظام الحربى وأساليب القتال عند المرابطين ، وقد اعتمدت عليه كثيرا عند دراستى للنظام الحـربى لدولة على بن يوسف ولاهم المواقع الحربية التى خاضها المرابطون فى الاندلس زمن على بن يوسف ٠

ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد) ت ٧٧٦ هـ (١٣٦٤ م)

يعتبر ابن الخطيب آخر كاتب عظيم أنجبته الاندلس ، فقـد صنف عددا كبيرا من المصنفات ، نذكر منها ما اعتمدت عليه فى دراستى وهى :

أ) كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام٠

ب) كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة ٠

أما عن كتاب أعمال الاعلام فهو من المصادر التاريخية العـامة التى تناولت تاريخ الدول الاسلامية ، وقد صنفه فى مدينة فاس حينما التجأ اليها ، بمناسبة توليه أبى زيان محمد السعيد بن عبد العزيز سلطنة المغرب رغبـة فى خطب ود السلطان الجديد ٠ وقسـمه ابن الخطيب الى ثلاثة أقسـام :

الاول : يتناول تاريخ المشرق الاسلامى من السيرة النبوية حتى عصر المماليك وما يزال مخطوطا ٠

الثانى : يتنـاول تاريخ الاندلس منذ الفتح الاسـلامى حتى عصر السلطان محمـد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره ليفى بروفنسـال بالرباط سنة ١٩٣٤ م ٠

الثالث : يتناول تاريخ المغرب منذ قيام دولة الاغالبة حتى قيام دولة

الموحدين ، ويبدو أنه كان ينوى استكمال هذا القسم حتى عصره اذ نص على ذلك فى فهرسه ولكنه قتل قبل أن يستكمله ، وقد تولى نشر هـذا القسم الدكتور أحمد مختـار العبادى ومحمد ابراهيـم الكتانى بالدار البيضـاء ١٩٦٤ م •

والقسمان الثانى والثـالث اللذين اعتمدت عليهمـا فى دراستى يسلطان أضواء قوية على الكثير من الاحداث السياسية فى المغرب والاندلس ، وكذلك فى أحداث الصراع بين المرابطين والممـالك المسيحية فى الاندلس سـواء فى عصر يوسف بن تاشـفين أو فى عصر ولده على بن يوسف ، وكذلك أحداث ودقائق الصراع المرابطى الموحدى •

ــ أما عن كتاب الاحاطة فى أخبـار غرناطة ، فتراجم للملوك وأمراء وعلماء غرناطة وجميع من وفد اليها من المشرق والمغرب مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم • وقد ذكر ابن الخطيب أن الدافع الاساسى لتأليف هذا الكتاب حبه لوطنه غرناطة ورغبته فى كتابة تاريخ بلده على نحو تاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى(٥) •

وقد اعتمدت على الاحاطة عند معالجتى لغزوة الفونسو المحـارب للاندلس استجابة لدعوة النصارى المعاهدين له ، وكذلك أحداث الصراع المرابطى القشتالى فى امارة تاشفين بن على بن يوسف للاندلس ، كمـا استفدت منه عند عرضى للحياة العلمية والادبية •

---

(٥) العبادى (دكتور أحمـد مختار) ، فى تاريخ المغـرب والاندلس ، طبعة الاسكندرية ، ١٩٧٤ م •

ثالثا : المصادر الجغرافية

البكرى (أبو عبيد الله عبد الله عبد العزيز) ، ت ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وكتاب « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب »

يعتبر كتاب البكرى « المسالك والممالك » أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية الا أنه للاسف لم يصل الينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب الذى نشره دى سلان De Slane بالجزائر سنة ١٩١١ م بعنوان :

Description de L'Afrique septentrionale

والقسم الخاص بجغرافية الاندلس وأوربا الذى نشره الدكتور عبد الرحمن الحجى •

وقد اعتمدت بوجه خاص على القسم المغربى الذى يحتوى على معلومات جغرافية وتاريخية هامة ، يحتمل أن تكون مستقاة من وثائق الدولة ، اذ يبدو أن البكرى كان فى موقف يسمح له بالاطلاع على وثائق وسجلات ديوان قرطبة ، كما أفادنى كثيرا عندما تعرضت للحديث عن أصل المرابطين ونشأتهم ، والدور الذى لعبه أمراء المرابطين الاوائل فى تأسيس دولتهم وفى عرضى للحياة الاقتصادية وأهم المراكز التجارية فى المغرب •

الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس) ، ت ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، وكتاب « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »

يعتبر كتاب نزهة المشتاق أعظم مصدر جغرافى لدراسة الجوانب

الحضارية للمغرب والاندلس فى القرن السادس الهجرى (١٢ م) ومما لا شك فيه أن مشاهدات الادريسى فى أسفاره عبر الاندلس والمغرب تركت صداها فى وصفه العمران المدنى والمساجد والقصور والتحصينات المختلفة بالاضافة الى ملاحظاته عن الاحوال الاقتصادية فى كل ما مر من بلدان • وقد أفدت منه كثيرا عند دراستى للاحوال الاقتصادية والمنشآت المعمارية التى أقيمت فى الاندلس وفى المغرب فى عصر المرابطين •

ابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد) ت ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ، كتاب «المغرب فى حلى المغرب»

بيت بنى سعيد من أعظم بيوت الاندلس وأشرفها فى عصرى المرابطين والموحدين ، اذ يرتفعون فى نسبهم الى عمار بن ياسر الصحابى الجليل • وقد تضافر أربعة من أفراد هذه الاسرة على كتابة تاريخ شامل للاندلس فى مدة استغرقت أكثر من مائة سنة ، أولهم عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد فى عهد على بن يوسف ، ثم أتمه ابنه محمد بن عبد الملك، ثم أزاد فيه موسى بن محمد ، ثم أربى عليهم جميعا فى اتمامه أبو الحسن على بن موسى الذى يرجع اليه الفضل فى إخراج الكتاب فى صورته النهائية(٦) •

وكتاب المغرب فى حلى المغرب ضاع معظمه ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة فى الاندلس من العصر الاموى حتى نهاية عصر الموحدين • وقد انتفعت بهذا الكتاب فى دراستى عن الحياة العلمية فى الاندلس والمغرب زمن المرابطين •

---

(٦) سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ •

رابعـا : كتب الادب

ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمـد القيسى الاندلسى) ، ت ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) كتاب « قلائد العقيان فى محاسن الاعيان »

كان ابن خاقان من كبار أدباء عصره ، متمكنا من اللغة قديرا عـلى صياغة الكلام ، وقد تميز أسلوبه بالنثر المسجوع ، ومن أهم مؤلفـاته كتابين من المختارات الادبية التاريخيـة هما مطمح الانفس وقـلائد العقيـان •

وقد انتفعت فى دراستى بالتراجم التى أوردها فى القلائد عن أدباء عصرى الطوائف والمرابطين ممن خدموا فى بلاطات ملوك الطوائف ثم انتقلوا الى بلاطات أمراء المرابطين ، كما أفدت منه كثيرا فيما يتعـلق بالنظام القضائى وأشهر القضاة فى هذا العصر •

ابن خفاجة (أبو اسحق ابراهيم بن أبى الفتح الاندلسى) ، ت ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) « ديوان ابن خفاجة »

ولد ابن خفاجة فى بلدة شقر وهى مدينة منعزلة فى شرقى الاندلس مشهورة بجمال طبيعتها ، وكان ابن خفاجه شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والاستمتاع بالحياة ، ولقد كان لنشأته المترفه ولجمال بلدته أثر فى تغذية خياله الخصيب وتكوين تأملاته العميقة ، فأفاد من طبيعة بلاده التى تزهو بطبيعتها الساحرة ، وقد أعانه ذلك على دقـة التعبير عن معانية ، وسمى لذلك بشاعر شرقى الاندلس ، كما سمى بالشـاعر البستانى ، ولقبه المقرى بصنوبرى الاندلس •

ويتضمن ديوانه الكثير من القصائد فى وصف الطبيعـــة ، وفى مدح الأمير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وقد ألقت قصـــائده الضوء على الكثير من مظـــاهر الحياة الادبية والاجتماعيـــة فى العصر المرابطى .

خامسا : كتب التراجم

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ، ت ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) ، وكتاب « الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم »

لابن بشكوال نحو خمسين كتابا ، الا أن الصلة أهم كتبه وقد أكمل به كتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، وضمنه سير طائفة من الائمة والمحدثين والفقهاء وأهل الادب من الاندلسيين ، وقد أعتنى كثيرا فى تقصى أسماء علماء الاندلس زمن المرابطين وتتبع سيرتهم •

ابن الابار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) ت ٦٥٨هـ (١٢٥٩م)

ابن الابار يعتبر أكبر مصنف لمعاجم الرجال أطلعة الاندلس ، فقد صنف عددا كبيرا من المصنفات ، نذكر منها ما اعتمدت عليه فى دراستى وهى « التكملة لكتاب الصلة » و « الحلة السيراء » والمعجم فى أصحاب القاضى الامام أبو على الصدفى •

وكتابه التكملة هو تكملة لصلة ابن بشكوال ، وهو عبارة عن تراجم لاسماء الملوك والعلماء الاندلسيين مرتبة حسب حروف الهجاء وفى آخر ذال حرف يذكر المؤلف أسماء الغرباء الذين وفدوا على الاندلس من المشرق والمغرب •

أما كتابه الحلة السيراء فيتناول أخبار المغرب والاندلس منذ الفتح

الاسلامى الى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقسمه الى قرون مستقلة تبدأ بالقرن الاول الهجرى ويستمر الى نهاية المئة السابعة • ولا تخلو ترجمة من تراجمه من تفصيلات تاريخية وجغرافية واشارات اقتصادية هامة ، أعانتنى كثيرا فى رسم صورة واضحة الحياة السياسية والاقتصادية فى الاندلس فى العصر موضوع الدراسة •

أما كتابه المعجم فى أصحاب القاضى الامام أبو على الصدفى فيتضمن تراجم لاصحاب وتلاميذ القاضى الامام أبو على الصدفى • وعلى وجه العموم فان كتب التراجم من أهم المصادر فى اجلاء صورة بعض جوانب الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية ، لان الباحث يستمد من هذه التراجم أفكارا ويستنبط حقائق لها أهميتها فى التاريخ الحضارى •

دراســـة تمهيـــدية

قيــام دولة المرابطــين فى المغــرب والاندلس

أ) قيام دولة المرابطين فى المغرب :

ينتسب الملثمون الذين عرفوا فيما بعد بالمرابطين الى قبيلة لمتونة أحدى بطون صنهاجة أعظم قبـائل البربر واليها ينتمى عـدد كبير من القبائل البربرية أشهرها مسوفة ، ومسزاتة ، ومداسة ، وجدالة ، ولمطة وغيرها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ثم آلت الرئاسة الى قبيلة جدالة على عهد الامير يحى بن ابراهيم الجدالى ، الذى تولى زعامة صنهاجة وقاتل أعـداءها حتى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، وهـو تاريخ ارتحاله الى المشرق لاداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسـول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن استخلف على رئاسة صنهاجة ولده ابراهيم بن يحيى الجدالى[٧] ، ويعتقد الدكتور حسن أحمد محمـود أن يحيى بن

---

(٧) البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) ، المغـرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، نشره دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م ، ص ١٦٤ ، ابن الاثير (أبو الحسـن على بن محمد الجـزرى) ، الكامل فى التاريخ ، طبعـة القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمـد بن محمد) ، البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الرابع الخاص بالمرابطين ، تحقيق احسان عبـاس ، الطبعة الاولى ، بيـروت ، ١٩٦٧ م ، ص ٧ ، ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله) ، الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نسخة حجرية طبعـة تونس ، ١٣٠٥ هـ ، ص ٨٢ ، مؤلف مجهول ، الحلل الموشية فى ذكر الاخبـار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ ص ٨ ، ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) ، أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره أحمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م ، ص ٢٢٦ ، ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٧ ، سالم ، =

ابراهيم لم يخرج للحج ، وانما طلبا العلم . وأنه ارتاد مدارس المغرب ارواء لروحه المتعطشة للاستزادة فى أمور الدين ، أو بحثا عن فقيه يثق به ويطمئن اليه ، فيعود به الى قومه مبشرا ونذيرا ، عله يخرجهم من الظلمات الى النور ، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الاسلام[٨] .

وأيا ماكان الامر فقد عاد يحيى بن ابراهيم بعد رحلته المذكورة الى أرض المغرب ، فنزل بمدينة القيروان وكانت القيروان فى ذلك الوقت بالذات الحاضرة الثقافية للمغرب الاسلامى ، وكعبة القصاد من قاصية المغرب والاندلس ، وكانت قد تحررت من السيطرة الاسماعيلية ، واستردت حريتها كاملة ، وانتصر فقهاء المالكية فى معركة الفاطميين والزيريين نصرا عظيما[٩] . وفى القيروان حضر يحى بن ابراهيم مجلس الفقيه أبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى آنذاك ، وأعجب الشيخ أبو عمران بالامير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم ، وتحدث اليه الامير عن سوء الاحوال الاجتماعية فى بلاده ، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة ، وطلب من أبى عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الاسلامية فعرض الفقيه الامر على طلبته غير أنه

= المغرب الكبير ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٦٩١ ، أحمد مختار العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد الحادى والعشرون ، ١٩٦٧ ، ص ٥٠ ، محمد عبد الهادى شعيره ، المرابطون تاريخهم السياسى ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٣ .

Marcais (Georges), La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age, Paris, 1946, p. 238., Terrasse (Henri), Histoire du Moroc, Casablanca, 1949, vol. II, p. 214.

(٨) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ١٠٩ ، سالم ، المرجع السابق ، ص ٦٩١ .

لم يجد من بين تلاميذه من استجاب الى دعوته لاستصعابهم دخول أرض الصحراء[١٠] ، فلما لم يجد بغيته بين تلاميذه ، أرسل أبو عمران الفاسى الامير يحيى الى الشيخ واجاج بن زللو اللمطى فقيه المالكية بالسوس الاقصى ، وكان فقيها صالحا يقيم بمدينة نفيس[١١] أو بلدة ملكوس[١٢] ، وكان يحى يحمل كتابا من الشيخ أبى عمران الى تلميذه الفقيه واجاج ، يتضمن رغبته فى أن يرسل مع يحيى الى بلاده من طلبته من يثق بدينه وورعه ، وكثرة علمه وسياسته « ليعلم القرآن وشرائع الاسلام ويفقههم فى دينهم[١٣] » • فما كاد الفقيه واجاج يتسلم كتاب شيخه أبى عمران حتى جمع مريديه رواد رباطة وأطلعهم على رغبة امام القيروان ، وانتدب لذلك رجلا منهم جزولى النسب من أبرع طلبته وأزكاهم يدعى عبد الله بن ياسين ، والحق أن ياسين كان من الفقهاء النابهين المتأثرين بمبادىء فقهاء المالكية التى تستهدف الزهد والبعد عن السلطان والتقشف والايواء الى الربط تقربا الى الله وقد وصفه ابن أبى زرع بأنه من أهل الفطنة والدين والتقى والورع والادب والسياسة وأنه كان مشاركا فى العلوم[١٤] •

---

(١٠) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، مجهود ، الحلل الموشية ، ص ٨ ، ص ٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٢ ، العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطون ، ص ٥١ ، شعيره ، المرابطون ، ص ٣٤ •
Trimingham, J.S., A History of Islam in West Africa, London, 1962, p. 22.

(١١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ •

(١٢) البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨ •

(١٣) البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ •

(١٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ •

دخل ابن ياسين بلاد صنهاجة فى صحبة زعيمها يحيى بن ابراهيم ، فنزل على قبيلة لمتونة ، التى بالغت فى اكرامه والترحيب به ، فأخذ يبث تعاليم الدين بينهم ويبصرهم بأحكام الاسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، واشتد فى مؤاخذتهم ومطالبتهم بالاقلاع عن تقاليدهم المنافية للاسلام كالزواج بأكثر من أربع ، والزنا والسرقة وغيرها ، وكان طبيعيا أن يضيقوا زرعا بتشدده عليهم ، واسرافه فى تقريعهم ، فأخذوا يجافونه وينفرون منه[١٥] ، وعندئذ رأى ابن ياسين أو يرحل الى بلاد السودان ، ولكن الامير يحيى تمسك به ، وأشار عليه بالانقطاع الى العبادة فى جزيرة نائية[١٦] بعيدا عن هؤلاء البدو الجهلة ، فوافقه ابن ياسين على ذلك ، خاصة أن هذا الرأى وجد هوى فى نفسه الميالة الى حياة الزهد والرباط لاسيما وأنه أخذ العلم وتفقه فى رباط واجاج بن زللو اللمطى[١٧] .

انقطع ابن ياسين وصحبه للعبادة فى هذا الموضع النائى الذى اختاروه وابتنوا به رباطا للصلاة والعبادة ، ولم يكد يمضى عليه ثلاثة أشهر حتى تسامع الناس بأخباره وأخبار أهل الرباط ، فأقبلوا عليه وتوافدوا الى رباطه ، فأخذ يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، ويرغبهم فى ثواب الله تعالى ، حتى تمكن حبه من قلوبهم ، كذلك أرسل ابن ياسين البعوث الى القبائل ، لترغيب الناس فى مذهب أهل الرباط ، حتى اجتمع

---

(١٥) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٦٤ ، ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٣ ·

Marcais, G., La Berberie Musulmane., p. 238.

(١٦) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ ·

(١٧) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٨٣ ، ص ٨٤ ·

له نحو ألف رجل من اشراف صنهاجة سماهم بالمرابطين لملازمتهم لذلك الرباط(١٨) •

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه بأن يذهب كل منهم الى قبيلته أو عشـــيرته ، يدعوهم الى العمـــل بأحكام الله وسنة نبيه ، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم ، خرج اليهم بنفسه ، فجمع أشياخ القبائل ووعظهم وحذرهم عقاب الله ، واستمر فى ذلك سبعة أيام ، فلم يزدادوا الا فسقا، فلما يئس منهم أعلن الجهاد والحرب عليهم(١٩) •

اتجهت جموع المرابطين أولا صوب قبيلة جدالة ، حيث خاضوا معهم معركة شرسة وأوقعوا بهم الهزيمـــة ، وقتلوا منهم خلقـــا كثيرا وأسلم الباقون اسلاما جديدا • ثم سار المرابطون الى قبيلة لمتونة ، فقاتلوهم وانتصروا عليهم ، وأرغموهم على الدخول فى طاعة ابن ياسين ومبايعته على اقامة الكتاب والسنة ، ثم مضوا بعد ذلك الى قبيلة مسوفة الذين انضووا تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة ، فلمـــا شهدت قبائل صنهاجة هذه الاحداث بادرت الى مبايعة ابن ياسين عـــلى بذل الطاعة له ، وحذت بقية القبائل حـــذوها ، فكان كل من أقبل اليـــه تائبا منهم ، يتطهر بمائة سوط ثم يشرع فى تعلم القرآن وشرائع الاسلام،

---

(١٨) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، وراجع : محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٦٩ م ، ص ٣٠٢ •

Marcais, G., La Berborie Musulman., p. 238; Trimingham, A History of Islam in West Africa, p. 23.

(١٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٨٥ ، وراجع ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٦ •

فيؤمر بالصلاة والزكاة واخراج العشر ، هذا وقد أقام ابن ياسين بيتا للمال للانفاق على الجيوش وشراء السلاح[٢٠] .

ولما توفى الامير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، قدم ابن ياسين مكانه الامير يحيى ابن عمر اللمتونى ، وكان من أهل الدين والفضل ، كما كان منقادا فى جميع أموره لامامه ابن ياسين[٢١] .

وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعه وكتبوا الى ابن ياسين ، يرغبونه فى الوصول اليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناته المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين[٢٢] ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة ، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم ، وقالوا له « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى[٢٣] » فخرجت جموع المرابطين فى شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ الى بلاد درعة ، فتصدى لهم الامير مسعود ابن وانودين بالقتال ، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة ، وقتل من

---

(٢٠) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١٦٧ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٦ ، ص ٨٧ ، مجهول الحلل الموشية ، ص ١٠ ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٧٥ ، ابن أبى دينار (أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى) ، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ، طبعة تونس ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٨ .

(٢١) مجهول ، المصدر السابق ، ص ١٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٢ ، عنان دول الطوائف ، ص ٣٠٣ .

(٢٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٧ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ .

(٢٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

وجده بها من مغراوه وأصلح أحوالها ، وقدم عليها عاملا من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد الى الصحراء(٢٤) .

وفي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) توفى الامير يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة ، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس ففي ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون صوب بلاد السوس ، وأختار أبو بكر بن عمر أبن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطى ، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، وفي هذه الحملة التي قادها يوسف ابن تاشفين تمكن المرابطون من الاستيلاء على بلاد جزوله وبلدة ماسة وتارودانت عاصمة بلاد السوس ، ثم عبروا جبال درن واستولوا على بلاد وردة وشفشاوة ونفيس واقليم جدميوه وبايعتهم قبائل تلك الناحية(٢٥) ، ثم سار المرابطون الى مدينة أغمات ، وكان أميرها يومئذ لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ولكنه اضطر الى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة ، فخرج يلتمس النجاة في أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ الى حماية بني يفرن أمراء تادلا ، فدخل المرابطون أغمات في عام ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)(٢٦) ، وأقاموا فيها ما يقرب من الشهرين ، ثم

---

(٢٤) ابن أبي زرع ، نفسه ، ص ٨٧ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ١١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٧ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٠٤ .

(٢٥) ابن أبي زرع روض القرطاس ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ ، ص ٣٧٦ .

(٢٦) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

واصلوا السير بعدهما لغزو تادلا ، فاستولوا عليها ، وقتلوا من بها من بنى يفرن ، وقتلوا كذلك لقوط المغراوى أمير اغمات(٢٧) ، وتزوج أبو بكر بن عمر من السيدة زينب النفزاوية زوج لقوط المغراوى ، ثم سار ابن ياسين الى بلاد تامسنا فافتتحها ، وكان ينزل بسواحلها بعض قبائل برغواطة ، وكانت برغواطة تدين بمذهب تتنافى تعاليمه الاباحية مع أحكام الاسلام أسسه رجل يهودى الاصل يدعى صالح بن طريف البرغواطى ، فكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون الى قتال هؤلاء القوم، فسار ابن ياسين وقائده أبو بكر بن عمر فى جموع المرابطين الى أرض برغواطة ، وكان أميرهم يومئذ أبو حفص ابن عبد الله ابن أبى غفير بن محمد بن معاذ ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها ابن ياسين بجراح بالغة ، حمل على أثرها الى معسكره ، فجمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة ، ولم يلبث أن فارق الحياة(٢٨) .

---

(٢٧) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٨٨ ، ابن خلدون ، نفسه ، ص ٣٧٦، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٦ ، عنان دول الطوائف ، ص ٣٠٥ ، ص ٣٠٦، شعيره ، المرابطون ، ص ٦٢ .

(٢٨) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ وفاة ابن ياسين وانقسموا الى فريقين ، فريق يرى أن الوفاة كانت فى عام ٤٥١ هـ ومن هؤلاء البكرى ، وابن أبى زرع ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وفريق آخر يرى أن الوفاة حدثت فى عام ٤٥٠ هـ ومنهم القاضى عياض ، وصاحب الحلل الموشية ، وابن خلدون ، والقلقشندى . والرأى عندى أن الوفاة حدثت فى أوائل عام ٤٥١ هـ ، ولاسيما أن ابن عذارى قد حدد تاريخ خروج ابن ياسين لقتال برغوطة فى أول ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وابن أبى زرع يحدد تاريخ الوفاة بشهر جمادى الاولى سنة ٤٥١ هـ ، ومن المعروف أن المعركة استمرت فترة طويلة بين الفريقين ولذا فمن المرجح أن الوفاة قد حدثت فى الشهور الاولى من سنة ٤٥١ هـ . =

اتفق رأى المرابطين على اختيار أبى بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين ، واجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر ، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بينما يؤكد كل من القاضى عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو ، ليرجعوا اليه فى مشاكلهم وقضايا دينهم (٢٩) .

وما ان فرغ أبو بكر بن عمر من دفن ابن ياسين ، حتى أمر بتعبئة عساكره وخرج لقتال برغواطة ، فأستأصلهم بالقتل ، وفرق جموعهم ، ثم لم يلبثوا أن اعلنوا الطاعة والولاء له ، وأسلموا سلاما جديدا ، ثم قصد أبو بكر الى مدينة أغمات فمكث بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ثم تابع سيره الى بلاد المغرب ، ففتح بلاد فازاز وجبالها وسائر أراضى زناته ، كما افتتح بلاد مكناسة ، ثم حاصر مدينة لواته ودخلها عنوة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وخربها (٣٠) ، ثم عاد الى أغمات التى اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقرا للامير واخوته ، وعندما اكتظت بمجموعة ، اتجه أبو بكر الى اختيار حاضرة جديدة ،

= نظر : البكرى ، المغرب ، ص ١٦٨ ، القاضى عياض ، ترتنب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ٤ ، ص ٧٨٢ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٦ ، مجهول الحلل الموشية ، ص ١٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ ، القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، تحقيق احسان عباس ، طبعة بيروت ، بدون تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(٢٩) القاضى عياض ، ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ج ٤ ، ص ٧٨٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ .

(٣٠) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩١ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٨ .

فوقع اختياره على موضع مدينة مراكش الحالية ، فشرع فى تأسيسها : وبينما كان يشرف على بناء حاضرته الجديدة ، أتاه رسول من الصحراء يخبره باغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة ، واشتداد القتال بين الفريقين[٣١] ، فرأى أبو بكر أن يرحل الى الصحراء ليصلح بين القبائل المتنازعة ، وقام قبل رحيله بتطليق زوجته زينب النفزاوية ، وطلب منها الزواج من ابن عمه يوسف بن تاشفين[٣٢] ، كما قدم يوسف لينوب عنه فى رئاسة المرابطين ، وأقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما عرف عن يوسف من الفضل والورع ، وسداد الرأى والشجاعة ، وبعد النظر وهى أخص صفات الزعامة[٣٣] ، وقد قسمت القوات المرابطية عندئذ الى جيشين ، تولى يوسف امرة أحدهما ليتم به اخضاع المغرب ، وتولى أبو بكر أمرة الآخر ، وبدأ يوسف على الفور فى تأديب القبائل المغربية من مغراوه وزناته وبنى يفرن وغيرهم ، فوقع اختياره على أربعة من القواد هم : محمد بن تميم الجدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى ، ومدرك التلكاتى وسير بن أبى بكر اللمتونى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة ، وسار هو فى أثرهم ، فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة ، وبلدا بعد بلد ، وكان بعضهم يفرون، وبعضهم يقاتلونه ، والبعض الآخر يدخلون فى طاعته ثم رجع الى أغمات حيث تزوج من زينب النفزاوية[٣٤] .

وفى عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، خرج يوسف بن تاشفين فى جيش كثيف

---

(٣١) مجهول ، الحلل ، ص ١٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٩ .
(٣٢) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٢ ، ابن عذارى ، نفسه ، ص ٢١ .
(٣٣) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ترجمة عنان، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦ .
(٣٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

يتجاوز عدته مائة ألف فارس ، قاصدا مدينة فاس . وتمكن من دخولها صلحا سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وهو الفتح الاول لها ، واستخلف عليها عاملا من لمتونه(٣٥) ، ثم مضى لمحاربة غمارة ، وفتح كثيرا من حصونها وقلاعها ، فانتهز الامير تميم بن معتصر المغراوى أمير فاس وكان قد فر عنها قبل دخول المرابطين لها ، انتهز فرصة انشغال يوسف بن تاشفين بمحاصرة قلاع بلاد فازاز ، ودخل مدينة فاس ، وقتل عامل المرابطين عليها ، ولما بلغ يوسف ذلك سير المهدى بن يوسف الجزناءى أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالامارة ، ودخل فى طاعته فابقاه يوسف على مكناسة ، فسيره يوسف الى فاس ، حيث دار القتال بين المهدى وتميم المغراوى ، وانتهى بمصرع المهدى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فأرسل أهل مكناسة الى يوسف بن تاشفين يخبرونه بموت أميرهم ، وطلبوا منه أن يؤمر عليهم من يراه جديرا بامارتهم(٣٦) ، فوجه يوسف حملات متتالية على فاس ، تمكنت احداها من قتل تميم بن معتصر ، الذى خلفه على فاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبى العافية الزناتى المكناسى ، الذى تمكن من الانتصار على جيوش المرابطين المحاصرة لفاس ، والحاق الهزيمة بها ، فوصلت أخبار تلك الهزيمة الى يوسف بن تاشفين ، وكان محاصرا لقلعة مهدى من بلاد فازاز فترك بعض قواته لمواصلة الحصار ، بينما تحرك هو بقواته نحو فاس فلما رحل عن قلعة مهدى سار الى بنى مراسن وذلك سنة ٤٥٦ هـ

---

(٣٥) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٩ ، العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، ص ٧٣ ، شعيره ، المرابطون ، ص ٩٠ .

(٣٦) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، ابن خلدون ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٧٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٩٩ ، ص ٧٠٠ .

(١٠٦٣ م) ؛ وفتــح بلادهم ، ثم فتح بلاد ورغه كلهــا سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) ؛ ثم فتح جميع بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ثم أقبل نحو فاس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ، فشدد عليها الحصار ، حتى دخلها عنوة فى ٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٢ هـ ، وقتل بها خلقا كثيرا من قبــائل مغراوه وبنى يفرن ومكناسة وزناتة[٣٧] ، وقام بتحصين فاس ، وهدم الاسوار الفاصلة بين عدوه القرويين وعدوه الاندلسيين وجعلهما مدينة واحدة ، وأمر ببنيان المساجد فى شوارعها وأزقتها ، كما بنى الحمامات والفنادق وأصلح الاسواق[٣٨] وأقام يوسف بفاس الى شهر صفر سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، فخرج منها الى بلاد ملوية فافتتحها ، كما افتتح حصون وطاط من نواحيها ، وفى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ، غزا يوسف بن تاشفين مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، فدخلها عنوة ، وفى سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٤ م) فتح غياثة وبنى مكود وبنى رهينة من أحواز تازا ، وفى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) رأى يوسف ضرورة الاستيلاء على طنجة وسبته ، فبعث قائده صالح بن عمــران فى اثنى عشر ألف فارس من المرابطــين وعشرين ألفا من سائر القبائل المغربية ، فالتقوا مع قوات الحاجب سكوت البرغواطى بأحواز وادى منى من أحواز طنجه ، وفى هذه الموقعة لقى سكوت مصرعه وانهزم جيشه ، ودخل المرابطون طنجة[٣٩] ، أما سبته

---

(٣٧) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٧ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٩ ؛ ســالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٠٠ ، العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، شعيره ، المرابطون ، ص ٩٢ ٠

(٣٨) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ؛ ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ٠

(٣٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ٠

فقد صمد فيها الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطى ، الى أن تمكن يوسف بمساعدة المعتمد بن عباد الذى أمده بسفينة حربية ضخمة ، من اقتحامها برا وبحرا فى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨١ م)[٤٠] . كذلك سير يوسف قائده مزدلى لغزو مدينة تلمسان ، فتمكن هذا من الاستيلاء عليها فى الوقت الذى افتتح فيه يوسف مدينة آجر سيف ومليلة ، وجميع بلاد الريف ووهران وجبال وانشريشن الى الجزائر الحالية[٤١] . وهكذا تمكن يوسف بن تاشفين من فرض سيطرته على المغرب الاقصى ، ولكنه لم يدخل فى صراع مع اخوانهم الصنهاجيين فى المغربين الادنى والاوسط، ففى المغرب الادنى كان هناك بنو زيرى وفى المغرب الاوسط كان بنو حماد ، وهكذا انقسم المغرب الاسلامى الى قسمين شرقى يحكمه بنو زيرى وبنو حماد الصنهاجيين ، وغربى يحكمه المرابطون .

وفى هذه الاثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطد الامن فى الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة ، ثم عاد مرة أخرى الى المغرب الاقصى ، ونزل محلته خارج مدينة أغمات ، وقد تسابق أصحابه الى مراكش لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب وأغدق عليهم الهدايا والصلات . وقد أدرك أبو بكر بن عمر منذ الوهلة الاولى أن الامر قد خرج من يده ، وأن يوسف بن تاشفين قد استبد بكل الامور ، وكان يوسف قد شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الامر ، فأشارت

---

(٤٠) مجهول ، مفاخر البربر ، نشر وتصحيح يفى بروفنسال ، طبعة الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٥٦ ، ص ٥٧ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ .

(٤١) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ .

عليه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد ، ويلاطفه بعد ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبى بكر فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش ، حيث أقبل يوسف على أبى بكر وهو راكب فرسه ، ولم تكن تلك عادته مع أبى بكر من قبل ، كما نظر أبو بكر الى كثرة جيوش يوسف، فسأله ما تصنع بهذه الجيوش كلها ، فرد عليه بأنه يستعين بها على من خالفه ، وهنا أدرك أبو بكر أن يوسف قد وطد العزم على فرض نفوذه وسلطانه على المغرب الاقصى ، وأنه على استعداد لان يفعل أى شيء من أجل تحقيق هذا الهدف ، فأوصاه أبو بكر بالعدل والرفق بالمسلمين واختاره نائبا عنه على حكم المغرب الاقصى ، ثم ودعه وعاد الى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب ، وهنالك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل فى احدى غزواته فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)(٤٢) .

ب) الوضع فى الاندلس قبل تدخل المرابطين عسكريا :

فى الوقت الذى نجح فيه يوسف بن تاشفين فى تأسيس دولة كبيرة فى المغرب الاقصى ، كانت الاحداث تتطور تطورا سريعا فى الاندلس فقد كانت وحدة الاندلس قد تمزقت الى دويلات صغيرة صقلبية وعربية وبربرية وتبع ذلك انهيار قوة الاسلام العسكرية تبعا لهذا التمزق السياسى ، الامر الذى يسر أمام دول النصرانية وعلى الاخص قشتالة مهمة التهام هذه الدويلات واخضاعها الواحدة تلو الاخرى فى نفس

---

(٤٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣ ، مجهول ، الحلل الموشية، ص ١٣ ، ١٤ ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

الوقت الذى استغرق ملوك الطوائف على الترف واللهــو يدرءون ملوك النصرانية عنهم بالجزيات ويوادعوهم بالاتاوات الى أن تنبهوا بسقوط طليطلة فى عـــام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)[٤٣] فى يد ألفونســو السادس ملك قشتالة ، فقد جاء سقوطها نذيرا بما يترصد الاسلام فى الاندلس من خطار جســـام ، وارتج الاندلس كله لهذه الحادثة رجـــة عنيفة وشعر الاندلسيون أن أمر الاندلس كله الى ضياع ، وقد عبر الشاعر الاندلسى عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال عن الآثار المتوقعة لمصير الاسلام فى الاندلس بعد سقوط طليطلة بالابيات الثلاثة التالية :

يا أهــل أندلس حثــوا مطيكم فما المقـــام بها الا من الغـــلط

الثواب ينسل من أطرافـــه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحــن بين عـــدو لا يفارقنـــا كيف الحياة مع الحيات فى سفط[٤٤]

وقد كان من الضرورى فى تلك الظروف العصيبة أن تتحد القـــوى الاسلامية فى الاندلس لمواجهة هذا الخطر المسيحى ولكن ما حدث كان نقيض ذلك فقد بادر ملوك الطوائف الى استرضاء الفونسو السادس ، ورضوا على أنفسهم دفع الجزية له وارسال الهدايا المختلفة تقربا اليه .

---

(٤٣) عن أحداث سقوط طليطلة فى أيدى النصارى أنظـر : ابن بســام (أبو الحسن الشنتريني) الذخيرة فى محاسن أهـل الجزيرة ، القســم الرابع المجلد الاول ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٣٨ ، ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمــد بن محمد) ، وفيـات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ٥ ، ص ٢٧ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢٧، المقرى (شهاب الدن أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج ٦ ، ص ٨٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧١٨ ، ص ٧١٩ .
Dozy, R., Historire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932, vol., III.,p.121.

(٤٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٨٤ .

ويصف ابن الكردبوس أحوال ملوك الطوائف وقتئذ فيقول : « وذل الرئيس والمرءوس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الانفة الاسلامية ، وأذعن من بقى منهم خارج الذمة الى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عمالا يجبون له الاموال لا يخالف أمره أحد ولا يتجاوز له أحد(٤٥) » ، وعلى الرغم من هذا الاستذلال ، الا أن الفونسو السادس لم يقنع بذلك ، بل تطلع الى الاستيلاء على مدن الاندلس الاسلامية مدينة مدينة من أيدى المسلمين .

وكان المعتمد بن عباد أمير اشبيلية وقرطبة يؤدى الجزية لالفونسو السادس ، الى أن استولى الاخير على طليطلة ، توطئة لان يسيطر على بلاد ابن عباد وأخذ يتحين الفرصة لتحقيق حلمه هذا ، وقد اختلفت الروايات حول السبب المباشر للعداء بين ألفونسو السادس والمعتمد ، رواية تقول أن المعتمد قد انشغل عن أداء الاتاوة لالفونسو بغزو المرية فغضب ألفونسو وأرسل الى المعتمد يطلب اليه تسليم بعض حصونه الى عماله زيادة على الاتاوة وذلك من قبيل العقاب ، بل أمعن فى التجنى على المعتمد وطلب منه أن يسمح لزوجته القمطيجة بدخول جامع قرطبة لتلد فيه ، وزعم أن الاطباء والقساوسة أشاروا عليه بذلك ، وأرسل سفارة الى المعتمد على رأسها ابن شاليب اليهودى ؛ فرفض المعتمد كل ما تقدم به ابن شاليب من طلبات ، فأغلظ له اليهودى فى القول ، فغضب المعتمد وأخذ محبرة كبيرة كانت بين يديه ، فأنزلها بقوة على رأس اليهودى ، فألقى دماغه فى حلقة ، ثم أمر به فصلب بقرطبة(٤٦) . وهناك رواية

---

(٤٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، الجزء الخاص بالاندلس، نشر وتحقيق أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م ، ص ٧٧ .

(٤٦) الحميرى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) ، صفة =

أخرى تشير الى أن الفونسو أرسل سفارته السنوية لقبض الاتاوة من المعتمد ، وكان على رأس السفارة ابن شاليب اليهودى ، ونزلت السفارة خارج باب اشبيلية ، فأرسل المعتمد اليهم المال مع بعض وزرائه ، فرفض ابن شاليب أن يتسلم المال ، وصمم على أن يأخذ الاتاوة ذهبا ، فضلا عن بعض السفن التى تقوم البلاد بصناعتها ، فغضب المعتمد ، وأمر بقتل اليهودى ، ورفض أن يعفو عنه فى مقابل أن يفدى نفسه بما يعادل وزنه ذهبا(٤٧) .

ولما بلغ الفونسو السادس ما فعله ابن عباد ، أقسم بآلهته ليغزونه باشبيلية وليحاصرنه فى قصره ، فجرد جيشين ، جعل على الاول أحد قواده وأمره أن يسير الى كوره باجه من غرب الاندلس ، ثم يغير على تلك التخوم والجهات الى أن يصل الى اشبيلية ، فى نفس الوقت الذى يزحف فيه ألفونسو السادس بالجيش الآخر ، سالكا طريقا غير الطريق الذى يسلكه الجيش الاول ، وبالفعل عاث الجيشان فى البلاد وخربا ودمرا الى أن اجتمعا لموعدهما على ضفة نهر الوادى الكبير قبالة قصر ابن عباد(٤٨) ، كنوع من المظاهرة العسكرية التى تستهدف بث الذعر فى نفوس المسلمين . وكان ابن عباد فى هذه الاثناء قد أدرك أن العلاقات بينه وبين الفونسو السادس قد وصلت الى طريق مسدود ، وأن النوايا

= جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٨٤ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

(٤٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ابن الخطيب ، الجزء الثانى الخاص بتاريخ أسبانيا ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ م ، ص ١٨٥ ، ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، نشر وتحقيق محمد عبد الله عنان ، الجزء الثانى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ١١٠ .

(٤٨) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٥ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

التوسعية لالفونسو السادس قد أضحت تماما ، وأن هــذه النوايا لن تقتصر على ما يملكه ابن عباد ، بل ستشمل كل أرجاء الاندلس تحقيقا لحلم النصارى فى طرد العرب نهائيا من الاندلس ، ولذا فقد رأى المعتمد ضرورة الاستعانة بأقـرب وأكبر قوة اسلامية مجاهــدة وهى القـوة المرابطية الفتيـــة التى تمكنت من الظهور حديثا فى المغـــرب الاقصى ، فشاور ابن عباد خاصته ووجوه دولته فى الاستنجاد بيوسف ابن تاشفين، ولكنهم حذروه وأشاروا عليه بمداراة ألفونسو السادس وعقد السـلم معه على ما يشتهيه من شروط ، وقالوا له « الملك عقيـــم والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد ، فأجابهم ابن عباد بكلمته المشهورة التى عدت من الأمثال « رعى الجمال خير من رعى الخنازير »(٤٩) ، ثم اختلى بابنـه الرشيد وذكر له المبررات التى حملته على أن يقدم على هذه الخطـوة الجريئة ، وهى ضعف دول الطوائف الى حد استحالة صمودهم وتهديد ألفونسو السادس بعد أن ضم طليطلة وزحف الى اشبيلية ، غير أن ابنه الرشيد اعترض عــلى رأى والده وقال له : « يا أبت أتدخــل علينا فى اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » ، فقال : « أى ابنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الاندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على « اللعنة فى منابر الاســلام مثل ما قامت على غـــيرى » ، فقال الرشيد «يا أبت أفعــل ما أمرك الله» ، فقال « ان الله لم يلهمنى لهذا الا وفيه خير وصلاح لنا ولكافةالمسلمين »(٥٠) ، ثم ان المعتمد عقد اجتماعا مـع

---

(٤٩) مجهـول ، الحلل الموشية ، ص ٢٧ ، الحميـرى ، صفة جـزيرة الاندلس ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .

Dozy; R., Histoire des Musulmanc d'Espage, vol., III., p. 124; Miranda (Ambrosio Huici), La invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaka, Hesperis 1-2 Trimstres, T, XI, 1958, p. 26.

(٥٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

Turk (Afif), El Reino de Zaragoza en el Siglo XI de Cristo (V de la Hegiro), Madrid, 1978, p. 148. Dozy, Histoire., vol., III, p. 123.

أشياخ قرطبة وفقهائها لدراسة الموقف فى الاندلس ، عرض عليهم فيه اقتراحه باستدعاء المرابطين ، فرأى هؤلاء الشيوخ استدعاء عرب افريقية من بنى هلال ، ولكن عبد الله ابن أدهم قاضى الجماعة بقرطبة رفض هذه الفكرة ، وقال لهم : « اذا وصلوا الينا يخربون بلادنا كما فعلوا بأفريقية ، ويتركون الفرنج ، ويبدءون بكم ، والمرابطون أصلح منهم وأقرب الينا » ، فوافقوا ابن أدهم على رأيه وطلبوا منه أن يكاتب يوسف بن تاشفين فى العبور الى الاندلس(٥١) .

وهكذا اجتمعت رغبة المعتمد مع رغبة فقهاء قرطبة فى استدعاء المرابطين لنصرة الاسلام فى الاندلس ، ولكن المعتمد لم يكتف بذلك بل أراد أن تتم الرغبة باجماع فقهاء الاندلس جميعا ، فخاطب المعتمد جاريه المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فى أن يرسل كل منهما قاضى حضرته للاجتماع مع قاضى الجماعة بقرطبة ، فوصل من بطليوس قاضيها أبو اسحاق بن مقانا ، ومن غرناطة قاضيها أبو جعفر القليعى ، واجتمعا فى اشبيلية بابن أدهم قاضى الجماعة بقرطبة وانضم اليهم الوزير أبو بكر بن زيدون ، وتقرر أن يرحل هؤلاء فى وفد يمثل أهل الاندلس وملوكها الى مراكش لمقابلة يوسف بن تاشفين ، لينقلوا اليه رغبة ملوك وفقهاء الاندلس فى دعوته الى العبور الى الاندلس لتخليص الاسلام والمسلمين من الخطر المسيحى المحدق بشبه الجزيرة(٥٢) . وعندما وصل هذا الوفد الى مراكش لمقابلة ابن تاشفين

---

(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

(٥٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الابار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) ، الحلة السيراء ، جزءان ، نشر وتعليق حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .
Miranda, La invasion de los Almoravdes, p. 27.

ودعـوته الى نصرة الاندلس ، رأى يوسف ضرورة استشـارة قومه وفقهائه وكبار رجال دولته فى ذلك،فوافقوا على تلبية هذه الدعوة ، وقالوا له ان الواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اغاثة أخيه المسـلم ، كذلك استشار يوسف كاتبه عبد الرحمن بن اسباط وكان أندلسيا مـن مدينة المرية ، فذكر ابن اسباط ليوسف ما يعترض الحرب فى الاندلس من اخطار ، وأشار عليه أن يطلب من المعتمد التنازل عن الجزيرة الخضراء، ليضـع فيهـا يوسف أثقـاله وجنـوده ، وليضمن سـلامة خطـوط مواصلاته(٥٣) ، فأبلغ يوسف على الفور المعتمد بموافقته على العبور الى الاندلس على هذا الشرط ، فلما ورد كتاب يوسف على ابن عباد ، لم يتردد فى الاستجابة لمطلب ابن تاشفين ، وأمر ولده الراضى يزيد الوالى على الجزيرة الخضراء ، باخلائها والانتقال عنها(٥٤) .

وعندئذ بدأ يوسف يتأهب للعبور الى الاندلس ، فأرسل الى سائر مدن المغرب يطلب سرعة موافاته بالامدادات ، كما انتقل الى مدينة سبته للاشراف على نقل قواته الى الاندلس،فلما تكاملت حشوده،أمرها بالعبور الى الاندلس فى شهر جمادى الاولى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، ثم عبر هو فى أثرهم ، فنزل بالجزيرة الخضراء ، وحرص على تحصينها ، فأمر ببناء الاسوار حولها ، وأصلاح ما تصدع من أبراجها وشحنها بالاطعمة والاسلحة ، وأبقى فيها فرقة عسكرية من خيرة جنوده لتأمين ظهره فى

---

(٥٣) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣١ ، ص ٣٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

Dozy, Histoire., Vol., III, pp. 124-5.

(٥٤) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٣ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق، ص ٢٨٣ .

Dosy, Ibid., p. 127.

حالة انسحابه ، ثم رحل عن الجزيرة الخضراء متجها صوب اشبيلية ، ولما اقترب منها خرج المعتمد الى لقائه فى وجوه أصحابه وقواده ، وعند التقاء تعانق الرجلان ، وقدم المعتمد له الكثير من الهدايا والتحف ، ثم رحلت الجيوش الى اشبيلية ، حيث أقاموا ثلاثة أيام(٥٥) .

ثم كتب يوسف الى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم الى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد ، فلبى دعوته منهم كل من عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وأخوه تميم صاحب مالقة ، بينما اعتذر المعتصم بن صمادح صاحب المرية بكبر السن مع الضعف ، أو لخوفه من نتيجة المعركة ، واكتفى بارسال ابنه معز الدولة فى فرقة من الجند(٥٦) ، ثم تقدم يوسف بصحبة المعتمد الى بطليوس ، وهناك التقيا مع المتوكل بن الافطس ، فقدم لجيوشهما كل ما احتاجت اليه من المؤن والعتاد(٥٧) ، ورأى يوسف ابن تاشفين تقسيم الجيوش الاسلامية الى معسكرين ، معسكر أندلسى يضم جيوش الاندلس ، ومعسكر مرابطى يضم الجيوش المرابطية ، وجعل المعتمد على قيادة المعسكر الاول ، ولم تلبث الجيوش الاسلامية أن اتجهت الى شمالى بطليوس ، حيث أقامت معسكراتها بين بطليوس

---

(٥٥) المراكشى (عبد الواحد) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر سعيد العريان ، محمد العربى العلمى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ١٣١ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص٣٣ ، ص ٣٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢١ .

(٥٦) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠ ، ص ١٠١ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٤ .
Dozy, Histooire., vol., III, p. 126; Miranda, La invasion de los Almoravides, p. 40.

(٥٧) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ص ٣٥ .

وقوريه ، أى بين ضفتى وادى آنه ووادى تاجة وتسمية الرواية العربية بالزلاقة بينما يعرف بالاسبانية باسم Sagrajos (٥٨) .

وصلت أنباء جواز المرابطين الى شبه الجزيرة،الى ألفونسو السادس وهو محاصر لسرقسطة ، وكان قد أقسم ألا يبرحها حتى يدخلها ، ولكنه اضطر الى فك الحصار وعاد الى طليطلة(٥٩) ، ومن هناك كتب الى ملوك وأمراء النصارى يستمدهم لوقف الزحف المرابطى ، فوفدت اليه سريات من الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجويانة ، وبرجونية ، وبروفانس ، كما تحالف مع سانشوراميرث Sancha Ramirez ملك أرغون وصاحب بنبلونة ، والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولا بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يتأهب لغزو بلنسية ، وسار ألفونسو على رأس تلك القوات النصرانية الى الجنوب للقاء المسلمين(٦٠) .

تقدمت جيوش النصرانية حتى أصبحت على مبعدة ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ، وكان يفصل بينهم نهر بطليوس ، ولبث الجيشان الخصيمان ، كل منهما تجاه الآخر مدى أيام ثلاثة ، ثم نشب القتال العنيف بينهما ، الذى انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون على القوى النصرانية(٦١) .

---

(٥٨) عن موقع الزلاقة أنظر : مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣٣ ، ص٣٤، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ ــ ٩٠ .

(٥٩) Dozy, Histoire., III, p. 126; Terrasse, Histoire du Maroc, vol., II, p. 234; Turk; El Reino de Zaragoza, p. 150

(٦٠) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٤ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢، Pidal, R.M., La Espana del Cid, Cuarto edicion, Madrid, 1947, Vol., I, pp. 331-2.

(٦١) تختلف الروايات الاسلامية فى تحديد تاريخ معركة الزلاقة : فيقول ابن الاثير أنها كانت فى أوائل رمضان سنة ٤٧٩ هـ ، ويقول المراكشى أنها =

ويبدو أن يوسف بن تاشفين كان ينوى تعقب الفونسو السادس فى بلاده(٦٢) ، لولا أن وافته الانباء بوفاة ابنه الاكبر أبى بكر(٦٣) ، فأضطر الى العودة الى المغرب ، وترك تحت امرة المعتمد فرقة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف من المقاتلين المرابطين وقدم عليهم سير بن أبى بكر اللمتونى(٦٤) .

ولقد كان لانتصار الزلاقة عدة نتائج هى :

١ — أنقذ الاسلام والمسلمين فى الاندلس من أيدى النصارى ، الذين كانوا يتطلعون الى القضاء على الاسلام وطرد المسلمين من شبه الجزيرة .

٢ — تألق نجم يوسف بن تاشفين ، وذيوع صيته فى المغرب والاندلس بل أنه أصبح فى نظر الفقهاء هو مبعوث العناية الالهية(٦٥) .

= كانت فى رمضان سنة ٤٨٠ هـ ، ويقول ابن الابار أنها كانت فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ويتفق معه ابن أبى زرع ، وصاحب الحلل الموشية . وهذا هو التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح الى عدوة المغرب ، كما أن الرواية المسيحية تحدد تاريخ المعركة بالثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م وهو يتفق مع الثانى عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ .

أنظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٢ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٥ ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠١ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

Dozy, Histoire., vol., III, p. 129; Miranda, Histoia Musulmans De Valencia y su Regon, Valencia 1960 - 70, vol., H, p. 16.

(٦٢) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ٩٥ .

(٦٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ٩٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٦ .

(٦٤) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٩ .

(٦٥) Dozy, Histoire., vol., III, p. 131.

٣ — حرر سرقسطة وحماها من الوقوع فى أيدى القشتاليين ، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالاندلس ، كما أنقذ طرطوشة من حصار سانشو راميرث لها ، وكذلك بلنسية التى كان برنجار ريموند يتأهب لغزوها(٦٦) .

٤ — حمى غرب الاندلس من خطر القشتاليين بعد أن تولى المرابطون اندفاع عنها وحمايتها(٦٧) .

٥ — كان مبررا كافيا لانعقاد الصلح بين الفونسو السادس وقائده السيد الكنبيطور (٦٨) .

٦ — أسقط من قدر ملوك الطوائف فى نظر رعيتهم ، ومهد السبيل الى اسقاط دويلات الطوائف وسيطرة المرابطين على الاندلس(٦٩) .

جـ) الاندلس فى أعقاب الزلاقة :

تولى الامير سير بن أبى بكر قيادة الجيش المرابطى فى الاندلس ومن الجدير بالذكر أن المتوكل على الله بن الافطس أمير بطليوس لم يتردد فى المشاركة فى الاغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين فى تلك الانحاء ، كما زحف المعتمد بن عباد فى قوة كبيرة من الفرسان على طليطلة ، واستولى على عدة مدن منها اقليش وقونكة ووبدة ، ثم اتجه ابن عباد الى أرض مرسية ، حيث استقرت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور فى أحد

---

(٦٦) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٦ .

(٦٧) Dozy, Ibid., p. 131.

(٦٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٧ .

(٦٩) سالم ، نفسه ، ص ٧٢٧ .

الحصون القريبة وأخذت من هناك فى الاغارة على المدن الاسلامية وخاصة على مدينة المرية ، فاشتبك ابن عباد مع الكنبيطور ولكنه انهزم واضطر الى الفرار ، ولم ينقذه من مطاردة النصارى له سوى التجائه الى قلعة لورقة فى كنف واليها محمد بن لبون ، ثم تركها متجها نحو قرطبة تاركا مرسية لمصيرها ، حدث ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه جموع النصارى — بعد ما وصلتهم قوة من القشتاليين أرسلها الفونسو السادس — تهدد مدن شرق الاندلس من حصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة ، فكانوا يخرجون منه للغزو والاغارة على الاراضى الاسلامية المجاورة لهم(٧٠) .

وهكذا لم يمض عام واحد على هزيمة الفونسو السادس ، حتى بدأ يستعيد قوته التى فقدها،فنقل ميدان نشاطه هذه المرة الى شرق الاندلس، الذى كان ممزقا من الناحية السياسية بعكس الغرب الذى كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا اشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبى بكر(٧١) .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الجهاد فى الاندلس ، وأن الامر يتطلب ضرورة عودة يوسف بن تاشفين مرة أخرى الى مسرح الاحداث فى الاندلس ، فوفدت على المغرب من جديد وفود

---

(٧٠) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٩ ، ص ٩٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٨ ، ص ٧٢٩ .

Cadera (Francisco), Decadencia y Desaporicion de Los Al Morvides on Espana, Zaragoza, 1899, p. 3.

(٧١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٨ .

Pidal, Espana del Cid, vol., I, p. 350.

أهل الاندلس لاسيما أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، يشكون الى الامير يوسف ، ما حل بهم على أيدى النصارى الذين يتحكمون من حصن لييط على قواعد شرق الاندلس ، فوعدهم يوسف بالجواز اليهم ، كما عبر المعتمد ابن عباد المجاز الى المغرب حيث استقبله الامير يوسف فى موضع على وادى سبو وأطلعه المعتمد على أحوال أهل الاندلس ، وما يعانونه من غارات النصارى عليهم ، وعرض على يوسف العبور الى الاندلس ، فاستجاب يوسف لرغبته (٧٢) .

ثم جواز يوسف الى الجزيرة الخضراء فى ربيع الاول سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ، ومن هناك كتب جميع أمراء الاندلس ، يدعوهم للجهاد ، واتفق معهم أن يكون اللقاء عند حصن لييط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء الى مالقة فى صحبة أميرها تميم بن بلقين ، كما لحق به الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح ، فضلا عن المعتمد بن عباد ، بالاضافة الى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الافطس صاحب بطليوس ، واتجهت تلك الحشود الى حصن لييط ، الذى تحتشد فيه حامية قشتالية قوامها ألف فارس واثنى عشر الفا من المشاة ، ثم ضرب المسلمون الحصار حول

---

(٧٢) ابن بلقين (الامير عبد الله الزيرى) : مذكرات الامير عبد الله الزيرى المسماه بكتاب التبيان ، نشره وحققه ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، يقول ابن بلقين أن جواز المعتمد الى المغرب كان لغرضين أولهما رغبته فى الاستيلاء على مرسية من يد ابن رشيق وتسليمها لابنه الراضى بالله عوضا عن الجزيرة الخضراء ، وثانيهما الاستصراخ بيوسف بن تاشفين ضد النصارى لحماية أملاكه فى شرق الاندلس . المذكرات ص ١٠٨ ، أنظر أيضا مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ص ٤٨ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٠ .

Dozy, Histoire., vol., III, p. 133.

الحصن ما يقرب من أربعة أشهر(٧٣) ، واستبسل النصارى فى الدفاع عنه ، كما كانوا يخرجون ليلا للانقضاض على المسلمين والحاق الخسائر بهم(٧٤) .

وفى أثناء الحصار وقعت بعض الاحداث المؤسفة فى المعسكر الاسلامى ، فقد بدأ أمراء الاندلس يحكمون يوسف فى خلافاتهم ، فالمعتمد شكا اليه خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه لالفونسو السادس تقربا اليه ، فأمر يوسف — بعد استشارة الفقهاء — بالقبض على ابن رشيق وسجنه ، فتفرق شمل شيعته ، وانسحب جنده من المعركة ، وقطعوا الميرة عن القوم ، فوقعت المجاعة وغلت الاقوات(٧٥) ، وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف ، وردت الانباء بتقدم الفونسو صوب لييط لانقاذ المدافعين عن الحصن ، وهنا قرر يوسف بن تاشفين ترك الحصار واتجه بحشوده نحو لورقة ، فالمرية ومنها ركب البحر الى مراكش ، وهنا أقبل الفونسو بحشوده ونزل على حصن لييط ، ورأى أنه نظرا لموقع الحصن فى قلب بلاد المسلمين ، فأنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر بتقويض أسواره، وإخلائه ممن بقى فيه من النصارى، وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف

---

(٧٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٨ ، ص ٤٩ .

Dozy, Ibid, vol., III, p. 140; Terrasse, Histoire du Maroc, vol., II, p. 234; Turk, El Reino de Zaragoza, p. 158.

(٧٤) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩١ .

(٧٥) عبد الله بن بلقين الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٠ .

Terrase, Histoire du Maroc, vol., II, p. 236.

مقاتل ، ثم عاد الى حاضرته طليطلة[٧٦] ، ثم تحرك ابن عباد بعد ذلك واستولى على الحصن بعد تخريب النصارى له[٧٧] .

عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب ، وقد عزم على التخلص من ملوك الطوائف بعد ما استبان له خيانتهم باتصالهم بنصارى أسبانيا، وتقاعسهم عن الدفاع عن أراضيهم ، كما استبان له أن بعضهم كان يلوذ بالجزيات للاستنصار بألفونسو السادس لاسيما صاحب غرناطة الذى اتفق مع البرهانس Alvar Hanez وكيل الفونسو السدس فى جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار[٧٨] ، كما أن المعتمد بن عباد استغل حركة الجهاد المرابطى فى الاندلس لتحقيق مصلحته الشخصية ، فهو لم يستعن بالمرابطين فى المرة الثانية الا ليتخلص من خطرين أولهما خطر حصن لييط على ممتلكاته فى شرق الاندلس ، وثانيهما كى يتخلص من ابن رشيق الذى انتزع مرسية التى كانت من أملاك ابن عباد ، ولذا بات واضحا ليوسف بن تاشفين أن حركة الجهاد فى الاندلس تستلزم القضاء أولا وقبل كل شىء على ملوك الطوائف ، وقاية لنفسه ولقواته من التعرض للطعن من الخلف أثناء جهاده ضد النصارى ، ومما شجع يوسف على المضى فى مشروعه هذا الفتاوى التى وصلت اليه من فقهاء المشرق والمغرب على السواء وعلى رأسهم الامام الغزالى والطرطوشى وغيرهما وكلها تجيز له التخلص من ملوك

---

(٧٦) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٩٥ ، سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٣٠ .

Cadera, Decadencia y Desaparicion, p. 3; Dozy, Histoire., vol., III, p. 140.

(٧٧) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١٠٦ .

(٧٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٠ ، ص ٧٣١ .

Miranda, Historia Musulmana De Valencia, vol., II, p. 22.

الطوائف(٧٩) ، كما أن الاستيلاء على الاندلس كان يعتبر ضرورة عسكرية واستراتيجية تتطلبها الظروف المستجدة بالنسبة لدولة المرابطين الناشئة باعتبار أن الاندلس خط الدفاع الاول عن المغرب الاسلامى .

جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) وهو ينوى هذه المرة عزل الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة بعد أن وضح تواطؤه مع الفونسو السادس ، فحاصر يوسف غرناطة ، وتمكن من دخولها ، واستولى على قصر ابن بلقين ، كما أرسل نفس الوقت فرقة من جيشه الى مدينة مالقة ، حيث ألقى القبض على الأمير تميم بن بلقين ، ولما تم له ذلك أمر بنفيهما الى مدينة أغمات بأرض المغرب ، فأرسلا اليها وأقاما بها الى أن توفيا(٨٠) .

وفى العام التالى ، تحرك يوسف بن تاشفين من مراكش الى سبتة ليشرف على عبور الجيوش المرابطية الاربعة التى قرر ارسالها الى الاندلس للقضاء على ملوك الطوائف منفردين ، وتولى سير بن أبى بكر قيادة الجيش المرابطى الاول وأصدر اليه الامير يوسف أمره بمحاصرة المعتمد بن عباد فى اشبيلية ، فان تمكن من الاستيلاء عليها ، زحف الى بطليوس للقضاء على المتوكل بن الافطس ، أما الجيش المرابطى الثانى فأسند قيادته الى عبد الله بن الحاج ، وعهد اليه بمنازلة الفتح الملقب بالمأمون ولد المعتمد بن عباد فى قرطبة ، أما الجيش الثالث فقد جعل على قيادته أبا زكرياء بن واسنو وأمره بمحاصرة المعتصم بن صمادح بالمرية ، أما الجيش الرابع فقد تولى قيادته جرور الحشمى وأمره يوسف بمنازلة

---

(٧٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .
Dozy, Histoire., vol., III, p. 141.

(٨٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥١ .
Dozy, Ibid, p. 145.

يزيد الراضى ولد المعتمد برنده ، أما يوسف بن تاشفين فقد أقام بمدينة سبتة على رأس الجيش الاحتياطى ، مترقبا لما يحدث ، متأهبا لنجدة هذه الجيوش التى أرسلها الى الاندلس(٨١) .

سار الامير سير بن أبى بكر الى اشبيلية ، وكانت العلاقات قد ساءت بين يوسف والمعتمد،لاسيما بعد أن لجأ الاخير الى طلب مساعدة الفونسو السادس فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية بين المعتمد والفونسو السادس مما أغضب يوسف ، فشاور الفقهاء فى أمره ، فأشاروا عليه بالاستيلاء على بلاده(٨٢) ، ولذا مضى سير الى أشبيلية ، وهاجم أسوارها وأحكم عليها الحصار ، وفى نفس الوقت أرسل سير قائده يطى ابن اسماعيل الى مدينة جيان ، فتمكن من دخولها صلحا ومنها ارتحل الى قرطبة ، حيث تمكن من افتتاحها يوم الاربعاء الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، ثم فتح يطى أيضا بياسة وأبده ، وحصن البلاط ، وحصن المدور والصخيرةوشقورة ، ثم ارتحل سير عن أشبيلية ، وسار الى قرمونة ودخلها يوم السبت ١٧ ربيع الاول سنة ٤٨٤ هـ ، ثم عاد مرة أخرى،وشدد حصاره على أشبيلية ، مما جعل المعتمد يستغيث بألفونسو السادس ويستصرخه،ويعده باعطاءه بلاده،ان أنقذه من الحصار المرابطى فأرسل اليه الفونسو قائده البرهانس فى جيش من عشرين ألف فارس ، وأربعين ألف رجل ، فلما علم سير بقدوم الجيش القشتالى ، اختار عشرة آلاف رجل من فرسانه وقدم عليهم القائد ابراهيم بن اسحاق اللمتونى ، فالتقى ابراهيم بالقشتاليين بالقرب من حصن المدور(٨٣) ، وقيل فى بامه

---

(٨١) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٢ ، وانظر أيضا : أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٨٢) عبد الله بن بلقين الزيرى ، التبيان ، ص ١٦٩ .

(٨٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

من أحـواز أشبيلية(٨٤) ، حيث دارت معركة عنيفـة انتهت بهـزيمة القشتاليين(٨٥) ، وفى نفس الوقت شدد سير حصاره على أشبيلية ، ودافع المعتمد عن حاضرته أشد دفاع ، وصمدت المدينـة لهجمات المرابطين ، حتى أنه ينسب الى سير أنه قال « لو أنى أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع »(٨٦) ، وأخيرا تمكن سير بمساعدة أهالى أشبيلية من دخول المدينة من ناحية نهر الوادى الكبير يوم الاحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ(٨٧)، وقبض على المعتمد وأهله وانتهبت قصوره وأمواله وذخائره ، وأرغم هو وزوجتـه على الكتابة لولديهما المعتـد بالله الى على مارتلة ، والراضى بالله الوالى على رنده ، وكانتا من المعاقل الحصينة فى الاندلس ، وقـد طلب المعتمد وزوجته من ولديهما الاستسلام للمرابطين(٨٨) ، وكان جرور الحشمى محاصرا لرنده ، بعد أن فشل فى فتحها،فلما وصل للراضى خطاب والديه ، سارع بفتح أبواب مدينته لجرور بعد أن تعهد له الاخير بالحفاظ على أرواح أهلها ، ولكنه نكث بوعده ، وقبض على الراضى وقتله ، كمـا قتل كل من وجده بها من الجند والفرسان(٨٩) ، أما المعتد ، فان القائد المرابطى الذى أرسل اليه ، اكتفى بالاستيلاء على كل ما كان يملـكه المعتد(٩٠) ، وخرج المعتمد بن عباد وأهله من أشبيلية ، حيث استقر به

---

(٨٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام الجزء الثانى الخاص بتاريخ الاندلس ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ م ، ص ١٨٩ ٠

(٨٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ٠

(٨٦) عبد الله بن بلقين ، التبيـان ، ص ١٧٠ ٠

(٨٧) عبد الله بن بلقين ، نفسه ، ص ١٧٠ ، ابن الاثيـر ، ج ٨ ، ص ١٥٥ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣١ ٠

(٨٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ ٠

(٨٩) عبد الله بن بلقين ، نفسه ، ص ١٧١ ، المراكشى ، نفسه ، ص ١٤٣ ٠

(٩٠) المراكشى ، نفسه ، ص ١٤٣ ٠

المقام بمدينة أغمات ، ومكث بها الى أن توفى فى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)[٩١].

ولما فرغ سير من أشبيلية ، سير الى المرية ، القائد داود بن عائشة[٩٢] ، وقيل يحيى بن واسنو[٩٣] ، وكان صاحب المرية المعتصم بن صمادح مريضا ، فلم علم بقدوم المرابطين وحصارهم لمدينته ، اشتد عليه المرض ولم يلبث أن توفى ، وكان المعتصم حينما حضرته الوفاة ، قد أوصى ولده وولى عهد معز الدولة أحمد بن المعتصم ، بالهروب الى بنى حماد أصحاب بجاية والقلعة بالمغرب الاوسط ، واشترط عليه ألا يفعل ذلك الا بعد سقوط اشبيلية وخلع أميرها المعتمد ، فلما سقطت اشبيلية بدأ معز الدولة تنفيذ وصية والده ، فخرج فى أهله وذخائره وأمواله فى احدى السفن ، بعد أن لجأ الى الحيلة والدهاء ، فقد أخبر أهل مدينته أنه ذاهب للقاء أمير المسلمين واعلان ولائه وطاعته له ، ولكن بمجرد أن توسطت سفينته البحر ، تحول صوب الجزائر ، حيث نزل على المنصور بن الناصر بن علناس صاحب قلعة بنى حماد الذى أكرمه وخيره فى أقطار بلاده التى يحب سكناها ، فأختار أن يقيم فى مدينة تدلس الواقعة على البحر[٩٤].

تحرك سير بن أبى بكر نحو بطليوس ، وكانت بطليوس قاعدة ملك

---

(٩١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٢٣ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ .

(٩٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ .

(٩٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٩٤) حول سقوط المرية فى أيدى المرابطين أنظر : عبد الله بن بلقين ، التبيان ص ١٦٧ ، ص ١٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٤ ، سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٦٩ م ، ص ٨٢ .

دولة بنى الافطس ، وكان يحكمها وقتئذ المتوكل بن الافطس ، وكان قد تحالف مع الفونسو السادس ، وبذل له ثلاث مدن هامة من أملاكه هـى أشبونة وشنترين ثمنا لتحالفه معه ، فكان لهذا أثره فى زيادة هوة الخلاف بين المرابطين وابن الافطس،فعزم سير على معاقبة ابن الافطس فاندفع بقواته صوب بطليوس ، فاضطر المتوكل الى الامتناع بقصبة بطايوس المنيعة ، ولكن القوات المرابطية اقتحمتها ليـلا ، وألقت القبض عـلى المتوكل وولديه ، ثم قتل هو وابناه(٩٥) .

وفى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، أمر يوسف بن تاشفين قائده داود بن عائشة بالسير الى مرسية قاعدة شرق الاندلس ، وتمكن من هزيمـة فرقة عسكرية للنصارى ، وخلع صاحب مرسية ، ثم زحف الى دانيـة ، ففر صاحبها ابن مجاهد فى البحر الى الدولة الحمادية الصنهاجية ، حيث استقباله ملكها المنصور بن علناس ، فأحسن اليه وأكرمه ، كما استولى ابن عائشة على شاطبة وشقورة(٩٦) .

وفى ذلك الوقت اشتد الاضـطراب فى بلنسية ، وتطلع أهلهـا الى التخلص من حـكم القادر بن ذى النون ، الذى كانت تسـانده قشتالة وملكها الفونسو السادس وقائده السيد الكنبيطور ، وكان الكنبيطور يعتبر بلنسية ملكا له ، يأخذ منها اتاوة قـدرها مائة ألف مثقال من الذهب كل عام نظير حمايته للقادر بن ذى النون ، ولذا فقد تطلع أهل بلنسية الى

---

(٩٥) عبد الواحـد المراكشـى ، المعجب ، ص ٧٥ ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .
Dozy, Histoire., vol., III, p. 152.

(٩٦) ابن ابى زرع ، روض القرطـاس ، ص ١٠٨ ، ابن الـكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

التخلص من السيطرة القشتالية ، ورنوا بأبصارهم الى المرابطين ، فلما تسامع البلنسيون بوجود القائد المرابطى ابن عائشة فى مرسية ، انتهزوا خروج الكنبيطور الى سرقسطة ، فأرسلوا قاضى مدينتهم ابن جحاف على رأس وفد من أهل المدينة للقاء ابن عائشة ، وطلبوا منه العون والمساعدة فى مقابل دخول بلنسية فى طاعة المرابطين ، فاستجاب ابن عائشة لطلبهم وأرسل قائده أبا نصر على رأس فرقة عسكرية ، تمكن بها من شق طريقه الى بلنسية ، فانهارت أمامه القوة القشتالية المكلفة بالدفاع عن المدينة ، وفتح ابن جحاف أبواب بلنسية أمام المرابطين ، كما قبض ابن جحاف على القادر بن ذى النون وقتله فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ ؛ وبويع لابن جحاف بالرئاسة(٩٧) .

كان من الطبيعى أن يغضب الكنبيطور لما حدث فى بلنسية ، الا أنه كان رجلا سياسيا محنكا ، فقد كتب لابن جحاف يهنئه بالرئاسة ويطلب منه أزوادا له كانت مختزنة فى بلنسية ، فرفض ابن جحاف وقال له أن البلد أصبحت ليوسف بن تاشفين وأن تلك الاطعمة انتهبها رجاله ، فغضب الكنبيطور وأقبل يحاصر المدينة ، وأقسم أن لا يبرحها حتى يظفر بابن جحاف ، ويثأر لابن ذى النون ، وقد لجأ الكنبيطور خلال الحصار الى الحيلة والدهاء ، فراسل ابن جحاف سرا ، بعد أن عرف برغبة الاخير فى

---

(٩٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣١ ، ص ٣٢ ، ابن أبى زرع روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، مؤنس ، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث العدد الاول ، مايو ١٩٥٠ ، ص ٧٤ ، ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص ٢١٦ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٠ .

Pidal, La E-pana del Cid, vol., I, p. 389; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol., II, pp. 52 - 3.

التخلص من المرابطين ، واتفق مع ابن جحاف على اخراج المرابطين من بلنسية ، وأن يحل الكنبيطور محلهم[٩٨] ، فلما أحس أهل بلنسية بهـذه الاتصالات السرية ، راجعوا قاضيهم فى هذا الامر ، وأرسلوا الى يوسف بن تشفين يطلبون منه سرعة ارسال النجدات اليهم ، فأمر يوسف عماله على مختلف مدن الاندلس بالتوجه الى بلنسية ، فتجمعت جموعهم فى شاطبة ، وتولى قيادتها الامير أبو بكر بن ابراهيم ، واتجهت هذه الحشود حتى وصلت الى مشارف بلنسية ، ولكن فجأة انسحب الجيش الاسلامى الى شاطبة[٩٩] ، وقد اختلفت الآراء حول أسباب هـذا الانسحاب ، الا أننا نرجح الرواية المسيحية التى أشـارت الى هطول الامطار بغزارة فى أمسية المعركة ، فخشى القـائد المرابطى على تحركات جيشـه ، فآثر الانسحاب[١٠٠] ، وكان لهذا الانسحب أثره فى اضعاف الروح المعنوية لاهل بلنسية ، فانقطع أملهم فى الغوث من المرابطين ، فاتفقوا على التسليم للكنبيطور ، على شرط أن يؤمن الكنبيطور ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة وفى جمادى الاولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه سنة ١٠٩٤ م) ، دخـل الكنبيطور بلنسية بعد حصار دام ما يقرب من عشرين شهرا[١٠١] ، ولما استقرت الامور فى بلنسية للكنبيطور استولى على أموال ابن جحـاف ،

---

(٩٨) ابن عـذارى ، البيـان ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، ص ٣٣ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٣ ، بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢١٧ .
Miranda, Historia Musulmane de Valenoia, vol., II, p. 55.

(٩٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٠٠) Miranda, Los Luchos del Cid Compeador con los Almoravides, Hespe-is, Temuda, 1965, p. 82.

(١٠١) ابن الابار ، الحلة السيرا ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ابن عذارى ، البيان، ج ٤ ، ص ٣٥ ، ابـن الخطيب ، أعمـال الاعـلام ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٣ ، بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢١٩ .

كما صادر أموال أسرته وطالبه بأموال القادر بن ذى النون وذخائره ، وبعد أن استصفى جميع أمواله وأموال ابن ذى النون أمر بالقبض عليه وإعدامه حرقا ، ثم استولى على أموال أهل بلنسية ، وفرض عليهم الضرائب والمغارم[١٠٢] .

كان لسقوط بلنسية فى أيدى النصارى ، أسوأ الاثر على أهل الاندلس ، فقد توالت صرخاتهم على يوسف بن تاشفين ، لاسترجاعها من النصارى ، فأرسل يوسف الى عماله على مدن المغرب لامداده بالرجال والعتاد ، ثم عبرت حشود المرابطين بقيادة الامير محمد بن تاشفين الى الاندلس فى شعبان سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، وقد سارت هذه القوات حتى عسكرت على مقربة من بلنسية ، فلما وصلت أنباء وصول هذا الجيش شاع الذعر بين النصارى ، وعرضوا على الكنبيطور الفرار عن بلنسية ، غير أنه رفض وأرسل الى الفونسو السادس يطلب سرعة موافاته بالامدادات ، كما لجأ الى المكر والدهاء ، فقد خرج ليلا وباغت المعسكر الاسلامى ، فاضطرت القوات المرابطية الى الانسحاب الى دانية ومنها الى شاطبة[١٠٣] ، فشجع الكنبيطور وسار نحو مربيطر Murpiedro فحاصرها واستولى عليها[١٠٤] .

وفى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، أرسل يوسف بن تاشفين قائده محمد

---

(١٠٢) حول مصير ابن جحاف أنظر : ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة، جزءان ، عنى بنشره وصححه وطبعه ، السيد عزت العطار الحسينى ، القاهرة، ١٩٥٦ م ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ص ٢٤٠ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٦ ، مؤنس، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، ص ٧٤ ، بروفنسال ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ ، ص ٢٢٢ .

Miranda, Historia Musulmana de' Valencia, vol., II pp. 138-140.

(١٠٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣٤ ـ ٣٧ .

(١٠٤) مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٧٦ .

ابن الحاج على رأس جيش كثيف التقى مع قوات الفونسو السادس عند دسويجرا Consuegra ، حيث أحرز المرابطون انتصارا حاسما على جموع النصارى ، وقتلوا الابن الوحيد للكنبيطور واسمه دييجو Diego ، كما أرسل يوسف بن تاشفين فرقة عسكرية مرابطية على رأسها محمد بن عائشة الى قونكة أو قونقة Cuenca حيث ألحقوا الهزيمة بفرقة قشتالية على رأسها البرهانس ، ثم مضى ابن عائشة الى جزيرة شقر Alcira ، واصطدم بفرقة تابعة لجيش الكنبيطور ، ولم ينج منهم الا القليل فروا عائدين الى بلنسية(١٠٥).

أتم المرابطون الاستعداد لاسترداد بلنسية ، وأصدر يوسف بن تاشفين أوامره الى الامير محمد بن مزدلى بقيادة الجيوش المرابطية الى بلنسية ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م)(١٠٦) ، وكان الكنبيطور قبل ذلك بقليل قد اشتد عليه المرض وغلب عليه الحزن بعد وفاة ولده الوحيد ، فمات غما عليه فى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م)(١٠٧) ، وقد تولت زوجة خمينا أمر بلنسية بعد وفاته ، وحاولت الدفاع عن المدينة أمام الحصار المرابطى ، الا أنها فشلت ، فبعثت تستنجد بألفونسو السادس ، الذى سارع الى نجدتها ، فلما قدم الفونسو بقواته الى بلنسية ، بادر محمد بن مزدلى بالانسحاب الى مدينة قليرة الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة وقد حاول الفونسو اختبار مدى قوة الجيش المرابطى ، فخرج بقواته صوب قليرة ، فدارت رحى معركة

---

(١٠٥) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٧ – ١٠٩ .
Pidal La Espana del Cid, vol., I, pp. 534-537.

(١٠٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(١٠٧) Dozy, Histoire., vol., III, p. 153; Pidal, La Espana del Cid, vol., I, pp. 577-580; Terrasse, Histoire du Maroc, Vol., II, P. 238; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol., II, p. 164.

عنيفة بين الفريقين ، اضطر بعدها الفونسو الى الانسحاب ، بعد أن تأكد من قوة وصلابة الجيش المرابطى وتصميمه على استرداد بلنسية ، فأمر الفونسو باخلاء بلنسية من النصارى ، وأشعل النيران فى المسجد الجامع والقصر والدور ، فدخل محمد بن مزدلى المدينة فى شهر رجب سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م)(١٠٨) .

د) الاندلس فى ظل يوسف بن تاشفين :

قضى المرابطون على ملوك الطوائف ، باستثناء المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، الذى سارع بالاتصال بيوسف بن تاشفين ، ووجه اليه ابنه عماد الدولة ووزيراه أبا الاصبغ وأبا عامر ، تأكيدا لولائه له واخلاصه لقضية الاسلام فى الاندلس ، وكتب اليه يقول : « نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل اليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منابها الى ما نعينكم بها من نفيس الذخر »(١٠٩) وقد تفهم ابن تشفين حرج موقف المستعين لقرب حدود بلاده من بلاد النصارى ، فرد عليه يوسف برسالة تأييد أورد صاحب الحال الموشية وابن الخطيب نصها الكامل(١١٠) ، وكان هدف المستعين من مهاداة ابن تاشفين وملاطفته اقامة حلف هودى مرابطى من أهم غاياته استرجاع أراضى طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبى وضمها الى مملكة بنى هود فى سرقسطة ، لتكوين جبهة قوية مع المرابطين تتصدى لمطامع قطلونية وأرغون(١١١) .

---

(١٠٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ،
Dozy, Ibid, p. 153; Pidal, Ibid, pp. 579-581; Miranda, Ibid, p. 165.

(١٠٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ .
Turk, A., Reino de Zaragoza, p. 160.

(١١٠) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(١١١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٣ .

وهكذا قامت علاقات ودية بين بنى هود والمرابطين ، وكان المستعين يهادى يوسف بن تاشفين بالذخائر والتحف واليواقيت والجواهر ، ومن جملة هذه الهدايا ، الهدية التى حملها عبد الملك بن المستعين بن هـود الى يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، من جملتها أربعة عشر ربعا من آنية الفضة مطرزة باسم جـده المقتدر والد جـده المؤتمن بن هود ، فقبلها ابن تاشفين وأمر بضربها قراريط فرقت ليلة عيد الاضحى فى أطباق على رؤساء المرابطين (١١٢) ، وقد أوصى يوسف بن تاشفين ولده وولى عهده الامير على ، بترك التعرض لبلاد بنى هود وقال له : « اتركهم بينك وبين العدو فانهم شجعان » (١١٣) ، وهكذا ظلت العلاقات ودية بين المرابطين وبنى هود ، حتى سقطت سرقسطة فى أيدى المرابطين سـنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) .

وعلى هذا النحو أمكن ليوسف بن تاشفين التخلص من ملوك الطوائف فى الاندلس ، وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تشتمل على القسم الغربى من المغرب والاندلس ، ثم عبر يوسف عبوره الرابع والاخير الى الاندلس فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) ليضع أسسا ثابتة للدولة الجديدة التى ألفت بين المغرب والاندلس ، فقد أحس يوسف بأنه قـام بواجبه ، وأرضى ضميره ، وعفر جبهته بتراب الجهاد ، وأجج الحرب المقدسة التى أحيت موات الآمال ، وثبتت أقدام الاسلام فى شبه الجـزيرة بعد أن كادت تعصف به الخطوب ، فرأى أن يبايع لولده على بن يوسف بولاية العهد ، احساسا منه بقرب الخاتمة ، وقد تمت البيعـة فى مدينة قرطبة

---

(١١٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ .
Turk, A., Ibid. pp. 162-3.

(١١٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٧ ، مجهول ، الحلل الموشية، ص ٥٦ ، ص ٥٧ .
Cadera, Decadencia y Desaparocion de los Almoravides, p. 3.

فى نفس العام ، ثم عاد يوسف الى المغرب ، حيث أعتل فى أواخر سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين حتى توفى فى مستهل المحرم سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)(١١٤) وخلفه واده وولى عهده الامير على صاحب موضوع الدراسة .

---

(١١٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ص ٥٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ٢، ص ٥١٨ ــ ٥٢٢ ، بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٤٠ .

الباب الأول

الدراسة السياسية

الفصل الاول : أهم الاحداث الداخلية فى المغرب والاندلس •

الفصل الثانى : العلاقات الخارجية •

الفصل الأول

أهم الاحداث الداخلية فى المغرب والاندلس

١ — الصراع بين المرابطين والموحدين .

أ) المهدى بن تومرت مؤسس دولة الموحدين .

ب) المرحلة الاولى من الصراع بين المرابطين والموحدين (مرحلة المناظرات الفقهية) .

جـ) المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين (بداية الصدام المسلح) .

د) المرحلة الثالثة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حصار المرابطين لمراكش وهزيمتهم فى وقعة البحيرة) .

هـ) المرحلة الرابعة من الصراع بين المرابطين والموحدين (فى بداية عهد عبد المؤمن بن على) .

و) المرحلة الخامسة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى سنة ٥٣٥ هـ) .

ز) المرحلة قبل الاخيرة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ) .

٢ — ثورة مدينة فاس سنة ٥٠٠ هـ .

٣ — ثورة مدينة قرطبة سنة ٥١٤ هـ .

١ ـ الصراع بين المرابطين والموحدين

أ) المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين :

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى، الملقب بمهدى الموحدين ، صاحب الحركة الدينية الاصلاحية التى تمخض عنها قيام دولة الموحـــدين .

ولد فى قرية ايجلى أن وارغن[1] ، الواقعة على سفح جبل ايجليز ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد العام الذى ولد فيه محمد بن تومرت[2]، وينتسب ابن تومرت الى قبيلة هرغة ، احـــدى بطون قبيـــلة مصمودة البربرية[3] ، وهو من قوم من الأشراف يعرفون بايسرغينن (الشرفاء بلسان المصامدة)[4] فقد كان أبوه امغار (شيخ) القبيلة[5] . ولا نعرف

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨ .

(٢) فابن الاثيـــر يقول لنـــا أن ابن تومرت توفى فى عام ٥٢٤ هـ عـــن احدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده فـــى عام ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده فى العاشر من المحرم عام ٤٨٥ هـ ، كما أشار ابن عذارى نقلا عن ابن القطان أنه توفى فى عام ٥٢٤ هـ عن خمسين سنة مما يجعل تاريخ مولده فى عـــام ٤٧٤ هـ ، بينما يجعـــل ابن الخطيب مـــولده فى عـــام ٤٨٦ هـ ، وابن ســـعيد المغـــربى فى عام ٤٩١ هـ ، والغرناطى فى عام ٤٧١ هـ .

راجع (ابن الاثيـــر ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، ابن خـــلكان ، وفيـــات الاعيان ، ج ٥ ، ص٥٣ ، ابن عذارى ، البيـــان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، الزركشـــى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية الطبعة الثانية ، تونس ، بدون تاريخ ، ص ٤٣ .

(٣) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٤ .

(٤) المراكشى ، نفسه .

(٥) ابن خلدون ، نفسه .

الكثير عن حياته الاولى فالمصادر العربية المغربية لم تزودنا بمعلومات شافية عن الفترة الاولى من حياته ، وكل ما يمكن أن يقال فى ذلك لايعدو م ذكره ابن خلدون فى قوله : « وكان أهل بيته أهل نسك ورباط وشب محمد هذا قارئا محبا للعلم ، وكان يسمى اسافو ومعناه الضياء لكثرة ما كن يسرج من القناديل بالمسجد لملازمتها »(٦) • ولعل فى هذا ما يشير انى تلك البيئة الدينية التى نشأ فيها ابن تومرت ، فقد شب قارئا للقرآن، ملما بالعلوم الدينية والفقهية ، ملازما للمساجد التى كانت تمثل آنذاك المركز التعليمى فى الاسلام ، ولذا أطلق عليه لقب اسافو تأكيدا على تردده على المساجد واقامته فيهـا •

وأيا ما كان أمر نشأته الاولى فان ما يعنينا فى الموضوع أن تعطشه لطلب العلم وتحصيله قد دفعـه شأن طالبى الاستزادة فى العـلم الى التفكير جديا فى الرحلة الى المشرق الاسلامى منبع المعارف والعلوم حيث تتعدد مراكز الثقافة الاسلامية فى أقطاره المختلفة وحيث يمكنه أن يجد ضالته ممثلة فى مشاهير شيوخ العصر المشارقة ممن تجاوزت شـهرتهم المشرق ، وهكذا يتحرك ابن تومرت من بلده ويعمل الرحلة الى المشرق الاسلامى فى طلب العلم وذلك فى عام ٥٠٠ هـ وقيل ٥٠١ هـ(٧) • جاز ابن

---

(٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ •

(٧) اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ بدء رحلة ابن تومرت الى المشرق، فابن عذارى ويتفق معـه صاحب الحلل الموشية يجعـلان بداية الرحـلة فـى عام ٥٠٠ هـ ، أما ابن خلدون ويتفق معه القلقشندى فيجعلان بداية الرحلة فى رأس المائة السادسة ، بيما يتفق صاحب المعجب وابن القطان على أن الرحـلة بدأت فى عام ٥٠١ هـ •

راجع (ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٣ ، مجهول ، الحلل الموشية، ص ٧ ، ص ٧٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ ، القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ١٣٦ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨)•

تومرت الزقاق الى الاندلس ، فوصل الى قرطبة[٨] مركز العلوم في الاندلس ومنها تحرك الى المرية ، ومن هناك أبحر الى المهدية بالمغرب الادنى ، فتوقف بها فترة حيث أخذ العلم خلالها عن الامام الفقيه المازرى[٩] ، ثم أبحر من المهدية الى الاسكندرية ، حيث التقى بالفقيه أبى بكر الطرطوشي ودرس عليه[١٠] ، ثم رحل الى الحجاز ، لاداء فريضة الحج ومن هناك اتخذ طريقه الى بغداد حاضرة الخلافة العباسية وأعظم مراكز الثقافة الاسلامية فى المشرق الاسلامى آنذاك ، فتلقى العلم فيها على كبار علمائها ، فدرس الفقه وأصول الدين على أبى بكر

---

(٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ابن خلدون ، المصدر السبق ، نفس الصفحة .

(٩) الزركشى ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ٤ .

(١٠) هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الاندلسى ، المعروف بابن أبى رندقة ، ولد فى بلدة طرطوشة بالاندلس فى سنة ٤٥١ هـ وتلقى العلم فى طرطوشة وسرقسطة ، حيث أخذ على أبى الوليد الباجى وصحبه وأخذ عنه ، وسمع منه ، ثم رحل الى المشرق فى سنة ٤٧٦ هـ فحج ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبى بكر الشاشى وأبى أحمد الجرجانى وسمع بالبصرة من أبى على التسترى ، وسكن الشام فترة درس خلالها بدمشق ، ثم استقر به المقام فى الاسكندرية حيث تزوج بها بابنة خاله أبى الطاهر بن عوف ، وألف كتابه سراج الملوك وانتهى من تصنيفه سنة ٥١٦ هـ ، فرحل الى القاهرة فى شوال ٥١٦ هـ وأهداه الى الوزير المأمون البطائحى الذى أكرمه بعد أن تعرض الطرطوشى وخادمه لاضطهاد الوزير الافضل . وكان الطرطوشى عالما زاهدا ورعا متقشفا وكانت وفاته فى شعبان سنة ٥٢٠ هـ .

سالم ، تاريخ الاسكندرة وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩ م ، هامش ٤ ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٢٣ ، وأنظر أيضا الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٥ م ص ٥٠ ـ ١٠٠ ، أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ، ع ٧٤ ، القاهرة ١٩٦٨ م .

الشاشي[11] وأخذ الحديث على المبارك بن عبد الجبار ، وقيل أنه درس على أبي حامد الغزالي[12] .

فلما استوفى ابن تومرت دراسته فى بغداد ولم يعد هناك ما يدعوه الى مواصلة الاقامة بهذه الحاضرة ، عزم على العودة الى وطنه ، فيمم وجهه شطر الحجاز حيث أدى فريضة الحج للمرة الثانية ، ومن الجدير بالذكر أن بوادر دعوته الاصلاحية القائمة على مبدأ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بدأت فى الظهور خلال زيارته تلك للحجاز ، اذ تعرض فى مكه للاذى نتيجة اعتراضه على بعض الافكار والعادات التى رأى فيها

---

(١١) هو الفقيه الشافعى أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشى المعروف بالمستظهرى ، الملقب فخر الاسلام ، ولد فى المحرم سنة ٤٢٩ هـ بميافارقين وتفقه بها ، ثم رحل الى بغداد ولازم الشيخ أبا اسحاق الشيرازى ، ثم دخل نيسابور ثم عاد الى بغداد مرة أخرى حيث آلت اليه رئاسة الطائفة الشافعية بعد وفاة أستاذه الشيرازى ، وقد تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٥٠٤ حتى وفاته فى شوال سنة ٥٠٧ هـ ٠

ابن خلكان (أبو العباس حمد بن ابراهيم) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان نشره الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٢١٩ — ٢٢١ ٠

(١٢) هو الفقيه الشافعى أبو حامد محمد بن محمد بن حمد الغزالى ، الملقب حجة الاسلام ، ولد فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وأشتغل فى مبدأ أمره بها ثم قدم نيسابور واختلف الى دروس امام الحرمين أبى المعالى الجوينى وظل ملازما لاستاذه الى أن توفى ، فخرج من نيسابور حيث لقى الوزير نظام الملك فأكرمه وعظمه ، وفوض اليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد فى جمادى الاولى سنة ٤٨٤ هـ واستمر يقوم بالتدريس بها الى سنة ٤٨٨ هـ حيث سلك طريق الزهد والانقطاع وقصد الى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، ثم عاد من الحجاز الى الشام ، فأقام بدمشق مدة ثم انتقل منها الى بيت المقدس ومنها الى مصر ثم عاد الى وطنه بطوس ، الا انه اجبر على العودة للتدريس بالمدرسة النظامية ولكنه م يلبث أن تركها وعاد الى وطنه طوس الى أن توفى سنة ٥٠٥ هـ ٠

أنظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٢١٦ — ٢١٩ ٠

وقد اختلف المؤرخون حول حقيقة اللقاء بين الغزالى وابن تومرت ، فريق يؤكد حدوث هذا اللقاء منهم ابن خلكان،وابن بى زرع ، وصاحب الحلل الموشية، وابن الخطيب والزركشى ؛ وابن ابى دينار ٠ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، =

خروجا عن تعاليم الدين الحنيف ، فترك مكة الى الاسكندرية[١٣] ، حيث كان يختلف الى مجلس الفقيـــه أبى بكر الطرطوشى ، ويبـــدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التى أقبل عليها أهل الاسكندرية ولا تتفق مع روح الاسلام ، فأخذته الغيرة على الاسلام وثارت ثائرته فمضى يهاجم هذه الاوضاع السائدة بكل شـــدة وعنف وأفضت به تعاليمـــه وأفكاره الاصلاحية التى بدأ ينشرها فى الاسكندرية الى نفيه من المدينـــة[١٤] ، ويروى ابن القطان فى هذا الصدد : « ونزل المهدى مدينة الاسكندرية فرأى بها مناكر فغيرها ، وأغلظ فى أمرها ، فقامت عليه العامة والغوغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقة الى مجلس أبى بكر الطرطوشى ، فلما فقده الطرطوشى بحث عنـــه حتى أعلم بمكانه ، فقصد اليه وهـــو فى مسجد الاخضر[١٥] على ساحل البحر ، فترامى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، وأنه يريد الذهاب الى المغرب ، فودعه وانصرف »[١] ويبدو أن دعوة ابن تومرت قد أحرزت بعض النجاح فى مصر ، ووجدت قبولا لدى بعض المصريين ، يؤكد ذلك الفصل الذى أفرده البيذق فى كتابه عن المهدى بن تومرت ، عن أصحاب

= ج ٥ ، ص ٤٥ ، روض القرطاس ، ص ١٢٠ ، الحلل الموشية ، ص ٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن الخطيب ، أعمـال الاعـلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، الزركشـى ، تاريخ الدولتين ، ص ٤ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٠١ • ومنهم من يشك فى حدوث هذا اللقاء ومنهم المراكشى ، وابن خـلدون ، المعجب ، ص ١٧ ، ص ١٧٩ ، العبر ، ج ٦ ص ٤٦٦ •

بينما ينفى ابن الاثير ، حدوث هذا اللقا ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ •

(١٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٥ •

(١٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٩ ، بروفنساله ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٦٧ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧١ •

(١٥) يقع المسجد الاخضر باقرب من البـاب الاخضر الغربى الملاصـق لضريح الطرطوشى • انظر سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٢٢٩ •

(١٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ •

المهدى المقيمين فى مصر ، وقد بلغ عددهم واحدا وخمسين رجلا ، ذكر المؤلف أسماءهم واحدا واحدا ثم أضاف مؤكدا : « بأنهم كانوا للمهدى بمثـــابة اعضـــائه وجســـده ، سامعين لقوله مجيبين لاوامــره مؤمنين بدعـــوته »(١٧) .

وهكذا لم يتمكن ابن تومرت من البقاء فى الاســـكندرية ، فغادرها على احدى السفن المتجهة الى المغرب ، ومن الطريف أنه استمر يدعـــو الى أفكاره الاصلاحيـــة أثنـــاء رحلته البحـــرية ، فضـــاق به الركاب والمسافرون فألقوه فى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح الى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من رفعه من الماء ، وقد عظم فى نفوسهم ، وبالغـــوا فى اكرامه(١٨) . نزل ابن تومرت بمدينـــة المهدية ، وكانت ادارتها آنذاك تابعة للامير يحيى بن تميـــم بن المعز بن باديس صاحب افريقية ، فنزل ابن تومرت بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا فتسامع به الناس ، وقصدوه يقرأون عليـــه أنواع العلوم والمعارف ، وكان اذا رأى منكرا حـــاول تغييره بالقوة ، فلما شاهد الخمر تباع فى الاســـواق ، قام بكسر دنانها وأراقها(١٩) ، فوصل خبره الى الامير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلمـــا رآه وسمع حديثه،أكرمه وسأله الدعاء،فقال له ابن تومرت «أصلحك الله

---

(١٧) البيذق (أبو بكر الصنهاجى) : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين تحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨ م ، ص ٣٠ ، ص ٣١ ، أنظر أيضا أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية ، ١٩٦٨ م ، ص ١١٣ .

(١٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص٧٧١.

(١٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٤ .

لرعيتك »[٢٠] ثم رحل ابن تومرت الى المنستير[٢١] ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل الى تونس ، ثم انتقل منها الى قسنطينة[٢٢] ، فنزل بها عند انفقيه عبد الرحمن الميلى ، ويحى بن القاسم ، عبد العزيز بن محمد ، وكان يليها فى ذلك الوقت سبع بن العزيز[٢٣] ، فأقام بها عدة أيام[٢٤] ثم رحل الى بجاية حاضرة أمراء بنى حماد وكان واليها يؤمئذ الامير العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس من أمراء بنى حماد الصنهاجيين ، فنزل ابن تومرت بمسجد الريحانة[٢٥] ، فكان ينهى الرجل عن التزين بزى النساء ، ولكنه أباح الطيب للرجال والنساء أسوة بما كن يفعله الرسول

---

(٢٠) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٧ ٠

(٢١) المنستير كانت ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت فى الاصل رباطا أو قصرا يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور افريقية من الغارات البحرية التى كان يقوم بها الروم ٠ بناه هرثمة بن أعين والى افريقية من قبل الرشيد فى سنة ١٨٠ هـ وقد وصف البكرى هذا الرباط أو القصر بقوله : وبالمنستير البيوت والحجر الطواحين ومواجل الماء وهو حصن عالى البناء ، متقن العمل ، وفى الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلوا من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه،وفيه جملة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الاهل والعشائر ٠

راجع : البكرى ، المغرب ، ص ٣٦ ، الادريس ، صفة المغرب ، ص ١٨ ، مجهول الاستبصار ، ص ١٢٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٥٢ ٠

(٢٢) قسنطينة مدينة كبيرة قديمة فى افريقية ، وقد وصف صاحب الاستبصار قسنطينة بقوله : « ومدينة قسنطينة حصينة فى نهاية من المنعة والحصانة لا يعرف بافريقية أمنع منها ، ليس لها فى المنعة نظير غير مدينة رندة بالاندلس ٠

راجع : الاستبصار ، ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ ، الادريس ، صفة المغرب ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ ٠

(٢٣) هو سبع بن العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجى احد امراء بنى حماد الصنهاجيين ٠

(٢٤) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ٥١ ، ص ٥٢ ٠

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ ٠

عنيه الصلاة والسلام ، وكان الفقهاء يقبلون أفواجا لسماعه فى شــهر رمضان ، فلما انتهى هذا الشهر وأقبل العيد ، خرج الرجال والنســاء لصلاة العيد واختلط بعضهم بالبعض ، فلما رآهم ابن تومرت أنكر عليهم ذلك ، ودخل فيهم بعصاة وفرقهم بها يمينا وشمالا[٢٦] ، فوقع الهرج ، وعقب هذه الحادثة عمد الامير العزيز الى مواجهته بالطلبة فأمر بجمعهم لمناظرته ، فاجتمعوا فى دار أحدهم ، واستدعى ابن تومرت للحضــور وسألوه فأجابهم عن كل ما سألوا ، وسألهم فما استطاعوا الاجابة عن شىء ، عنــدئذ تضرع اليه الكاتب عمــر بن فلفول بأن يترك ما هــو بسبيله من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر[٢٧] • خرج ابن تومرت من بجاية الى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل فى حماية أصحابها وهم من أعيان صنهاجة فآووه وأكرموه ، ورفضــوا تسليمه لصاحب بجاية ، فأقام بينهم يدرس العلم ، وكان اذا فرغ من دروسه جلس على صخرة بقارعة الطريق قريبــا من ملالة[٢٨] ، وذات يوم سمعه الطلبــة يقول : « الحمد لله ، قد بلغ وقت النصر وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره »[٢٩] وقد صح ما تنبأ به ، وجاءه بالفعل شاب تعرف عليه من بين طلبته وكان هذا الشــاب هو عبد المؤمن بن على الذى اختاره المهدى خليفته من بعده وأطلق عليه اسم سراج الموحــدين •

---

(٢٦) البيــذق ، نفســه ، ص ٥٢ ، بروفنســال ، الاسلام فى المغــرب والاندلس ، ص ٢٧١ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٣ ، سعد زغلول عبد الحميد ص ١٩ •

(٢٧) ابن القطــان ، نظم الجمــان ، ص ٤١ ، ص ٤٢ ، عنــان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥ •

(٢٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ ، بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٧٢ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٣ •

(٢٩) البيــذق ، ص ٥٣ •

ولد عبد المؤمن بن على فى قرية تاجرا من أعمل تلمسان فى عام ٤٨٧ هـ (أوائل سنة ١٠٩٥ م)[٣٠] ، وينتسب الى قبيلة كومية البربرية[٣١] ، وقيل أن والده كان قاضيا[٣٢] وذكر بعضهم أنه كان فخارا[٣٣] . وفى قرية تاجرا قضى عبد المؤمن طفولته وشبابه وفيها تلقى بعض العلوم الدينية وقد دفعه تعطشه لتحصيل العلوم الى التفكير جديا فى الرحيل الى المشرق واستبدت به الرغبة فى الرحلة فى طلب العلم ، وقرر عمه أن يصحبه فيها ، فخرجا معا الى بجاية أحد ثغور المغرب الاوسط ليستقلا مركبا الى المشرق ، وهناك نزلا بمسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعا الناس يتحدثون عن ابن تومرت ذلك الفقيه السوسى ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكرون صلاح دينه ويثنون على علمه وفهمه لكتاب الله وسنة نبيه ، تاقت نفسه للقائه ، وسأل عمه أن يأذن له برؤيته وسماعه فأذن له بالسير اليه ولكنه أوصاه بسرعة العودة لارتباطهم بالسفر[٣٤] ، ويصف البيذق رفيق المهدى ابن تومرت اللقاء الذى تم بين المهدى وعبد المؤمن بقوله : « أنه لما جد السير نحو الامام ، اجتمع مع الطلبة فى طريقه ، فأصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رأسه ، فواقفه امامه ، فقال له المعصوم رضه : أدخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد فى جملة الناس ، فقال له المعصوم : ادن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الامام ، والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما

---

(٣٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣١) هى قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان .
انظر ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
بروفنسال ، ارجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٣٢) البيذق ، نفسه ، ص ٢٧ .

(٣٣) ابن أبى زرع ، روض القرطس ، ص ١٢٩ .

(٣٤) البيذق ، نفسه ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

اسمك يا فتى ؟ فقال : عبــد المؤمن ، فقال له المعصــوم : وأبوك على ؟ فقال نعم ، فتعجب الناس من ذلك ، فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟ قال له من نظر تلمسان من ساحل كومية ، فقال له المعصوم من تاجرا أم لا ؟ فقال له نعم ، فزاد الناس تعجبا ، فقال له المعصوم رضه : أين تريد يا فتى ، فقــال يا سيدى نحــو المشرق التمس فيــه العلم • فقال له المعصوم رضه : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق وجــدته بالمغرب[٣٥] ثم عرض ابن تومرت على عبد المؤمن أن يبيت عنده ، فوافقه ثم يسجل البيذق فى مذكراته أحداث هذه الليلة فيقول : « فلما جن الليل أخذ الامام المعصوم بيد الخليفــة رضهما ، وسارا ، فلمــا كان نصف الليل نادانى المعصوم : يا أبا بكر ، ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر ، فدفعته له،وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج اسمعه يقول : لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين ، فبكى الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى ، فقال له : انما تطهيرك الدنيا على يديك • ثم دفع له الكتاب وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر »[٣٦] ومنــذ هذا التاريخ أقام عبــد المؤمن ملازما لابن تومرت ، يؤازره فى دعوته ، ويشاطره مصيره اينما حل •

---

(٣٥) البيــذق ، ص ٥٥ •

(٣٦) البيــذق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦ •

ب) المرحلة الاولى من الصراع بين المرابطين والموحدين
(مرحلة المناظرات الفقهية)

غادر ابن تومرت وصحبه ملالة ، متجها الى وانشريش ومنها الى تلمسان ، حيث نزل بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد[٣٧] ، ثم خرج مع صحبه الى فاس[٣٨] ، فنزل بعدة مساجد منها مسجد ابن الغنام ومسجد ابن الملجوم ومسجد بطريانة ، فكان طلبة فاس يهرعون اليه لينهلوا من علمه • وفى فاس أمر طلبته بمهاجمة حوانيت آلات الطرب بزقاق بزقالة وتحطيم كل ما كان بها من آلات[٣٩] ، ولما بلغ والى المدينة أمره ، جمعه مع نفر من فقهاء فاس للمناظرة ، فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء على الوالى باخراجه عن المدينة حتى لا يفسد عقول العامة فأخرجه منها[٤٠] ، فمضى هو وأتباعه الى مكناسة[٤١] ، وهنالك واصل دعوته فى

---

(٣٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٣ •

(٣٨) فاس من أعظم مدن المغرب ، ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادى فاس ، وهما عدوة الاندلسيين وقد أسست فى سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م ، وعدوة القرويين وقد أسست فى سنة ١٩٣ / ٨٠٩ م ، فى ولاية ادريس العلوى ، وفى فاس يعيش أكثر يهود المغرب،
راجع : ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٩٠ ، البكرى، المغرب ، ١١٥ ، الادريسى ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٤٢ ـ ٨٤٤ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ١٨٠ •

(٣٩) البيذق ، نفسه ، ص ٦٣ ـ ٦٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٦٧، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٦ ، سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت، ص ١٧ •

(٤٠) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٦ ، ص ٧٧٧ •

(٤١) مكناسة مدينة بالمغرب على مقربة من مدينة فاس ، وهى عبارة عن مدينتين صغيرتين ، اختط احداهما يوسف بن تاشفين والاخرى قديمة وأكثر اشجارها الزيتون ولذا عرفت بمكناسة الزيتون =

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والاذى، فاضطر الى السير الى مراكش[٤٢] ، فوصلها هو وأصحابه فى منتصف ربيـــع الاول سنة ٥١٥ هـ (١١٢٠ م)[٤٣] ، حيث نزل بمسجد صومعة الطوب[٤٤] ، وهناك واصل دعوته القائمة على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واراقة الخمر وتكسير آلات الطرب[٤٥] . وفى الجمعة الاولى لوصوله مراكش توجه الى المسجد الجامع وهو نفس الجامع الذى اعتاد على بن يوسف أمير المرابطين أداء صـــلاة الجمعة به ، فركع فى الصف

= راجـــع :
الادريســى ، صفة المغرب ، ص ٧٦ ، مجهل ، الاســتبصار ، ص ١٨٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦١٥ ، ص ٦١٦ .

(٤٢) مراكش هى حاضرة المرابطين الكبرى ، وقد اختلف المؤرخـــون فى السنة التى بدأ فيها الشروع فى بناء المدينة وفى اسم مؤسسها فقد أجمع بعض المؤرخين منهم ابن أبى زرع ، روض القرطـاس ، ص ٩٥ ، وابن الخطـيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ على أنها انشئت سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) وان الذى أسسها هويوسف بن تاشفين، ولكن الادريسى (صفة المغرب ، ص ٦٧) ذكر أن يوسف بن تاشفين شرع فى بنائها فى صدر عام ٤٧٠ هـ ، كذلك صاحب الاستبصار (ص ٢٠٨) ذكر ان يوسف بن تاشفين أسسها سنة ٤٥٩ هـ .

بينما اتفق كل من ابن عذارى (البيان ، ج ٤ ، ص ١٩ ، ص ٢٠) وصاحب الحلل الموشية (ص ٥) على أنها انشئت سنة ٤٦٢ هـ وأن الذى أسسها هو الامير أبو بكر بن عمر ، وحول هذا الرأى الاخير أنظر : العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية وأهميتـــه فى تاريخ المرابطين والموحدين ، تطوان ، ١٩٦٠ م .

وأتفق مـــع استاذى الدكتور عبد العزيز ســـالم أن مراكش أسست على يد يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٥٤ هـ أى فى الفترة التى غادر فيها الامير أبو بكر بن عمر أرض المغرب الى الصحراء . أنظر المغرب الكبير ، ص ٧٠٣ .

(٤٣) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٧٧٧ .

(٤٤) البيذق ، ص ٦٧ ، سالم ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ابن عمر رض المغرب الى الصحراء . أنظر المغرب الكبير ، ص ٧٠٣ .

(٤٥) ابن الاثيـــر ، الـــكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، ابن أبى زرع ، روض

الاول على مقربة من المنبر ، وحاول سدنه الجامع اقناعه بضرورة ترك هذا الموضع المخصص لامير المسلمين ، فأبى أن يتركه وتلا عليهم الآية « ان المساجد لله » فلما وصل الامير قام اليه الحاضرون ، فيما عدا ابن تومرت ، الذى بقى بمكانه ، فلما قضيت الصلاة سارع ابن تومرت بمصافحة الامير ، ثم أمره بأن يغير المنكر ببلاده لانه المسئول عن رعيته، فلم يجبه أمير المسلمين ، ولكنه لم يكد يدخل قصره حتى أرسل الى ابن تومرت من يسأله أن كانت له حاجة خاصة يقضيها له،فأبدى ابن تومرت زهده فى طلب أى شىء لنفسه وأنه لا هدف له سوى تغيير المنكرات[٤٦]، وحدث أن قابل ذات يوم الاميرة الصورة ، أخت أمير المسلمين ، فى موكبها ومعها جواريها الحسان سافرات على عادة المرابطين من سفور النساء وقصر اللثام على الرجال ، أنكر عليهن سفورهن وأمرهن بستروجوهن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها[٤٧]، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الامر الى أمير المسلمين على بن يوسف، فجمع الفقهاء وتباحث معهم فى شأن ابن تومرت ، فأغروا الامير باستدعائه للمناظرة معهم[٤٨] ، فاستقدمه كما استقدم فقهاء مراكش وطلبتها وأشياخ لمتونة والمرابطين وجمعهم فى مجلسه ، فلما غص المجلس بالحاضرين ، وقف الامير وقال لهم : « انما بعثت لكم لتختبروا أمره ، فان كان عالما اتبعناه وان كان جاهلا أدبناه »، وعندئذ طلب ابن تومرت الى مناظرية أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فسأله ابن تومرت عن طرق العلم وهل هى منحصرة أم لا ، فأجابه

---

(٤٦) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٣ ·

(٤٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ ·

(٤٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ ·

مقدمهم : « نعم هـــى منحصرة فى الكتاب والسنة والمعـــانى التى نبهت عليها » ، فقال ابن تومرت : « انما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا ، فلم تذكر الا واحـــدا منها ومن شروط الجـــواب أن يكون مطابقا للسؤال » ، فلم يفهم قونه وعجز عن الرد ، ثم ســـأله ابن تومرت عن أصول الحق والباطل ما هى ، فعاد الى جـــوابه الاول ، فلما رأى ابن تومرت عجزه وعجز أصحابه عن فهم الســـؤال ، ومعرفة الجواب ، أخذ يوضح لهم طرق العلم فبهرهم بعميق معارفه واتساع ثقافته ، وفضح جهلهم وعجزهم(٤٩) . وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء مـــن علماء الفروع ممن يجهلون علم الاصول القائم على دراسة الشريعـــة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراســـة النصوص الشرعيـــة والادلة العقلية ، وتفاصيل العقائد وأصول الفقه أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . فى حين تقتصر معارفهم على علم الفروع الذى يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها، والحدود والاقضية ، أو بعبارة أخـــرى على دراسة الجانب العـــلمى والدنيوى من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفضلة فى ظل المرابطين هى علم الفروع ، وفى هذا الصدد يقول المراكشى : « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من عـــلم علم الفروع ، أعنى فـــروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحـــد من مشـــاهير أهل ذلك الزمـــان يعتنى بهمـــا كل الاعتناء »(٥٠) . وقد كان أخص ما تميزت به هذه المناظرة الدينية ، ان

---

(٤٩) ابن ابى زرع ، نفسه ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٧ .

(٥٠) المعجب ، ص ١٧٢ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغـــرب والاندلس ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، سعد زغلول عبد الحميـــد ، محمد بن تومرت ، ص ١٧ .

ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصـول الشريعة ازاء الفقهـاء المرابطين وهم أقطاب علم الفـروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمنـاهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الاصول لا الفروع وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة أنه يرجع خاصة الى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط الى قول مستخرج ولا يعتبـر الاجتهاد مرجعا من مراجـع الشريعـة[٥١] .

ولم يكن بين فقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت وتبحره فى علم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب الاشبيلى، كان من كبار العلماء والادباء متمكنا من علوم الدين والفلسفة والتاريخ فنبه أمير المسلمين الى خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمـه وقال له فى جملة ما قاله « هذا رجل ، لا يبغى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، واثارة الفتنة والوصول الى السلطان . وأشار عليه بقتله ، ولكن أمير المسلمين رفض قتله ، فأشار عليـه مالك بسجنه حتى يموت ، فقال أمير المسلمين « علام نأخذ رجلا من المسـلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن الا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء »[٥٢] وهكذا خرج ابن تومرت وصحبه من مراكش ، حيث أقام بخيمة بالجبانة القريبة من المدينـة ، فكان ينهال عليه الناس والطلاب ، فكثر مريدوه وأتباعه وعندئذ أخـذ يتهم المرابطين بالكفر والتجسيم ويحثهم على قتالهم لان غزوهم واجب على كل مؤمن ، فبلغ ذلك على بن يوسف وصح له ما قاله فيه الفقيـه

---

(٥١) Goldzihor, le livre de Mohamed ibn Toumart, Mehdi des Almohades, Alger 1803, pp. 39 - 40.

(٥٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

الاندلسى ، فعزم على قتله وبث من يأتيه برأســـه ، فسمع بذلك أحـــد تلاميذه فأتاه مسرعا ، حتى وقف بالقرب من خيمته ، ونادى بأعلى صوته: «يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين» ، وكرر النداء ثلاث مرات ، ثم سكت ، ففطن ابن تومرت لندائه ، فبادر بالخروج متخفيا(٥٣) الى أغمات(٥٤) ، فنزل ضيفا على الفقيه المصمودى عبد الحق ابراهيم ، فلما أخبره ابن تومرت بمقصده وما جرى له مـــع أمير المسلمين وفقهاء المرابطين ، نصحه عبد الحق بترك أغمات والاتجاه الى تينملل ، لأنها أكثر حصانة ومنعة ، فلما سمع ابن تومرت بهذا الاسم، تذكر أسم هذا الموضع فى كتاب الجفر الذى كان قد طالعه ويتعلق بعلوم أهل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يســـمى السوس من ذرية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يدعو الى الله ، يكون

---

(٥٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ ، ص ١٢٣ ٠

(٥٤) أغمات مدينة صغيرة فى جنوبى مراكش ، تبعد عن مدينة مراكش الى جنوبيها حوالى ٢٥ ميلا ، وأغمات مدينتان احـدهما تسمى اغمات وريكة والاخرى أغمات هيلانه وبينهما نحـــو ٨ أميال ، وكانت أغمات قبـل تأسيس مراكش من أهم المراكز الحضـارية والثقافية فى المغرب الاقصـى ٠ ويصف ياقوت الحموى أغمات بقوله « وليس فى المغرب بلدا أجمع لاصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظا ولا أخصب منها » ٠

عن أغمات نظر : البكرى ، المغرب ، ص ١٥٣ ، الادريسى ، صفة المغرب ، ص ٦٦ ، ص ٦٧ ، ص ٦٩ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ٠

(٥٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٨ ٠ وتينملل كلمة بربرية مؤلفة من شقين : تين بمعنى ذات ، وملل بمعنى الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى وقد أختير هذا الموضع الجبلى الحصين قاعدة لدولة الموحدين وبها بنى المهدى بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد وفاته ٠

عن تينملل راجع : الادريسى ، المغرب ، ص ٦٤ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٨ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٨١ ، أحمد مختار العبادى ، دراســات فى تاريخ المغرب والاندلس ، هامش (٤) ، ص ٣٤٥ ٠

مقامه ومدفنه بموضع من المغرب اسم هجاء حروفه (ت ى ن م ل)(٥٥)، فعزم ابن تومرت على قصد بلده ، وهكذا واصل مسيرته الى بلاد السوس فوصل الى جبل ايجليز من بلاد هرغة بلدة وموطن قومه وعشيرته ، فلما استوثق من قبيلته ومنعه موضعه ، لانه مكان لا يصل اليه أحد الا عن طريق لا يمشيها الا راكب بعد راكب ، فيسد خللها أقل من عصبة من الناس ، اعتزم أن يعلن امامته ، وفى اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، قام ابن تومرت خطيبا فى أصحابه، وأعلن أنه المهدى المنتظر الذى بشر به الرسول عليه الصلاة والسلام(٥٦)، فلما فرغ ابن تومرت من خطبته ، جلس فى ظل شجرة خروب ليتلقى بيعة أصحابه ، هرع اليه عشرة من أخلص أصحابه ، وبايعوه على أنه المهدى المنتظر والمعصوم ، أولهم : عبد المؤمن بن على ومنهم أبو محمد البشير، وأبو حفص عمر بن على الصنهاجى ، وقد أطلق على هؤلاء العشرة اسم أهل الجماعة(٥٧) ، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدى ، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة ، وكانت هذه الطبقات الثلاث تمثل النواة الاولى لنظام الحكم والادارة لدولة الموحدين(٥٨) .

أما بقية أصحاب المهدى فقد انقسموا الى عشر طبقات تضم طلاب العلم، والحفاظ وهم صغار الطلبة ، وأهل الدار وهم أقارب المهدى وعشيرته، وقبيلته وأهل تينملل ، وأهل جدميوه ، وأهل جنفيسة ، وأهل هنتاتة ،

---

(٥٦) أورد ابن القطان نص خطبة المهدى الى أصحابه ص ٧٥ ، ص ٧٦ .

(٥٧) حول أصحاب المهدى العشرة أنظر : البيذق ، ص ٧٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧٧ - ٨٠ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ ، مجهول الحلل الموشية ، ص ٧٩ عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧١ ، ص ١٧٢.

(٥٨) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨١ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

وأهل القبائل ، والجند ، وأخيرا الغرات وهم الاحداث الصغار الاميون، ثم وضع المهدى نظاما خاصا لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل منها مهمة تختص بها ، ورتبه لا تتعداها ، ســواء فى السفر أو الحضر(٥٩) ، وسمى المهدى اصحابه وأهل دعوته بالموحدين ويفسر ابن خلدون اتخاذه هذا الاسم تعريضا بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم الى التجسيم(٦٠) ، كما أطلق المهدى على المرابطين الزراجنة ، فشبههم بطائر أسود البطن ، أبيض الريش يقال له الزرجان ، لانهم بيض الثياب ســود القلوب(٦١) ، وقد بلغت طاعة الموحدين للمهدى الى حد أنه اذا أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير ابطاء(٦٢) .

---

(٧٩) ابن القطـان ، نظم الجمـان ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ .

(٦١) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨٥ .

(٦٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٩١ .

ج) المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين
(بداية الصدام المسلح)

عندما بلغ على بن يوسف أنباء ابن تومرت أدرك مدى الخطأ الذى وقع فيه بتركه طليقا ينشر دعوته ويثير المغرب الاقصى بآرائه المتطرفة وعزم على أن يبدأ بضرب الحركة الموحدية قبل استفحالها ، وعلى هذا النحو سير لقتال ابن تومرت أبا بكر ابن محمد اللمتونى والى السوس(٦٣) وقيل ابراهيم بن تاعيشت(٦٤) ، فنزل الجيش المرابطى بمكان وعر على الجانب الشرقى من جبل ايجليز ، فلما علم ابن تومرت بذلك ، عقد مجلسا لاصحابه ووعظهم بقوله : « أنظروا الى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، انما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم » ، ثم نزل بأصحابه من أعلى الجبل ، وحطوا على قوات المرابطين كالبواشق فأوقعوا بهم الهزيمة واستولوا على خيلهم وأسلحتهم ومتاعهم وأموالهم(٦٥) ، ثم جهز المهدى جيشا من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينملل زوده بالاعلام البيض ، وندب لقيادته أبا محمد البشير فخرج البشير بقواته متجها صوب مدينة أغمات ، فاتصل خبرهم بأمير المسلمين ، فبعث لقتالهم جيشا من الحشم والاجناد ، واشتبك فى موقعة انتهت بهزيمة جيش المرابطين فطاردهم البشير بقواته حتى أرغمهم على اللوذ بمراكش فأقاموا عليها محاصرين عدة أيام ، ثم عادوا الى الجبل بعد أن تكاثرت عليهم جموع المرابطين فى السادس من

---

(٦٣) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٤ .

(٦٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨٢ .

(٦٥) ابن القطان ، نفسه ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، مجهول ، المصدر السابق ، ص ٧٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٨ .

شعبان سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)(٦٦) • ولم تفت هذه الهزيمة الاولى فى عضد على بن يوسف ، فبادر بتجهيز جيش آخر ، سيره تحت امرة الامير أبى اسحاق ابراهيم(٦٧) ، وقيل ولده أبى بكر بن على(٦٨) ،ولكن ثقة الموحدين بقوتهم وما كانوا يستشعرونه من قوة معنوية من خلال تعاليم زعيمهم المهدى هيأت لهم المجال لمواجهة جيوش المرابطين النظامية التى كانت تفتقد هذه القوة المعنوية ، وانتهى الامر بانهيار قوة المرابطين قبل اللقاء ، فقد سرى الرعب فى نفوسهم ولم يلبثوا أن أنهزموا أمام الموحدين دون قتال(٦٩) • وكان لهذه الهزيمة الثانية التى تلقتها قوات المرابطين على أيدى الموحدين أسوأ وقع فى نفس على بن يوسف ، فجهز جيشا ثالثا عهد بقيادته الى الامير سير ابن القائد المرابطى العظيم مزدلى اللمتونى ولكن هذا الجيش الثالث لم يلبث هو الآخر أن منى بهزيمة نكراء(٧٠) •

وكانت لتلك الانتصارات المتوالية التى حققها الموحدين أثرها الكبير فى ذيوع أسطورة المهدى وانتشار أمره ، وكثرة أتباعه ، وعظم ثقته بنفسه وقوته ، فأرسل الى على ابن يوسف رسالة كلها تهديد ووعيد ، فيما يلى نصها : « من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله ، الى المغرور بدنياه على بن يوسف ، أما بعد ، فانا ما وجدنا لاكثركم منعهد ، وان وجدنا أكثركم لفاسقين ، لم تخشوا عقوبة

---

(٦٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٤ •
(٦٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٠ •
(٦٨) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٩٢ •
(٦٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨١ ، أشباخ ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ •
(٧٠) مجهول ، المصدر السابق ، ص ٨١ •

رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ، الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعهم الناس أجمعين ، فاذا هم أخسر الخاسرين ، وقد أمرنى الله بادحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس الى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين لا تغتروا فان المسلمين اليكم قادمون ، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله ، وقد جاء فى التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنــون بلا اله الا الله ، وانها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فىء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل،وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون،وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن »(٧١) . وكانت هذه الرسالة بمثابة اعــلان حرب بين الموحدين والمرابطــين .

غادر المهدى جبل ايجليز فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام وسار فى أصحابه وأجناده الى تينملل ، حيث ابتنى حصــنا ودارا ومسجدا ، كما أدار حولها سورا ، وأخذ يتأهب للمرحلة الثانيــة والحاسمة ضد المرابطين ، ورأى استعدادا لتلك المرحلة من الصراع أن يستوثق من ولاء أنصاره واخلاصهم له ، كما رأى ضمانا لذلك أن يتخلص من العناصر المعارضة لدعوته ، خاصة وقد نما الى علمه أن أعيان أهــل تينملل قد اجتمعوا واقترحوا اصلاح علاقاتهم مع أمير المسلمين وعندئذ ابتكر فكرة التمييز وانتدب أبا محمد البشير المعروف بالونشريشى لتمييز الناس بهدف التخلص من معارضيه(٧٢) .

---

(٧١) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ١١ .

(٧٢) حول التمييز أنظر : البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ٧٨ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٧ ، ص ٢٩٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٨ ، ص ٦٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ .

د) المرحلة الثالثة من الصراع بين المرابطين والموحدين
(حصار الموحدين لمراكش وهزيمتهم فى وقعة البحيرة)

ثم بدأ المهدى ينظم صفوفه ، ويحشد حشوده لمهاجمة المرابطين فى عقر دارهم ، وخاطب أتباعه وأنصاره يستدعيهم للوصول اليه ، فاجتمع لديه فى تينملل ما يقرب من أربعين راجل ونحو أربعمائة فارس قدم عليهم أبا محمد البشير(٧٣) ، كما جعل عبد المؤمن اماما للصلاة(٧٤) ، ولم يصحب المهدى جيشه فى هذه الغزوة لمرضه(٧٥) ، ولكنه أوصى قواته وهو يودعهم بقوله : « أقصدوا هـؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطـين ، فادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالامام المهدى المعصوم ، فان أجابوكم فهم أخوانكم ، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتلهم »(٧٦) . ووقعت قبل المعركة الاولى الحاسمة عدة اشتباكات تمهيدية بين المرابطين والموحدين وقعت المعركة الاولى فى موضع يقال له « كيك » وفيها انهزمت قوات المرابطين بقيادة أبى بكر بن يندوج(٧٧) ، ثم وقعت المعركة الثانية فى موضع يسمى « بالجروبة » وكان على قيادة المرابطين الامير أبو بكر أبن على بن يوسف ، ومعه القائد يطى بن اسماعيل وانتهت هذه المعركة أيضا بهزيمة نكراء منى بها المرابطون واستيلاء الموحدين على محلاتهم ودوابهم وأمتعتهم وأسلحتهم ، ومطـاردتهم لفلولهم الى مكان يسمى

---

(٧٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٤ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٧٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٥ .

(٧٥) مجهول ، الحلل الوشية ، ص ٩٤ .

(٧٦) المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٧٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٤ .

« بامجـدار » حيث اصطدموا بفرقة عسكرية مرابطيـة يقودها نفس القائد المرابط يطى بن اسـماعيل ، الذى كان قد ولى الادبار فى معركة البحروبة ، وتمكن الموحـدون من ايقاع الهزيمة بعسكر المرابطين فى هذه المرة أيضا وسقط يطى بن اسماعيل قتيلا(٧٨) . وعلى أثر هذا الانتصار الكبير واصل الموحدون زحفهم صوب أغمات ، وكان المرابطون قد جمعوا شتات قواتهم وضموا اليها حشودا هائلة من أهل أغمات واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، أما الموحدون فقد تناوب على قيادة عسكرهم ثلاث من أصحاب المهدى هم : عبد المؤمن بن على ، وأبو حفص عمر بن على أصناج ، وأبو عمران موسى بن تمار الجدميوى ، فنشبت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة نكراء منى بها المرابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات أعداد ضخمة(٧٩) . وبهذا الانتصار انفتح المجال أمام قوات الموحدين لمحاصرة مراكش ، وهكذا تقدمت قواتهم الظافرة الى مراكش ورابطت تجاه باب الشريعة ، وكان على بن يوسف قد حشد قواته فى تلك الاثناء ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغت عـدة جيوش المرابطين آنذاك زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل(٨٠) . فلمـا تراءى الجمعان أرسل الموحدون الى المرابطين يدعونهم الى ما أمرهم به ابن تومرت ، من قمع البدع ، واحياء السنة ، والمبادرة الى بيعة المهدى، فرد على بن يوسف على عبد المؤمن بن على يحذره عاقبة مفارقة الجماعة، ويذكره الله فى سفك الدمـاء ، واثارة الفتنة ، فلم يرتدع عبـد المؤمن

(٧٨) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١١٥ ، ص ١١٦ .

(٧٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٦ ، عنـان ، عصر المرابطين ، ص ١٨٦ .

(٨٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحـة .

لتحـذيره[81] ، ونشبت بين الجانبين معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على المرابطين وقتل منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم الى داخل المدينة، وأخذوا يتدافعون بهدف التحصن داخل أسوارها فهلك منهم في الزحام خلق كثير • أصيب على بن يوسف بالمرارة وخيبة الامـل واستغرق فى التفكير فيما آل اليه مصير دولته على أيدى الموحدين ، ولم يفق الا على صوت بعض من كان معه وهو يقول : « يا مرابط ، سر من هنا الى أحد الابواب حيث لا زحام » ، ولم يرد أن يسميه لئلا يعلم به أحد ، ففـر ودخل من باب المخزن[82] ، فأحاط الموحـدون بالمدينة وأحكموا حولهـا الحصار ، واستمر حصار الموحـدين لمراكش زهاء أربعين يوما[83] لم يتوقف أثناءها القتال بين الفريقين ، فكان المرابطون يخرجون بين الحين والحين لقتال الموحدين ، فنشبت بين الفريقين تحت أسوار المدينة معارك طاحنة[84] • وكان على بن يوسف قد سير ابان فترة الحصار رسله الى سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها ليوافوه بحشـودهم ، فقدمت اليـه جموع كثيفة من مختلف النواحى ، وقدم اليه على الاخص جيش ضخم من سجلماسة أرسله واليها وانودين بن سير لنصرته[85] • وبفضل هذه الامدادات الجديدة أمكن لعلى بن يوسف أن يعيد تنظيم صفوفه ويتأهب

---

(٨١) المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ •

(٨٢) ابن القطان ، نظام الجمان ، ص ١١٧ ، ص ١١٨ •

(٨٣) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١١٨ ، ابن عذارى ، البيـان ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ، الزركشى ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ٧ ، أما ابن الاثير فيحدد مدة الحصار بعشرين يوما ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، فى حين يجعلها ابن خلكان قرابة الشهر ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٥٣ •

(٨٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٨ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ •

(٨٥) ابن القطان ، نفسه ، نفس الصفحة •

المعركة الفاصلة التي دارت في بستان كبير ، والبستان في اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة بموقعة البحيرة وبيوم البحيرة[٨٦] . بدأت المعركة بمناوشات على نطاق محدود دارت بين الحرس الاميري الخاص بعلى بن يوسف بقيادة عبد الله بن همشك[٨٧] أحد رؤساء ثغور الاندلس وبين قوة من الموحدين ، فانهزم الموحدون ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل فلما دخل ابن همشك حاملا تلك الرؤس الى مراكش ، سادت الفرحة والبهجة نفوس الاهالى وحل الامل محل اليأس وأيقنوا بالنصر ، فقد كان هذا الانتصار رغم ضآلته كافيا لاسقاط أسطورة الموحدين ورفع معنوية المرابطين ، اذ جاء بعد هزائم متتابعة وهكذا أمر على بن يوسف بخروج العسكر المرابطى بقيادة أبو محمد وانودين بن سير[٨٨] ، ثم نشبت معركة عنيفة بين العسكرين ، فقاتل المرابطون قتال من يطلب الشهادة ، فرجحت كفتهم ، وأوقعوا الهزيمة في صفوف الموحدين ، وقتلوا منهم ما يزيد على أربعين ألفا ولم ينج من جيوش الموحدين الا نحو أربعمائة ما بين فارس وراجل[٨٩] ، وكان من بين القتلى القائد الموحدى أبو محمد البشير وأربعة من أصحاب المهدى

---

(٨٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ .

(٨٧) كان جده همشك نصرانى أسلم على يد بنى هود فى سرقسطة ، وقد اتصل ابن همشك بالامير محمد بن سعد بن مردنيش واشتغل فى شرق الاندلس لحسابه ، وتزوج من ابنة ابن مردنيش ثم فسد ما بينهما بسبب الصهر فتعاديا ، فدخل فى طاعة الموحدين ، فأقطعوه بمكناسة أملاك كثيرة ، وأقام بها الى أن مات .
أنظر : المراكشى ، المعجب ، هامش (٢) ص ٢١١ .

(٨٨) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ ، عنان ، عصر المرابطين، ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، مجهول ، نفسه ، ص ٨٥ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . والحقيقة أن هذه الارقام واضح فيها عنصر المبالغة .

العشرة هم سليمان بن مخلوف الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمار الجدميوى ، وأبو يحيى بن يجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان[٩٠] ، ولم ينقذ البقية اليسيرة الباقية من جيش الموحدين سوى سواد الليل وهطول الامطار ، وأمكن لقائدهم عبد المؤمن بن على وهو جريح قد أصيب فى فخذه أن ينسحب فى فلوله تحت جنح الظلام متجها صوب أغمات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما معركة ثانية ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم انهزموا مرة أخرى ، وتطايرت فلولهم الى تينملل[٩١] . وكان عبد المؤمن قد أرسل أبا بكر الصنهاجى الملقب بالبيذق ليبلغ المهدى بحقيقة ما حدث فى معركة البحيرة ، فلما تأكد المهدى من نجاة عبد المؤمن خف لديه المصاب ، ولم يتردد فى أن يحمد الله على نجاة عبد المؤمن ويقول : « الحمد لله رب العالمين ، قد بقى أمركم »[٩٢] .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الحاسم على الموحدين فى معركة البحيرة[٩٣] ، وترتب على ذلك انسحاب الموحدين مرة أخرى الى الجبال

---

(٩٠) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ٧٩ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٠ .

(٩١) البيذق ، نفسه ، نفس الصفحة ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٢٠ ، مجهول الحلل الموشية ، ص ٨٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٨٩ .

(٩٢) البيذق ، نفسه ، ص ٧٩ .

(٩٣) اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ معركة البحيرة ، فالبيذق يضع تاريخ المعركة فى عام ٥٢٤ هـ ، ويتفق معه كل من ابن القطان وابن الاثير ، وابن أبى زرع ، والزركشى ، أما ابن خلدون فيجعل تاريخها فى عام ٥٢٢ هـ ، ويجعلها عبد الواحد المراكشى فى عام ٥١٧ هـ ، ولكن المتفق عليه بين ثقات المؤرخين وعلى الاخص البيذق هو عام ٥٢٤ هـ .

انظر : البيذق ، ص ٢٨ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، =

مما أخر سقوط الدولة مايقرب من عشرين عاما ، كما كان له أكبر الاثر فى عودة كثير من القبائل التى كانت قد خرجت على طاعة المرابطين تبـذل الطاعة لهم ، كما هيأ للمرابطين المجال من جديد لمتابعة جهادهم فى الاندلس ضد قوى النصرانية ، والتمكن من احراز الانتصـار الثانى العظيم فى الاندلس بعد الزلاقة وأعنى به انتصار افراغه .

= ص ١٢٥ ، الزركشى ، تاريخ الدولتيـن ، ص ٧ ، ابن خلدون ، العبـر ، المراكشى ، المعجب ص ١٩٢ .

هـ) المرحلة الرابعة من الصراع بين المرابطين والموحدين
(فى بداية عهد عبد المؤمن بن على)

اعتل المهدى بن تومرت قبل وقوع معركة البحيرة ثم اشتدت عليه علته بعد وقوع الهزيمة،فلم يطل به العمر بعد ذلك سوى أياما معدودات، فلم يلبث أن توفى فى رمضان سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)(٩٤) ، فخلفه عبد المؤمن بن على على زعامة الموحدين • وتختلف الروايات الاسلامية حول الظروف التى تولى فيها عبد المؤمن خلافة الموحدين ، ولكن يمكن التوفيق بين هذه الروايات المختلفة بأن المهدى كان قد أختار عبد المؤمن بن على خليفة للموحدين ضمانا لاستقرار الدعوة من بعده ولهذا فقد اكتفى المهدى قبيل وفاته بدعوة أهل الحل والعقد من شيوخ الموحدين الى مبايعة عبد المؤمن ، فلما توفى المهدى تمت البيعة الخاصة ، واضطر عبد المؤمن وأصحابه الى اخفاء خبر وفاة المهدى ، حتى يحين الوقت المناسب تجنبا لتفرق كلمة الموحدين أو انقسامهم الى شيع وأحزاب فتذهب ريحهم وتزول حركتهم ، وقد ظل خبر وفاة المهدى وتولية عبد المؤمن سرا لا يعلمه سوى أصحاب المهدى العشرة وأهل بيته قرابة ثلاث سنوات ، حتى تمكنت الدعوة الموحدية فى نفوس الموحدين ،

---

(٩٤) حول وفاة المهدى أنظر : البيذق ، ص ٥١ ، ص ٨١ ، ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، المراكشى، المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٥٣ ، ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ص ١٢٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٤٧٢ ، ابن أبى دينار المؤنس ، ص ١٠٣ ، الزركشى ، المصدر السابق ، ص ٧ • وقد اتفقت هذه الروايات حول تاريخ وفاة المهدى بعام ٥٢٤هـ فيما عدا ابن خلدون الذى يجعل عام ٥٢٢ هـ تاريخا لوفاة المهدى •

وعندئذ فقط أعلن أصحاب المهدى خبر وفاته واستخلاف عبد المؤمن[٩٥].

كانت مهمة عبد المؤمن بن على عسيرة صعبة ، فقد كان عليه أن يعيد الثقة الى نفوس الموحـــدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيـــدا للمعركة المقبلة الفاصلة ، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الاولى من خلافته فى رأب الصدع ، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين ، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين ، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبى زرع موجهة الى مدينة مراكش فقد هاجمها أياما ثم ارتحل عنها[٩٦] ، غير أن ابن القطان[٩٧] وابن خلدون[٩٨] يتفقان على أن أول غزواته هى غزوته لتادلة فى وادى درعة ، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل فى شهر ربيع الاول سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) فى جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل[٩٩] ، فسار أولا نحو حصن تازاجورت ، وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط[١٠٠] وقيل يحيى بن مريم الزرجانى[١٠١] ، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل

---

(٩٥) حول ظروف تولية عبد المؤمن بن على وبيعته أنظر : البيذق ، ص ٨٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣٠ ، عبد الواحد المراكشي ، ص ١٩٤ – ١٩٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطـاس ، ص ١٢٩ – ١٣٢ ، ابن خـلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢١٩ – ٢٢١ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٠ ، ٧٨١ .

(٩٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣٢ .

(٩٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٥ .

(٩٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٣ .

(٩٩) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١٠٠) البيـــذق ، ص ٨٤ .

(١٠١) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

معه نحو عشرين ألفا من المرابطين[١٠٢] ، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عددا من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل ، وهذا الرقم من الصعب تصديقه اذا أخذنا في الاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلا عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الاندلس • رحل عبد المؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونه بنت ينتان بن عمر أرملة والى الحصن المذكور وصحبها معه الى تينملل ، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد ، بمن كان فى تلمسان من أسرى الموحدين[١٠٣] ، ثم سار عبد المؤمن الى درعة واستولى عليها[١٠٤] ، كما استولى فى نفس العام ـ ٥٢٦ هـ ـ على حصن هزرجة ، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار الى بلدة جشجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها ، ثم سار الى بلدة أجلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب المهدى وامرأته فى يوم العيد ، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل[١٠٥]، وفى نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى أحد أصحاب المهدى العشرة ومعه بعض

---

(١٠٢) ابن القطان ، نفس المصدر ، نفس الصفحة •

(١٠٣) ابن القطان ، نفس المصدر والصفحة ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٥ •

(١٠٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ١٣١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٧٣ ، عنان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ •
ومدينة درعة تعرف بواديها فانه نهر كبير يجرى من المشرق الى المغرب ومنبعه من جبل درن ، وفيها أسواق كثيرة تنتشر فى انحاء البلاد وتشتهر درعة بجميع أنواع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها ، كما تشتهر أيضا بالحناء •
عن درعة أنظر : البكرى ، المغرب ، ص ٦١ ، الاستبصار ، ص ٢٠٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ •

(١٠٥) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٩٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٦ •

وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا المهدى فى احدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه[١٠٦] ، وفى هذا العام أيضا افتتح الموحدون حصن تاسغيموت أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين ، كما كانت تقوم على حراسته حامية من هزرجة قوامها مائتى وخمسمائة راجل ، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجأوا الى الحيلة فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه ، فأقتحموه ليلا ، وقتلوا أبو بكر بن وارصول اللمطى واليه المرابطى ومن معه من المرابطين ، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية الى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين[١٠٧] .

عاد عبد المؤمن الى تينملل ، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة ، ان دلت على شىء فانما تدل على أن الطموح الى الرئاسة كان ما يزال يضطرم فى نفوس بعض منافسى عبد المؤمن وأن الرغبة فى القيادة والتطلع الى الزعامة كانت لا تزال تلح فى نفوس أقرب المقربين الى عبد المؤمن وأعنى بهم أصحاب المهدى العشرة وتتلخص هذه الحادثة فى اقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب المهدى العشرة ، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن على أثناء غيابه عن تينملل غازيا،واعلانه الطاعة لامير المسلمين على بن يوسف ، الذى لم يتردد فى اعلان رضاه عن ابن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل ، فسار ابن ملوية بتلك القوة الى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة

---

(١٠٦) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٩٦ ؛ عنان ، نفسه ، ص ٢٢٦ .
(١٠٧) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ١٢٨ ، ابن القطان ، نفسه، ص ١٩٤ ؛ عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٦ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٥ ، ص ٧٦٦ .

بهدف استمالتها الى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة الى تينملل ، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين فى تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه للمهدى ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفى الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكى أحد أهل خمسين ومعه غلامه ، وسارا الى محله ابن ملوية ، وقتلاه ، وحملا جثته الى تينملل حيث صلبت ، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة اخلاصها وقسم الغنائم عليهم(١٠٨) .

ويشير ابن القطان فى حوادث عام ٥٣٦ ﻫ الى انضمام أحد قادة المرابطين وهو الفلاكى الى طاعة الموحدين ، وكان الفلاكى من أهل أشبيلية، وكان فى بداية أمره شقيا وقاطع طريق ، ثم تاب ، فعفا عنه والى أشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة ، ثم انتقل الى خدمة أمير المسلمين على بن يوسف ، الذى قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه الى السوس لمدافعة الموحدين ، فجد فى محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين ، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم الى الموحدين ، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة فى منطقة السوس ، ويفعل بها مثلما كان يفعل فى الحصون الموحدية من قبل ، وظل فى خدمة الموحدين الى أن أرتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد الى طاعة المرابطين(١٠٩) .

ويمضى الصراع بين المرابطين والموحدين ، فيشير ابن القطان فى حوادث عام ٥٢٨ ﻫ (١١٣٣ م) الى غزوة قام بها ابراهيم بن يوسف بن

---

(١٠٨) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٦ .

(١٠٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ ، عنان ، نفسه ، ص ٢٢٧ .

تاشفين المعروف بابن تاعيشت ضد الموحدين ، فاشتبك ابراهيم فى معركة مع الموحدين لقى فيها مصرعه(١١٠) وانتهت المعركة بهزيمة المرابطين ثم افتتح الموحدون مدينة تارودنت(١١١) أعظم معاقل المرابطين فى بلاد السوس وفى وصف فتح الموحدين لمدينة تارودنت يذكر ابن القطان أنه لما أستولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، فرت البقية الباقية من المرابطين وعدتها نحو أربعمائة فارس بقيادة القائد المعروف « بالعلج الاعرج » (والغالب أنه القائد المعروف باسم الروبرتير)(١١٢) الى تيونوين ، وعلم بمقدمة من كان قد فر الى الاطراف من أهل السوس ، فبادروا بالالتفاف حوله ، وهنا قسم عبد المؤمن جيشه الى قسمين ، قسم وجهه الى أدنى السوس ، فقتلوا من وجدوه من المرابطين وغنموا

---

(١١٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٦ ، وأنظر أيضا عنان ، ص ٢٢٨ ، ويذكر ابن القطان أن فرس ابراهيم بن تاعيشت كبا به وقتل على الفور .

(١١١) تارودنت مدينة عظيمة تقع على وادى ماسة ، وهى غنية بزراعة قصب السكر ، كما أنها أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات ، ومنها يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والاندلس وافريقية وهو المشهور بالطبرزد .
أنظر : مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١١ ، ص ٢١٢ ، الادريسى ، صفة المغرب ، ص ٧٤ .

(١١٢) الروبرتير كان قائدا مسيحيا اندلسيا من قواد أمير برشلونة ، ثم وقع فى أسر قائد البحر المرابطى على بن ميمون ، فوجهه الى مراكش حيث دخل فى خدمة الامير على بن يوسف ، فولاه قيادة فرقة الجند المسيحى المرتزق التى كانت تعمل فى صفوف المرابطين ، وقد أبلى الروبرتير بلاء حسنا فى الدفاع عن دولة المرابطين أمام الموحدين ، وقتل فى احدى المعارك التى خاضها ضد الموحدين عند تلمسان قبل مقتل تاشفين بن على بن يوسف بقليل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ - ١١٤٥ م) ، وقد كان للروبرتير هذا ولد اسمه على اعتنق الاسلام ودخل فى طاعة الموحدين وأصبح من أكابر رجال دولتهم ، واليه يرجع الفضل فى انتزاع جزيرة ميورقة من أيدى بنى غانية ، وقد قتل على هذا فى احدى المعارك سنة ٥٨٣ هـ .
عن الروبرتير أنظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق مؤنس ، هامش

أموالهم ودوابهم وعبيـــدهم ، وقسم سيره صوب مدينـــة تارودنت ، فاقتحموها ، وأطلقوا النار فى القصب ، وقتلوا من وجدوه بها ، كل ذلك والمرابطـــون فى تيـــونوين يشهدون النـــيران تشـــتعل فى ديارهـــم وأراضيهم (١١٣) .

وفى عام ٥٢٩ هـ (١١٣٤ — ١١٣٥ م) ، سار عبد المؤمن لغزو بنى يبغز ، انتقاما منهم لاقدامهم على قتل أبى محمد عبد العزيز الغيغائى أحد أصحاب المهدى وداعيته اليهم ، فلما نزل عليهم عبد المؤمن ، انتهزوا حاول الظلام ووضعوا الاحطـــاب على ظهور جمالهم وأشعلوا فيها النـــيران ، ودفعوها نحو محلة الموحدين ، وانطلقوا فى أثر جمالهم وهاجموا محلة الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة تبادل فيها الطـــرفان الكر والفر ولكن رجحت كفة بنى يبغز ووصل جماعة منهم الى خيمة عبد المؤمن وأطلقوا عليها وابلا من السهام ، والظاهر أنه كان يتوقع هذا الهجوم ، بحيث ترك مخيمه خاليا أثناء الليل قبيل قيام بنى يبغز بهجومهم عليـــه وظل عبـــد المؤمن يحاصر بنى يبغز نحو أربعين يوما ، فلمـــا يئس من اخضـــاعهم رفع الحصار وعـــاد الى تينملل (١١٤) . وفى العـــام التالى — ٥٣٠ هـ — سار عبد المؤمن الى أجر فرجان ومصكر وطن ، فخـــرج اليه الامير سير بن على يوسف ولى عهد المرابطين ، واشتبك الفريقان فى قتـــال انتهى بهزيمة المرابطـــين واستولى الموحـــدون على أموالهـــم وأسلحتهم (١١٥) .

---

(١١٣) ص ١٩٣ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق مكى ، هامش (١) ص ٩٦ . عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٢ .

(١١٤) ابن القطـــان ، نظم الجمـــان ، ص ٢١٢ — ٢١٤ ، عنـــان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٩ .

(١١٥) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وفى عام ٥٣٢ هـ (١١٣٧ — ١١٣٨ م)، تحرك عبد المؤمن من تينملل الى جبل غياثة ، فعسكر بجرائدة على مقربة من المقرمدة عند وادى أبى دلوا ، كما انضمت اليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبى بكر بن تيفلويت ، فعسكرت بالقرب من محلة سير ، وفى نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن فانو ، غير أن زيرى بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه الى الموحدين ، وراسل عبد المؤمن وطلب منــه عسكرا لمهاجمة عســكر المغرب الذى يقوده عبد الله بن يحيى بن أبى بكر ، فأمده بقوة موحدية ، أغار بها على محلات عسكر المغرب ، وألحق بهم خسائر فادحــة . وفى نفس الوقت توفى القــائد يحيى بن فانو قائد العســكر الزناتى الموالى للمرابطين ، فأسند الامير سير القيادة على القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفى ، الذى واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجده . وكانت الانباء قد وصلت الى سير بن على بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة ، فوضع له سير ألفى فارس فى طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوة المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراســة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن . وفى أثناء ذلك راسل زيرى بن ماخوخ ذويه من زناتة ، واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين فى المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنــده مع زيرى بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة الى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة(١١٦) .

---

(١١٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٩ — ٢٣١ .

و) المرحلة الخامسة من الصراع بين المرابطين والموحدين (حتى سنة ٥٣٥ هـ)

تحرك عبد المؤمن بن على من تينملل فى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ — ١١٣٩ م) ، ونزل فى بلد ملول من منانة فى أراضى حاحة ، فزحف اليه الامير تاشفين بن على بن يوسف ولى عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند المرتزقة فى جيش على بن يوسف ، ونزل تاشفين بقوأته فى تاحكوط من حاحة ، وكان على بن يوسف قد قتل عددا من أعيان قبيلة منانة ، وكان ذلك سببا فى دخولها فى طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات ، فأقم عبد المؤمن فى بنى ماول شهرا وثلاثة أيام ، وهو يشن عليهم الغرات ، ثم تركهم وسار بعد ذلك الى قبيلة بنى وجدزان ثم الى بنى سوار من منانة الجبل ، وكان أبو بكر بن على بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم فى طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن الى أجر فرجان ، فتبعه تاشفين بن على فى قواته وسد عليه الطريق ، فنشبت فى أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين ، هزم فيها تاشفين ، وتكررت هزيمته ثلاث مرات الى أن فر بنفسه الى جهة الميزتانوت ، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفى هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مددا لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الاوان أى بعد هزيمة تاشفين ، فطمعوا فى انتزاع الغنائم من الموحدين ، فلما علم عبد المؤمن بذلك اجأ الى الحيلة فأمر برصد الكمائن فى مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذابا للقوة المرابطية التى كانت من قبيلة جزولة ، وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم اذا ما سمعوا قرع الطبول . نجحت خطة عبد المؤمن بن على نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فلما توسطوا مواضع الكمائن ، دقت

الطبول فجأة ، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم ، واستولوا عـلى أسلحتهم ودوابهم ، وما أن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيســة(١١٧) .

وفى عام ٥٣٤ هـ (١١٣٩ — ١١٤٠ م) ، خرج الامير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين وانضمت اليه فرقة من النصارى المرتزقة بقيادة الروبرتير ، وتمكن المرابطون من حصارهم فى موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين ، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون الى أكل حيواناتهم ، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت فى بدايتها كفــة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين الى مراكش حاملا معه الروبرتير جريحا(١١٨) . وفى عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ — ١١٤١ م) ، خرج الجيش المرابطى من مراكش بقيادة الروبرتير ، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن على فى مكان يسمى أمسيميصى(١١٩) يقع فى أرض كدميوه شمال تينملل ، وقيل أن اللقاء حدث بجبل جذميره(١٢٠) ، ولا يذكر البيذق نشوب معركة بين الجانبين وانما يؤكد أن كل فريق عاد الى بلاده(١٢١) ، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتى المرابطين والموحدين ، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحا الى مراكش(١٢٢) . ثم عـاد

---

(١١٧) ابن القطان ، نظم الجمـان ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ ، ابن عـذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٠ .

(١١٨) البيذق ، ص ٨٦ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

(١١٩) البيذق ، ص ٨٧ .

(١٢٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(١٢١) البيــذق ، ص ٨٧ .

(١٢٢) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٩٨ .

الروبرتير الى الخروج بقوات لمتونة ، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكظرور ، فهزم المرابطون ، وارتد الربروتير فى فلوله جريحا الى مراكش ، وعاد عبد المؤمن الى تينمال(١٢٣) .

واصل عبد المؤمن بن على صراعه ضد المرابطين ، فخرج فى قواته نفس العام — ٥٣٥ هـ — وحاصر حصن تينلين ، وكان يدافع عنه واليه المرابطى يركين ابن ويدرن ، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام ، اضطر بعدها الى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس ، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين ، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين فى السوس من بينها ايرمناد ، وتاسلولت وتيونوين وايجلى وغيرهم(١٢٤) . وفى نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيغايين الموحدية ، وسبى نساءها وأخذهن معه الى مراكش . أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته فى أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها « تماكونت » ابنة ينتان بن عمر أحد وزراء على بن يوسف ، التى رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، وذكرته بشفاعة أبيها ينتان بن عمر فى المهدى ، عندما كان مارا بمراكش ، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به ، فلم يتردد عبد المؤمن فى قبول رجائها وأمر على الفور باطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن الى مراكش معززات مكرمات ، فأعجب على بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره باطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات الى تينملل(١٢٥) .

---

(١٢٣) البيذق ، ٨٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٣ .
(١٢٤) البيذق ، نفسه ، عنان ، نفسه .
(١٢٥) البيذق ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

ز) المرحلة قبل الاخيرة من الصراع
(حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ)

رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التى أحرزها الموحدين على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع الى قلب دولة المرابطين مستهدفا القضاء عليها واسقاطها ، وشرع فى تنفيذ تلك الخطة فى بداية عام ٥٣٥ هـ، ويورد البيذق وكان شاهدا عيانا لاحداث هذه الفترة وصفا دقيقا لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل فى حشود ضخمة متجها نحو الشمال الشرقى، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف الى أشبار وتقع جنوب شرقى مراكش ، ثم غادرها الى تاساوت فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن على فى أثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مرورا ببلدة يمللو القريبة منها ، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو « واويزغت » دون أن يشتبكوا مع المرابطين فى معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت فى تيزى ودارت فيها الدائرة على المرابطين . ثم تقدم الموحدون الى « داى » ، فولى حاكمها المرابطى على بن ساقطر الادبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين ، وواصل الموحدون زحفهم صوب « تازاكارت » ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت فى أيديهم وتبعتها قلعة واوما ، ثم آزرو التى تقاعس حاكمها فى الدفاع عنها ، فدخلها الموحدون ، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته ، وجه منها عددا من الحملات لاخضاع المناطق المجاورة ، وفى نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين الى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن. وهكذا دخل أهل فازاز جميعا فى طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة فى آزرو حيث تزوج من احدى نسائها(١٢٦) .

---

(١٢٦) البيذق ، ص ٨٨ ــ ٩٠ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ .

واصل عبد المؤمن زحفه ، فخـرج من آزرو حيث اعترضته قـوة مرابطية على طريق مكناسة ، ففتك بها وأباد معظمها ، واستولى عـلى كميات كبيرة من المؤن والعتـاد ، ثم هاجم قواعد المرابطـين فى غريس الواقعة جنوبى آزرو ، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبى آزرو ، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة ، فبادر واليهـا أبو بكر بن صارة بالدخول فى طاعة الموحدين • وفى أوائل عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) قامت سرية موحدية على رأسها عبـد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينـة صفروى واقتحمتها ، وتابع ابن زكو زحفه الى الشمال الشرقى نحـو الفلاج الواقعة شمال شرقى صفروى • وفى هذه الاثناء غادر تاشفين بن على مدينة فاس الى جبل العرض فعسكر به ، ثم بعث الروبرتير فى قوة الى الفلاج لاستنقاذها ، فخرج اليه الموحدون بقيادة يحيى آغـوال ، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتـل قائدهم يحيى ، واحتز رأسه وأرسل الى فاس(١٢٧) • ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقى فاس ، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفرا ، بينما عسكر المرابطون فى موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا • ولم يمض وقت قصير حتى حل فصـل الشتاء ، وكان شتاءا قاسيا تعرضت فيـه المنطقة خلال أسـابيع لعواصف عاتية وسـيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة ، الا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى ، حيث تساقطت الخيـام ، وعامت أوتادها لرخاوة الارض ، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطـين بسبب البرد القـارس وقلة الاقوات والوقـود فى كل من المعسكرين وبلغ سعر الشعير فى معسكر الموحـدين وفقا لقول البيـذق

---

(١٢٧) البيذق ، ص٩٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٦ •

ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين دينارا للرطل[١٢٨] . ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاى وتقع الى الشمال الشرقى من فاس . وفى نفس الوقت تقدم تاشفين بن على ومعه الروبرتير فى أثر الموحدين ، فاضطر الموحدون الى ترك أرض لكاى الى أرض بنى غمارة من بطون صنهاجة ، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا فى طاعتهم . وعندئذ سار تاشفين والروبرتير الى أرض بنى تاودا ونزلوا بها ، وأصبح العسكران كفرسى رهان ، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون ، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين فى معركة عنيفة فى موضع يقال له « تازغدرا » أسفرت عن قتل عدد من القوتين ، ارتد الروبرتير على أثرها الى بنى تاودا ، بينما سار الموحدون الى « تاغزوت » ومنها الى بنى مزكلدة ، ثم الى ايلانة ثم الى أيجن . وفى أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن على أزناج أحد جماعة العشرة ، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتماسك والاخلاص لمبادىء المهدى ، وطاعة عبد المؤمن ، ثم توفى فى مساء نفس اليوم ودفن فى موضع يسمى « بجدار نمض » ، ثم واصل الموحدون سيرهم فى الريف ، مرورا بتامقريت ووادى لو أرض بنى سعيد . ومن وراءهم الروبرتير يتعقبهم الى أن وصل الى مدينة تطوان ، فى الوقت الذى وصلت قوات الموحدين الى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط ، ومكنت نفوذها فى تلك النواحى ، وواصلت من هناك تقدمها الى ثغر المزمه ومنها الى جبل تمسامان[١٢٩]،حيث وجه عبد المؤمن

---

(١٢٨) البيذق ، ص ٩١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .

(١٢٩) البيذق ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

قائده عبد الرحمن بن زكو فى قوة من الموحدين لغزو مليلة ، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة (١٣٠) . ثم رحل الموحدون الى ندرومه من بلاد كوميه ، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقا الى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن . وفى هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات الاولى بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، وجهتها ثغر وهران ، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه ، والثانية بقيادة الشيخ أبى ابراهيم اسماعيل ، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان ، والثالثة بقيادة يوسف بن وانودين وسارت الى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج اليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبى بكر بن الجوهر ، ومحمد بن يحيى بن فانو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة فى وادى الزيتون ، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو (١٣١) .

وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم على قوى المرابطين ، وان كانت كلفتهم كثيرا طوال حياة أمير المسلمين على بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته فى نفوس المرابطين ، ثم جاءت وفاته فى سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٣ م) بداية لنهاية دولة المرابطين ، فلم يمض عامان حتى كان بنيانها قد انهار من أساسه ، فعلى الرغم من المحاولات اليائسة التى كان يبذلها تاشفين بن على بن يوسف الذى خلف أباه فى رئاسة المرابطين،
يبذلها تاشفين بن على بن يوسف الذى خلف أباه فى رئاسة المرابطين ،
وعلى الرغم من ضروب الشجاعة والاقدام التى اتصف بها فى معاركه التى خاضها ضد قوى الموحدين طوال الفترة القصيرة التى قضاها فى الامارة ، وجملتها سنتان ، فان الصدع كان من العمق بحيث لم ينفع فيه علاج

---

(١٣٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، عنان ، نفسه ، ص ٢٤٠ .

(١٣١) البيذق ، ص ٩٣ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١ .

وكان من الممكن أن يمتد أمر المرابطين لو أن العمر طال به أكثر من ذلك ، ولكنه لسوء طالع المرابطين خر صريعا فى عـام ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) ، وبوفاته انهارت مقاومة المرابطين فى بداية عهد ولده الامير أبى أسحاق ابراهيم آخر أمراء دولة المرابطين اذ تمكن الموحدون من افتتاح مراكش الحاضرة وقتل أمير المرابطين ، وبمصرعه زال سلطان المرابطين نهائيـا وبدأت صفحة جديدة من تاريخ المغرب فى ظل دولة الموحدين .

وعلى هذا النحو نجحت دعوة محمـد بن تومرت فى اسقاط الدولة المرابطية واقامة أسس دولة جديدة ، وان كان العمر لم يمتد بالمهـدى صاحب هذه الدعوة ليشهد ثمرة حركته .

ب) ثورة مدينــة فـــاس سنة ٥٠٠ هـ

بدأت بوادر الضعف والوهن تسرى فى كيان دولة المرابطين فى أعقاب وفاة مؤسسها وصاحب الفضل فى قيامها يوسف بن تاشفين فقد كان يمثل رجل الدولة القوى الذى يرهب الرعية ويعملون له حساباً كبيرا شأن كل مؤسسى الدول ، فلما توفى واختفت صورته زالت من النفوس مشاعر الخوف والرهبة ، واستضعف الناس من خلفه فاستهانوا بادىء ذى بدء بشأنه . وهكذا قامت فى مدينة فاس العاصمة الدينية للمغرب ثورة محلية محدودة النطاق ولكنها فى الحقيقة كانت أول مظاهر التصدع الذى أصاب دعائم دولة المرابطين .

بدأت هذه الثورة عقب وفاة يوسف بن تاشفين وتوليه ولده وولى عهده الامير أبى الحسن على طبقا للنظام الوراثى الذى استنه يوسف قبيل وفاته ، عندما أخذ البيعة بولاية العهد لولده على فى مدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) ، فلما تولى على بن يوسف امارة المرابطين كتب الى مختلف قواعد المغرب والاندلس يبلغها بوفاة والده ويطلب من ولاتها أخذ البيعة له ، فأتته البيعة من سائر البلاد باستثناء مدينة فاس وكان يليها عند وفاة يوسف بن تاشفين حفيده يحيى بن أبى بكر أخى أمير المسلمين على ، وكان أبو بكر هذا قد توفى فى حياة والده ، فرفض الامير يحيى آداء البيعة لعمه على ، وأعلن عصيانه وتمرده وخروجه عن طاعة عمه ، ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة (١٣٢) .

اضطر على بن يوسف الى التعجيل باخماد هذه الحركة وتأديب ابن

---

(١٣٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ الخاص بالمغرب ، ص ٢٥٣ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٥٩ .
Terrasse, Histoire du Maroc, vol., 11, P. 242.

أخيه ، وبادر بالتحرك فى قــوة من عسكره الى فاس ، فلمـا علم يحيى بخروج عمه اليه قبل أن يتخذ أهبته ، فت ذلك فى عضده وآثر أن يولى الادبار وعلى هذا النحو تمكن على بن يوسف من دخــول فاس فى يوم الاربعاء الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)(١٣٣) .

وقيل أن على بن يوسف لما قرب من فاس ، نزل بمدينة مغيلة الواقعة على الطريق المؤدية الى فاس ، ثم كتب لابن أخيــه يعاتبه على ما بدر منه ويدعوه للدخول فى طاعته وأداء البيعة له ، كما كتب فى نفس الوقت الى شيوخ فاس وفقهائها يدعوهم الى بيعته ويحذرهم من مغبة الخروج عن طاعته ، ولكن كتاب الامير الى شيوخ فاس وقع فى يد يحيى فخشى أن هو سلمه اليهم أن يستجيبوا الى نداء عمه ، فيبادروا ببذل الطــاعة له فيخرج الامر من يده ، وعلى هذا فقد آثر أن يجمع فقهاء مدينتــه ويستشيرهم فى أمر الدفاع عن المدينة والتصدى لقوات عمــه ، وعندما اجتمع بهم وعرض عليهم الامر لم يوافقوه على رأيه هذا ، ونصحوه بأن يبادر على الفور بمبايعة عمــه لاسيما أن الظروف الداخلية فى فاس لم تكن مواتية لمثل هذا العصيان ، فأكثر أهل فاس كانوا غير راضين عــن هذه الحركة ، بل كانوايؤيدون الامير على بن يوسف ويبذلون له الولاء والطاعة ، فلما أدرك يحيى استحالة وقوف أهــل فاس معه ، قرر ترك المدينة ولاذ بمزدلى والى تلمسان ، فلقيه عند وادى ملوية فى طريقه الى المغرب الاقصى لتقديم بيعته الى أمير المسلمين ، فطلب منه أن يتوسط له عند عمه ، ليعفو عنه ، فوعده مزدلى بالسعى فى ذلك ، ولم يلبث مزدلى

---

(١٣٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ، السلاوى ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
Codera, Dec. y Des de los Almoravides on España, P. 6.

أن تابع طريقه الى فاس للقاء أمير المسلمين وبصحبته يحيى ، ولم يكن على بن يوسف قد ترك فاس بعد ، فاتفق مزدلى مع يحيى على أن يشفع له عند الامير ، وفى أثناء ذلك يختفى عن الانظار فى أحـواز فاس ، وتم الأمر على ذلك ، فعندما قابل مزدلى الامير وبايعه بالامارة تشفع اديه فى ابن أخيه ، فعفا عنه الامير ، وعندئذ بادر يحيى بمبايعة عمه وأعلن ولاءه له • ومع أن الامير قبل شفاعة مزدلى فى يحيى ، وتقبل بيعة ابن أخيه فقد خيره بين الاقامة فى جزيرة ميورقة أو الصحراء فاختار يحيى الصحراء ، ومن هناك مضى مشرقا نحو الحجاز فقضى فريضـة الحج ثم عاد الى المغرب ، واستأذن الامير فى الاقامة بمراكش فأذن له ، فأقام فيها فتـرة من الزمن ، والظاهر أنه واصـل خلالها مؤامراته ضد الامـير على بن يوسف ، أو بدرت منه بعض الامور المريبة تجاه عمه بحيث أمر هذا الاخير بالقبض عليـه وابعاده من المغرب واقامته بالجـزيرة الخضراء الى أن توفى(١٣٤) •

وهكذا تمكن على بن يوسف من القضاء على حركة ابن أخيه فى مهدها وذلك منذ بداية توليه الامارة • وأعتقد أن الاسباب الحقيقية لهذه الحركة تتلخص فيما يلى :

أولا : حسد الامير يحيى بن أبى بكر لعلى بن يوسف لتوليه الامارة بعد وفاة أبيه يوسف بن تاشفين ، ومصدر هذا الحسد يرجع الى الامير أبا بكر والد الثائر يحيى فقد كان الابن الاكبر ليوسف بن تاشفين،كما أنه

---

(١٣٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ ، ص ١١١ ، السلاوى، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ •

Tarrasse, His toire du Maroc, vol 11, PP. 242-3.

عنان عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٥٩ •

كان ينوب عنه فى ادارة الدولة المرابطية فى المغرب وذلك أثناء جهاده فى الاندلس واشتراكه مع ملوك الطوائف فى محاربة نصارى أسبانيا فى وقعة الزلاقة ، وما دام أبو بكر قد توفى فى حياة أبيــه ، فان ابنه يحيى كان أحق بامارة المسلمين من عمه على بن يوسف .

ثانيــا : أيد ثورة يحيى بن أبى بكر نفر من أمراء أسرة ابن تاشفين تعبيرا عن عدم رضائهم عن ولاية على بن يوسف الامارة بعد وفاة أبيــه يوسف ، فلم يكن على الابن الاكبر ليوسف بن تاشفين ، اذ كان من بينهم من كان يكبره سنا ويفوقه قدرة وكفاية ، زد على ذلك أن عليا لم يكن يمثل بصدق الامير المرابطى القح اذ كانت أمه أسبانية مسيحية(١٣٥) ولهذا السبب يمكننا القول بأن ثورة فاس جاءت تعبيرا عن عــدم قبول بعض أفراد الاسرة الحاكمة لعلى بن يوسف ، جاء هذا التعبير بعد وفاة يوسف ابن تاشــفين .

وأعتقد استنتاجا من سياق الاحداث وتتابعها أن ثورة يحيى بن أبى بكر على امــارة على بن يوسف وان كانت فردية الا أنها كانت مدعومة بتأييد يكاد يكون اجماعيا من شيوخ أمراء المرابطين ولكن يبدو أنهم لم يعلنوا انضواءهم اليها انتظارا لما تسفر عنه نتائجها ، فلما تمكن على من القضاء عليها فت ذلك فى عضدهم ، وقضى على آمالهم ، ولعــل على بن يوسف قد أدرك حقيقة الموقف بعد أن وفق فى اخمادها وقد يكون ذلك من العوامل التى دفعته الى تغيير عماله فى الولايات بين الحين والحين ، وانتهاجه لسياسة المدد القصيرة ، يؤكد ذلك الحركة المستمرة بين الولاة التى نلحظها عند تتبعنا لنظام الولاية فى عصر على بن يوسف ، والظاهر

---

(١٣٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ .

استنتاجا من كل ما سبق أن ثورة فاس زعزعت ثقة علي بن يوسف في أقرب أقربائه وعلى رأسهم أخيه الامير أبو الطاهر تميم الذى لم يكن يمكث طويلا فى أى منصب من المناصب التى كان تولاها سواء فى المغرب أم فى الاندلس .

جـ) ثورة مدينــة قرطبــة

احتفظت قرطبة في بداية عصر المرابطين بمكانة سامية بين مدن الاندلس وقواعدها الهامة ، على الرغم من أن غرناطة كانت الحاضرة الاثيرة لدى المرابطين ، ففيها دعا يوسف تاشفين شيوخ لمتونة وأمرائها وفقهاء المرابطين وقادتهم ، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه على ، وانتهى الامر بتوقيعهم على عقد البيعة وتعهد على بن يوسف أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد(١٣٦) . وأصبحت قرطبة منذ ذلك الحين مركز الثقل لدولة المرابطين في الاندلس ، وكان يقيم فيها ولى عهد دولة المرابطين . وظلت تتمتع بهذه المكانة المرموقة حتى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ، عندما وقعت فيها حادثة لها مغزاها وأعنى بها احراق كتاب احياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالى ، فمن المعروف أن المذهب المالكى كان المذهب الرسمى لدولة المرابطين ، فلم يكن أحد يحظى عند الامير على بن يوسف الا من علم فروع مذهب مالك ، فراجت كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وبولغ في ذلك حتى أغفل الناس النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره الى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الاقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت الى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه »(١٣٧) . فلما وصل كتاب الاحياء الى المغرب

---

(١٣٦) سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

(١٣٧) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٢ ، ص ١٧٣ ، انظر أيضا سعد زغلول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والاندلس ، ص ١٧ .

والاندلس نظر فيه رجال الفقه والدين ، فرأوه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ، كما أن هذا الكتاب يفضح فيه الغزالى نزعات الفقهاء فى دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى الحصول على المناصب الرفيعة(١٣٨) ، وكان من الطبيعى أن يسخط فقهاء المرابطين على آراء الغزالى وينكروا كثيرا من المسائل التى وردت فيه بحجة أنها مخالفة للدين . وكان أبو القاسم بن حمدين قاضى قضاة قرطبة من أشد الفقهاء اسرافا فى ذلك ، حتى أنه قال بتكفير من قرأ الاحياء ، ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة الامر الى أمير المسلمين على بن يوسف ، وأجمعوا على ضرورة جمعه واحراقه ، وقد تم احراق عدة نسخ من كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالى بقرطبة فى الميدان الصغير الممتد أمام الباب الغربى من أبواب الجامع فى محضر من الفقهاء(١٣٩) استجابة لطلب ابن حمدين دون مراعاة ما كان قائما بين الغزالى وبين يوسف بن تاشفين من عوامل المودة والمكاتبات التى جرت بينهما ، والثناء الذى كان يثنيه الغزالى على يوسف ، حتى لقد هم بزيارته ، ووصل الى مدينة الاسكندرية فى طريقه الى المغرب الا أنه علم بوفاة يوسف فعاد الى بلاده(١٤٠) .

---

(١٣٨) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ ؛ سالم ، قرطبة ج ١ ، ص ١٤٥ .

(١٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ ، ص ١٥ ؛ ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٥٩ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٥٢ ، ص ٢٥٣ ؛ سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٥ و ص ١٤٦ .

(١٤٠) ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، ص ١٠٦ ؛ حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٧٨ .

وكان على بن يوسف ، لا يقطع فى أمر من أمور دولته دون مشاورة الفقهاء ، ومن هنا ازداد نفوذ الفقهاء فى عهده وعظمت منزلتهم وسمت مكانتهم • والواقع أن هذا النفوذ الزائد الذى تمتع به الفقهاء فى زمنـــه انما هو نتيجة طبيعية ترجـــع الى طبيعة دولة المرابطين منـــذ نشأتها الاولى ، فالى الفقهاء يرجع الفضل فى قيام هذه الدولة ، وكان عبد الله بن ياسين ورفاقه أول من اختط سياسة هذه الدولة ، وقد سموا فى نفوس المغـــاربة وارتفعوا فى نظرهم الى مرتبة الزعماء الذين يدافعـــون عن الضعفـــاء المغلوبين[١٤١] • وهكذا جمع عدد كبير من نسخ الاحيـــاء فى مراكش وتم احراقها على النحو الذى حدث فى قرطبة ، كما أحـــرقت فى سائر بلاد المغرب[١٤٢] ويقال أن احراق المرابطين لكتاب الاحياء ، كان سببا فى زوال ملكهم وانتثار سلك دولتهم[١٤٣] •

ومن الواضح أن المسئول الاول عن احراق كتاب الاحياء هو الفقيه ابن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة فهو الذى أثار القضية وهو الذى تبنى فكرة احراق الكتاب وأقنع بها بقية فقهاء الاندلس ، وهو الذى وضـــع أمير المسلمين أمام الامر الواقـــع ، وعرض عليه فتيـــا الفقهاء بتجريم الكتاب ، فلم يكن أمام على بن يوسف الا أن ينزل على رغبة فقهاء بلاده فيأمر بتنفيذ توصيتهم بحرقه •

وعلى الرغم من أن قرار الاحـــراق كان شبه اجماعى فى المغـــرب

---

(١٤١) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ •

(١٤٢) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ١٤ ، ص ١٥ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٩ ، ص ٦٠ السلاوى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٢٩ •

(١٤٣) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٥ ، السلاوى ، نفسه ، ص ١٢٩ •

والاندلس ، الا أن نفرا من الفقهاء المغاربة عارض ذلك ، نذكر منهم أبا الفضل بن النحوى أحد علماء المغرب الاوسط ، فقد عارض فتوى ابن حمدين وأبدى انتصاره للغزالى ، وكان قد انتسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا ، فكان اذا ما دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا ، وكان يقول « وددت أنى لم أنظر فى عمرى سوى هذا الكتاب »(١٤٤) ومنهم كذلك أبو الحسن البرجى من فقهاء المرية ، الذى عارض القرار وطالب بتأديب من تولى احراق نسخ الاحياء وتغريمه بقيمتها لانها مال مسلم ، ولما قيل له « أتكتب بما قلته خط يدك ؟ أجاب بقوله : « سبحان الله » كبر مقتا عند الله أن تولوا ما لا تفعلون » وكتب فتياه بعقبة ، ودفع الى أبى بكر عمر بن أحمد بن الفصيح ، وأبى القاسم بن ورد ، وغيرهما من فقهاء المرية ومشايخها ، فكتب كل واحد منهم فيه بخطه ، وبه يقول فلان مسلمين لعلمه وزهده . فغضب ابن حمدين عندما بلغه ذلك ولكن تصرف الفقيه المرى كسر من حدته واكتفى بالانتقام منه بفصله من الخطة التى كان يتولاها ، فكتب الى قاضى المرية يومئذ وهو أبو عبد الملك مروان ابن عبد الملك بعزله ، وقد أثر ذلك على نفسية الفقيه المرى الشجاع فاتجه الى الزهد وانصرف عن الدنيا(١٤٥) .

وظلت الدولة المرابطية طوال عهد على بن يوسف وولده تاشفين توجه اهتمامها الى مطاردة كتب الامام الغزالى ، وتتضمن الرسالة التى وجهها أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف الى فقهاء بلنسية

---

(١٤٤) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(١٤٥) ابن الابار ، المعجم لاصحاب القاضى الامام أبى على الصدفى ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ٢٨٣ ، ص ٢٨٤ ، السلاوى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وأعيانها وأهلها ، حثا على مطاردة كتب البدعة ولاسيما كتب الغزالى وفى هذه الرسالة يقول تاشفين : « واعلموا رحمكم الله ، أن مدار الفتيا ومجرى الاحكام والشورى ، فى الحضر والبدا ، على ما أتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب امام دار الهجرة أبى عبد الله مالك بن أنس ، رضى الله عنه. فلا عدول لقاضى ولا مفت عن مذهبه ولا يأخذ فى تحليل ولا تحريم الا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الائمة الى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أو صاحب بدعة ، فاياكم واياه ، وخاصة كتب أبى حامد الغزالى ، فليتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها وتغلظ الأيمان من يتهم بكتمانها(١٤٦) .

والظاهر أن احراق كتاب الاحياء فى قرطبة قد تسبب فى سخط أهل المدينة على واليهم المرابطى ، ولعل هذا السخط كان قائما منذ بداية دخول قوات المرابطين قرطبة ، عندما استشهد المأمون بن المعتمد بن عباد ووزيراه ابن زيدون وأبو بكر(١٤٧) ، ولكنهم حملوا هذا السخط فى جوانحهم ، فترة طويلة الى أن فاض بهم الامر فكشفوا عنه بطريقة غير مباشرة فى معاملاتهم لعمال المرابطين وذلك منذ السنوات الاولى لامارة على بن يوسف ونستدل على ذلك من رسالة وجهها على ابن يوسف الى أهل قرطبة جاء فيها « فاسمعوا وأطيعوه ولا تخالفوه ، فلن يعدو وجه

---

(١٤٦) أنظر نص الرسالة التى أرسلها تاشفين بن على بن يوسف الى الفقهاء والوزراء والاخيار والكافة من أهل بلنسية ، فى باب الوثائق من كتاب عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس للاستاذ عنان ، ص ٥٤٨ — ص ٥٥٠ .

(١٤٧) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٠ .

القصد ولا تعصوه ولا تألوه انقيادا وطاعة ، ولا تدخروا عنه فيما يستعملكم فيه جهدا ولا استطاعة ، واياكم والخوض فى أمر جعلناه اليه، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنيكم منه ، وليرشد خياركم شراركم ، وليبصر كباركم صغاركم ؛ وحسبنا هذا انذارا لكم واعذارا اليكم ، ولا عذر بعد ، ولا يلم من تعدى الا نفسه »(١٤٨) .

والظاهر أن الامير كان يستشعر وجود وميض نار تحت الرماد ، ولهذا كان لا يكف عن توجيه النصح الى أهل قرطبة بالتزام الطاعة وعدم الخوض فى أى شأن من شئون بلدهم ، الى أن انفجرت الثورة فى أواخر عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) ، ويلخص لنا صاحب الحلل الموشية الثورة فى « أن أهل قرطبة كان قد قدم عليها الامير أبى يحيى بن رواده فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه وحدثت بين أهلها وبين من كان فيها من المرابطين فتنة كبيرة ونهبوا ديارهم وقصورهم »(١٤٩) ، ولكن ابن عذارى يقدم الينا رواية أخرى يقول فيها : أنه فى سنة ٥١٤ هـ « نفذ أمر أمير المسلمين الى البلاد الاندلسية ، باحياء المجانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة ، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمى بها أجد آى بن سير اللمتونى صاحب الاعنة ، فتزاحم هناك الجم الغفير ، فرام الفسحة ، وأشار برسيخ كان فى يده فأصاب صبيا فى مقتله فقضى لوقته ، وانفض اللفيف ، وتهرجت البلدة ، فاسترضى ولى الدم بدفع الدية فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشىء

---

(١٤٨) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ـ ٢ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٧٧ .

(١٤٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٣ .

منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشـاهدة التجربة ، وقد أقبل السواد الاعظم الذى لا يطاق ، بمجمع حضور العيد، وحضور كل زاعر وناعق من كل حدب وشاهق ، فكثر التدافع والتزاحم ، ودهم الحشم ، فكثر بينهم التزاحـم ، وأقبل لفيف الربض الغـربى ، فالتقى بأسهم على القصر ، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمة فغلبوا، واقتحم القصر عليه وانتهب جمع ما فيه ، وخرج هو فارا بنفسه ، وركب القاضى أبو الوليد بن رشد فى اعـلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمـع السفلة »(١٥٠) • ولكن ابن الاثير يقدم الينا عن هذه الثورة تفاصيل أوفى فيقول أنه لما أقبل عيد الاضحى خرج أهل قرطبة للاحتفال بتلك المناسبة الدينية ، فانتهز أحد عبيـد أبى بكر بن يحيى بن رواده والى المدينـة فرصة خروج الرجال والنساء الى ظاهر المدينه للنزهة فمد يده الى امرأة وأمسكها فاستغاثت فأغاثها الناس ، فوقعت الفتنة بين الحامية المرابطية بقرطبة وبين الاهالى ، ونشب القتال بينهما حتى حل الظلام ، فتفرق كل فريق وهو يتربص بالآخر • وتهدئة لغضب الاهالى طلب الفقهاء الامير أبى بكر بن يحيى بن رواده والى المدينة بالقصاص من العبد المتسبب فى هذه الفتنة وذلك بقتله ، ولكنه أنكر عليهم ذلك وغضب وأبدى رغبته فى تأديب أهل قرطبة الذين خاضوا الفتنة ، فأمر باخراج السلاح ولكن أهل قرطبة يتقدمهم الفقهاء بادروا بمقاتلته وأوقعوا به وبقواته الهزيمـة ، فتحصن بقصره ، فحاصروه به ، وتسلق بعضهم اليه الا أنه تمـكن من الفرار فأشعلوا النار فى القصر بعد أن نهبوا كل تحفة ومحتوياته ، كمـا أحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة عـلى أقبح صـورة(١٥١) •

---

(١٥٠) ابن عذارى ، البيـان المغرب وهى أوراق مخطـوطة عثر عليهـا الاستاذ محمد عبد الله عنان فى مكتبة القرويين ، أنظر عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٨٧ •

(١٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ، وأنظر يضا سالم ، قرطبة، ج ١ ، ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ •

والظاهر أن الثـورة كانت من الخطـورة على مركز المرابطـين فى الاندلس كله الى الحد الذى يدعـو الامير على بن يوسف الى توجيـه انذارا الى أهل قرطبة[١٥٢] فى نفس الوقت الذى كان يتأهب للعبور الى الاندلس ، فبادر بحشد الحشود من صنهاجة وزناتة والمصامدة والبربر على نحو لم يجتمع مثله للمرابطين من قبل ، وعبر الى الاندلس وهـو العبور الرابع والاخير له[١٥٣] .

وصل على بن يوسف بحشوده نحو قرطبة ، وعسكر بقواته بظاهرها فى شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ ، فبـادر أهل قرطبة باغـلاق أبواب مدينتهم فى وجه أمير المسلمين واستعدوا فى نفس الوقت لمقاتلته ذبا عن أنفسهم وحريمهم وأموالهم[١٥٤] . ويؤكد ابن الاثير أن أهل قرطبة قاتلوا المرابطين قتال من يدافع عن دمه وحريمه ، وأنه لما رأى شـدة قتالهم ، قبل وساطة الوسطاء فى الصلح حقنا للدماء[١٥٥] . وحقيقة الامر أنه لم يحدث قتال على الاطلاق وكل ما فى الامر أن أهل قرطبة بحكم طبيعتهم وما تميزوا به من اباء وشمم لم يقبلوا تهديد المرابطين لهم وآثروا أن يمتنعوا داخل أسوار مدينتهم ، كما تأهبوا للقتال اذا اضطر الامر ذبا عن الحريم والدماء والاموال . كذلك لم يشأ على بن يوسف أن يقتحم المدينة عنوة وكان بامكانه أن يفعل لا سيما وأنه كانت لديه الامكانات لتحقيق هدفه ، ولكنه جنح الى السلم حقنا للدماء وآثر أن ينهى الموضوع سلميا

---

(١٥٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ .

(١٥٣) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ ، مجهول ، الحلل الموشية، ص ٦٣ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٦ ، سالم ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(١٥٤) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(١٥٥) ابن الاثير ، نفسـه .

تجنبا لما قد يترتب على تأديب أهل قرطبة بقوة السلاح من نتائج قد تثير العصبية الاندلسية على البربرية وتفضى بالتالى الى كارثة محققة • وهكذا تقبل وساطة الفقهاء وشفاعتهم •

ودارت مفاوضات الصلح بين الجانبين ، وعمد فقهاء قرطبة وأعيانها الى تذكير الامير بوصية أبيه فى أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم • وانتهت هذه المفاوضات بالاتفاق على أن يلتزم أهل قرطبة برد ما نهبوه من ديار المرابطين وحاميتهم(١٥٦) وارتضى أمير المسلمين هذا الحل أملا فى أن يحل الوفاق محل العداوة والبغضاء ، ليتفرغ المرابطون فى الاندلس لمهمتهم فى الجهـــاد •

والواقع أن ثورة قرطبة لم تكن مجرد حادث عادى أو حركة شعبية وانما كانت أول ثورة مسلحة علنية يقوم بها أهل الاندلس ضد المرابطين فلم تكن أساليب المرابطين فى الحكم سهلة تتسم بالرفق واللين ، وانمـــا كانت تتميز بالخشونة والعنف والتسلط ، كما أن المرابطين لم يوفقوا منذ أن امتد سلطانهم على الاندلس فى أعقاب الزلاقة فى أن يقيموا فى الاندلس حكما مدنيا ، فظل أهل الاندلس فى أيامهم يعانون تسلطهم البـــربرى الغاشم وغلظتهم فكانت حاميات المرابطين تعامل المدنيين من الاهـــالى بجفاء وغلظة الامر الذى أثار نقمة هؤلاء المدنيين وحقدهم عليهم ، ولم تكن قد غابت عن أذهانهم بعـــد ذكرى الفتنة البربرية الغاشـــمة التى طحنت الاندلس طحنا فى أعقاب سقوط الخلافة الاموية بقرطبة ، ولهذا

---

(١٥٦) ابن الاثير ، ع الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، المغرب والاندلس ، ص ٨٤ ، محمد عبد الهادى شعيرة ، المرابطون ، ص ١٥٠ ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٤ •

فقد حملوا فى نفوسهم البغضاء للسادة الجدد ، الذين عبروا الى الاندلس للذب عن الاسلام ، ثم انتهى بهم الامر الى السيطرة على الاندلس والاطاحة بملوك الاندلس ، وبالاضافة الى هذه العوامل كان تزمت المرابطين الدينى ، وحجرهم على الافكار والعقائد من العوامل المساعدة على تأجج روح التذمر لدى أولى العلم والمفكرين • وقد أجمل دوزى الاسباب التى ساعدت على قيام الثورة بقرطبة بضعف الحكومة فى الاندلس وفسادها وغلظ وجفوة أجناد الحامية المرابطية وسوء معاملتهم لاهل البلاد وانتشار اللصوص وقطاع الطرق فى القرى والمدن ، وسوء الاحوال الاقتصادية بوجه عام نتيجة لكساد التجارة ، وكثرة الحملات العسكرية ضد النصارى ومساهمة أهل الاندلس فى الانفاق عليها(١٥٧) •

ولم تكن هذه الثورة خاتمة الثورات على حكم المرابطين فى قرطبة ، فقد تبعتها ثورة أخرى قبل مضى عشرين سنة على الثورة القرطبية الاولى ففى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) ثار العامة بقرطبة بسبب ضعف قاضيها أبى الوليد بن رشد لموالاته للمرابطين وخضوعه فى كثير من الاحيان لمشيئة أميرهم ، وليلهم الى الفقيه أبى جعفر أحمد بن حمدين الذى كان يسعى سعيا حثيثا نحو الاستقلال بقرطبة مع أنه كان المحرك الرئيسى قبل ذلك بما يزيد على ثلاثين سنة لاحراق نسخ كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالى(١٥٨) ومن المعروف أنه هو نفسه الذى تزعم الثورة على المرابطين فى قرطبة سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ونودى به أميرا عليها وتلقب بالقاضى الخليفة(١٥٩) ، كما تسمى بأمير المسلمين وناصر الدين المنصور بالله •

---

(١٥٧)

Dozy, Histoir de Musulmans d, Espane, vol, 111 P. 165, 166.

(١٥٨) سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٦ •

(١٥٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء الثانى ، ص ٢٥١ •

وهكذا استغل ابن حمدين مشاعر أهل قرطبة العدائية ضد المرابطين لمصلحته الخاصة ، ولكنه لم يظهر عداءه سافرا للمرابطين قبل سنة ٥٣٩ هـ وآثر أن يظهر فى صورة الرجـل العاقل الذى يعمل على تسـكين ثائرة الاهالى ، عن طريق نقل رغباتهم الى أبى عمر المتونى والى قرطبة الذى اضطر الى استجابة طلبهم فى اعفاء ابن رشد من منصبه القضائى ولكنه فى مقابل ذلك عمل على تعطيل الاحكام بها ما يزيد على عام تأديبا لهم ، ثم اذن لهم فى النهاية فى اختيار قاض لهم ؛ فأجمعوا على اختيار الفقيه ابن حمدين سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م)(١٦٠) ٠

(١٦٠) سالم ، نفسه ، ص ١٤٥ ٠

الفصل الثانى

العــلاقات الخارجيــة

أ) العلاقات بين دولة المرابطين وبين الممالك المسيحية فى الاندلس .

أولا : مع مملكة قشتالة .

ثانيا : مع مملكة أرغــون .

ثالثا : مع مملكة البرتغــال .

رابعا : مع قطالونيــة .

ب) العلاقات بين دولة المرابطين وبين الصنهاجيين فى المغربين الادنى والاوســط .

أولا : مع بنى زيرى فى المغرب الادنى .

ثانيا : مع بنى حماد فى المغرب الاوسط .

جـ) العلاقات بين دولة المرابطين وبين الخلافة العباسية فى بغداد .

أ) العــلاقات بين دولة المرابطين وبين الممــالك المسيحية فى الاندلس

(١)

مـــع مملكـــة قشـــتالة

أ) وقعـــة أقليش :

خص على بن يوسف الاندلسى باهتمامه الشخصى ، واعتبرها أرض جهاد ذلك أن موقعة الزلاقة التى خاضها أبوه من قبل ضد النصرانية فى أسبانيا لم تضع حدا لحركة الاسترداد الاسبانى بل على الضد من ذلك كانت عاملا رئيسيا فى افاقة دول النصرانية وتوحدها للعمل يدا واحدة ضد المرابطين ، ومن المؤسف أن تجد هذه القوى النصرانية داخل أسبانيا الاسلامية من المعاهدة من كان يزودها بالمعلومات الضرورية كما حدث فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) عندما استثار المعاهدة الغرناطيون الفونســـو المحارب ملك أرغون لغزو بلاد المسلمين فى غزوة مدمرة مخربة اخترقت فيها قواته دولة الاسلام فى الاندلس حتى وصل الى غرناطة ، وكان ذلك من عـــوامل تغريب أهل الذمة واجـــلائهم عن أوطانهم[١] . والواقع أن الصراع الاسلامى المسيحى فى الاندلس بلغ ذروته فى عهد على بن يوسف، وتحول الى حروب ضارية اقتضت من المرابطين التصدى لقوى النصرانية وحشد جميع قواتهم لايقاف المد النصرانى الامر الذى ترتب عليه اضعاف قواهم فى المغرب وسهل على الموحـــدين مهمتهم فى الاجهاز عـــلى دولة المرابطين المجاهدة . ومن الجدير بالذكر أن عليا بن يوسف كان شخصية مستنيرة تقدر الابعاد الحقيقية لنوايا النصرانية الاسبانية ، وقد أهله لذلك نشأته الاندلسية وتأثره العميق بحضارة الاسلام فى الاندلس[٢] .

---

(١) راجع التفاصيل فى ســالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ .

(٢) كانت أمة نصرانية من سبايا النصارى ، وقد ولد فى سبته وقضى فترة كبيرة من حياته فى قرطبة الى أن توفى أبوه فاستدعى الى مراكش حيث بويع بامارة المســلمين .

راجع ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ .

وهكذا كانت الاندلس مركز اهتمامه وشاغله الشاغل فلم يكد يفرغ من حركة ابن أخية الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين فى فاس، حتى عزم على الجواز الى الاندلس لتفقد أحوالها وتنظيم شئونها فأعد لذلك عدته وحشد حشودا ضخمة من المرابطين ومصمودة ، ثم عبر بهم البحر من سبته الى الجزيرة الخضراء فى منتصف عام ٥٠٠ هـ (أوائل ١١٠٧ م)(٣) حيث بادر اليه زعماء الاندلس ورؤساؤها ، وقضاتها ، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراءوها ، فقدموا اليه بيعتهم وطاعتهم ، وأنشده الشعراء قصائدهم ، وقد استغل الامير فرصة وجوده فى الجزيرة الخضراء للنظر فى شئون الاندلس والوقوف على أحوالها وتحقيق مطالب أهلها وقضاء حاجاتهم وتلبية رغباتهم(٤) ، ويتمثل ذلك فى التغييرات الادارية التى أجراها آنذاك وأهمها قيامه بعزل أخيه أبى الطاهر تميم عن ولاية المغرب ، واسناده أمر غرناطة اليه ، كما قلده القيادة العليا لجيوش المرابطين فى الاندلس ، كذلك أسند الى أبى عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى ولاية قرطبة(٥) . وما أن تم للامير على كل ذلك حتى عاد الى سبته ومنها الى مراكش(٦) .

---

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٥٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٢ ، ويثى ميراندا ، عى بن يوسف وأعماله فى الاندس ، مجة تطوان ، العددان ٣ – ٤ ، ٥٨ – ١٩٥٩م ، ص ١٥٦ .

(٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

Codera, Decadencia y De saparioin. , P. 8.

Terrasso, Histoiro du Maroc, vol. , 2, P. 243

(٦) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٧ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٩ .

وفى اعتقادى أن الامير على لم يكن يستهدف من وراء رحلته الى الجزيرة الخضراء فى مستهل امارته ، مجرد تنظيم أمور الاندلس وتفقد أحوالها والحصول على البيعة لنفسه فحسب ، وانما استهدف بوجه خاص الوقوف على أحوال المسلمين والاطلاع على التقارير الواردة من القادة والولاة عن التفاصيل العسكرية سواء ما يتعلق بقوى المسلمين أو ما له علاقة بقوى النصرانية تمهيدا لتدبير الاجراءات التى تكفل للمرابطين التفوق العسكرى ومن تدعيم قواتهم وتعزيزها لمواجهة الدفع المسيحى فى أملاك المسلمين ، ولعل فى تقليد الامير تميم بن يوسف بن تاشفين القيادة العليا للجيوش المرابطية فى الاندلس ينهض فى حد ذاته دليلا على هذا الرأى ويعبر فى نفس الوقت عن صدق نوايا على بن يوسف فى مواصلة الجهاد فى أرض الاندلس .

وكانت أحوال الممالك المسيحية فى أسبانيا آنذاك قد تغيرت كثيرا خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، كما أن ظروفها كانت متفاوتة تفاوتا واضحا من حيث القوة الحربية ، ففى ليون وقشتالة كان آخر العهد بألفونسو السادس ، اذ قدر له أن يموت فى العام التالى وخلفته ابنته دونيا أراكه Urraca وبوفاته ضعفت الجبهة القشتالية نوعا ما ، وكان يتولى كونتية البرتغال الفتية الاميرة دونيا تيريزا أبنة هنرى دى بورجونى الذى كان يشكل أعظم خطر على الاندلس من جانب الغرب ، أما الشمال الشرقى فكان يتولى أمرها ملكان قويا الجانب مرهوبان لدى رعيتهما طالما ضيقا على المسلمين فى الاندلس هما الفونشو المحارب ملك أرغون ، ورامون بيرنجير الثالث صاحب قطلونية[٧] ، وقد

---

(٧)
Codera, Deeadeneia. , P. 7.
مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلس فى عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ م ، ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ .

تميز كلاهما بتدينه العميق وعدائه السافر للاسلام فى الاندلس ورغبتـه الشديدة فى الاجهاز عليـه .

فى أوائل عام ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) أصدر على بن يوسف أمره الى أخيه أبى الطاهر تميم بأن يستأنف الجهاد ، فيبادر بغزو أراضى قشتالة ، ولم يتم صدور هذا الامر عفويا ، فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه ، ذلك أنه لما مرض أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين فى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ، وشاع أمر مرضه فى الاندلس ، ظن الفونسو السادس ملك قشـتالة ، أن الفرصة مواتية لاستئناف غزواته فى أراضى المسلمين واقتطاع قسم من أملاكهم فأعد حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، توغلت فى أحواز اشبيلية ، وعاثت فيها ، فخرج الامير سير بن أبى بكر اللمتونى والى اشـبيلية لردهم ، ولحقت به عساكر غرناطـة بقيادة عبد الله بن الحاج ، وقد تمكنت قوات اشبيلية وغرناطة من مطاردة القشتاليين وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة مقاتل(٨) . ولما ارتقى على بن يوسف دست الامارة فى أعقاب هذه الغزوة عمد بادىء ذى بدء الى التعرف على أحوال النصارى عن طريق التقارير التى قدمت اليه أثناء زيارته المفاجئة للجزيرة الخضراء حيث وقف على تفاصيل الموقف العسكرى فى اسبانيا ، وقرر أن يبادرهم بالغزو ويهاجمهم فى عقر دارهم .

وتنفيذا لاوامـر على بن يوسف خرج أبو الطاهر تميم من مدينـة غرناطـة فى العشر الاخيـرة من رمضـان سنة ٥٠١ هـ (أوائل مـايو ١١٠٨ م)(٩) وكان يحدوه الامل فى التغلب على قوات النصارى واثبات

---

(٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٦٠ .

(٩) ميراندا ، وقعة اقليش ، ومصرع الامير دون شانجة ، مجلة تطوان ، =

تدرته وكفائته ، ويشير أشباخ أنه كان يضطرم رغبة فى أن يدلل فى الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش المرابطى من أخيه لو شاء أبوه(١٠) • وبهذه الروح والمشاعر تقدم تميم فى قواته الى مدينة جيان ، حيث أقام أياما أنتظارا للحشود الوافدة من قرطبة ، فلما وافته قوات قرطبة بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن أبى رنق ، زحف من جيان الى بياسة ، ومنها اتجه شمالا صوب أراضى قشتالة ، وأنضمت اليه فى الطريق قوة مرابطية وفدت من مرسية يقودها واليها أبو عبد الله محمد بن عائشة(١١) كما وافته حشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة(١٢)،ثم

= العدد الثانى ، ١٩٥٧ م ، ص ١٢٥ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٦١ •

(١٠) أشباخ ، تاريخ الاندلس فى عصرة المرابطين والموحدين ، ص ١١٧ •

(١١) هو الامير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ويعرف بابن عائشة ، وكان من كبار قواد المرابطين : عينه أبوه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائدا على شرق الاندلس بعد أن عاث السيد القبيطور فيه فسادا ، فولى عمل مرسيه واضطلع باقرار الاحوال فى تلك المنطقة الشرقية • وفى عهد أخيه أمير المسلمين على قام ابن عائشة بعمليات حربية واسعة النطاق ، فشارك فى وقعة اقليش Ucles ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م كما أسرع من مرسيه لنجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة حينما حاصره الفونسو المحارب ملك أراجون سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) وقد انتهت هذه العملية بفك هذا الحصار وعودة ملك أرغون الى بلاده • كذلك اشترك ابن عائشة مع ابن الحاج فى عزو برشلونة سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وهى الحملة التى انتهت بهزيمة البورت وقد نجا منها ابن عائشة الا أن بصره اعتل بعدها ثم لم يلبث أن عمى فاستدعاه أخوه أمير المسلمين على ، وعين بدلا منه على مرسية أخاه ابراهيم بن يوسف• راجع (ابن القطان : نظم الجمان ، ص ٨ ، حاشية (١) نشر الدكتور محمود على مكى ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ ، حاشية ٤ نشر الدكتور أحمد مختار العبادى) •

(١٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة وحيانا يسمى أبو عبد الله محمد بن فاطمة وهو أحد مشاهير القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على• اشترك مع القائد مزدلى بن سلنكان فى استنفاذ بلنسية من أيدى =

واصلت قوات المرابطين تقدمها فى أراضى قشتالة ، الى أن اعترضتهم قلعة اقليج (أقليش) الحصينة[13] الواقعة شرقى طليطلة على طريق

المسيحيين سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، ثم اشترك بعد ذلك مع أبى الحسن على بن الحاج قائد جيوش المرابطين فى منطقة شرق الاندلس فى مهاجمة جيوش ملك قشتالة الفونسو السادس حينما حاول هذا الاخير حصار مدينة سالم Medinaceli ، فقام القائدان معا بغزو طليطلة وطلبيرة سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) ولقد استشهد فى هذه الغزوة القائد أبو الحسن على بن الحاج فعهد يوسف بن تاشفين الى ابن فاطمة بأن يخلف ابن الحاج فى منصبه العسكرى ، ثم لم يلبث أن ولاه فى نفس السنة على بلنسية بدلا من الامير مزدلى الذى نقل الى تلمسان . وعندما تولى أمير المسلمين على بن يوسف الحكم بعد وفاة بيه سنة ٥٠٠ هـ ، أقر ابن فاطمة على منصبه . وفى رمضان سنة ٥٠١ هـ (مايو ١١٠٨ م) اشترك ابن فاطمة بصفته عاملا على بلنسية مع القائد ابن عائشة عامل مرسية فى هذه الغزوة التى قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة ، وهى المعروفة بوقعة اقليش التى هزم فيها المسيحيون وقتل قوادهم السبعة بما فيهم الامير شانجة Sancho الابن الوحيد لملك قشتالة الفونسو السادس واستمر ابن فاطمة واليا على بلنسية الى سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) التى عين فيها عاملا على غرناطة ، الا أنه لم يبق فى هذه الولاية أكثر منسنة ، عين بعدها عاملا على مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) وبعد عدة سنوات عاد ابن فاطمة الى الاندلس كعامل على اشبيلية بعد عزل واليها يحيى بن سير بن أبى بكر سنة ٥٠٩ هـ ١١١٥ م) ويظل على حكم هذه المدينة الى أن مات فى رمضان سنة ٥١١ هـ (يناير ١١١٨ م) .

راجع (ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨ حاشية ٢ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٢ حاشية ٢) .

(١٣) اقليش مدينة حصينة محدثة هى قاعدة كورة شنتبرية تقع شرقى طليطلة ، وقد بناها الفتح بن موسى بن ذى النون وفيها كانت ثورته فى سنة ١٦٠ هـ ، وكانت قاعدة ومعقلا لبنى ذى النون قبل انتقالهم الى طليطلة ، ولما سقطت طليطلة فى ايدى القشتاليين سنة ٤٧٨ هـ وانتهى حكم بنى ذى النون . استولى القشتاليون على أقليش التى أصبحت من أمنع معاقل القشتاليين .

عن أقليش انظر : الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٨ ، Codera pp. 10 - 12 ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٩٥٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦١ ، شعيرة ، المرابطون تاريخهم السياسى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٩ .

المسلمين الى بلنسية وسرقسطة[14] ، وكان وصول قوات تميم يوم الاربعاء الرابع عشر من شوال سنة ٥٠١ هـ (مايو ١١٠٨ م) ، فبادرت على الفور باحكام الحصار حولها ثم شنت هجوما واسع النطاق عليها فى اليوم التالى ، وتمكنت من اقتحامها ، ولم تتمكن حاميتها النصرانية الثبات طويلا أمام شدة هجمات المرابطين ، فتحصنوا بقصبة الحصن ، فبلغ خبرهم الى الفونسو السادس فاستعد للخروج الى اغاثة بلده ، وسارع المرابطون بعد دخولهم المدينة بهدم صروحها وانضم اليهم جماعة المسلمين أهل اقليش ، فأفضوا اليهم بأحوال المدينة وأسرار دفاعاتها وأسوارها وحصونها[15] .

وفى هذه الاثناء كان الفونسو السادس يتأهب لاستنقاذ اقليش ، فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده شانجه[16] عوضا عنه قائدا للجيش القشتالى ، على الرغم من كونه يومئذ صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، لرفع الروح المعنوية فى عسكر قشتالة لاسيما أن الجيش الاسلامى كان يقوده الامير تميم ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فكان ضروريا أن يتقدم الجيش القشتالى الامير شانجة ابن الفونسو السادس ملك قشتالة[17] ، فاستجاب الملك لرأيها وسير ولده شانجة فى جيوش كثيفة

---

(١٤) مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١٠٨ .

(١٥) من رسالة الامير تميم الى أخيه على بن يوسف عن معركة اقليش ، وقد أوردها ميراندا فى مقاله عن وقعة اقليش ، ص ١٢٧ .

(١٦) عن شانجة راجع مقال ليفى بروفنسال فى الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥١ – ١٦٤ .

(١٧) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٧ ، مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١٠٨ ، وفى مغزى ارسال الامير شانجة بن الفونسو السادس على رأس قوات قشتالة لنجدة حصن اقليج يقول ابن أبى زرع « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضا منه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وشانجه ابن ملك الروم » . أنظر ابن بى زرع ، ص ١١١ .

من زعماء قشتالة وأنجادهم ، يتراوح عدده طبقا للروايات الاسـلامية فيما بين سبعة آلاف فارس[18] وعشرة آلاف فارس[19] ، فيهم بعض كبار القادة والكونتات نذكر منهم البرهانس[20] ، والقومس غرسـية أردونيث مؤدب شانجة ولى العهد ، ومعهما قائد قلعة النسور ، وقـائد قلعة عبد السلام ، وغيرهم من كبار القادة القشتاليين • ثم وردت أنباء تقدم الجيش القشتالى نحو اقليش الى معسكر المسلمين ، فأخبـر به تميم ، وفكر فى رفع الحصار عن الحصن حتى لا يعرض قواته لمعركة قد تنتهى بالهزيمة سيما وقد بولغ فى تقدير كثافة جيش القشتاليين ، فأشار اليه قائداه عبد الله بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهما من قواد لمتونة بالمقام ومواصلة الحصار وشجعوه على الصمود وهونوا عليه أمرهم ، ويذكر صاحب روض القرطاس أنهم قالوا له : « لا تخف فانما قدموا فى ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة »[21] • وبينما يؤكد صاحب روض القرطاس أن تميم عندما تبين عظم عسكر القشتالين أراد الفرار وأحجم عن قتالهم ، فلم يجد سبيلا للفرار ولا للردع مخلصا ، وأنه اضطر الى خوض المعركة عندما صمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته ، جاء فى رسالة تميم الى أخيه على أن فتى مسلما من بين قوات قشتالة كانوا قد أسروه فى احدى المعارك ، فر من المعسكر القشتالى ، وأفضى الى الامير

---

(١٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٩ •

(١٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ •

(٢٠) هو القائد الاسبانى المعروف Alvar Hanez ابن أخى السـيد القنبيطور وكان من كبار قواد الملك الفونسو السادس ملك قشتالة وليون • راجع (ابن القطـان ، نظم الجمـان ، حاشية ٢ ، ص ٦ ، ص ٧ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ،حاشية ٣ ، ص ٨٦) •

(٢١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ •

تميم بتفاصيل دقيقة عن القشتاليين ونقاط الضعف والقوة فيهم وأن تميم نتيجة لذلك صمم على خوض المعركة(٢٢) .

وأيا ما كان الامر فقد اشتبك العسكران فجر يوم الجمعة السادس عشر من شوال سنة ٥٠١ هـ (٢٩ مايو ١١٠٨ م) ، وكان تنظيم الجيش الاسلامى على النحو التالى : أهل قرطبة بقيادة ابن أبى الرنق فى المقدمة، وأهل شرق الاندلس فى الجناحين ، وأهل غرناطة بقيادة تميم فى القلب(٢٣) . . تلقت قوات قرطبة الصدمة الاولى ، فتراجع قائدهم ابن أبى الرنق ، وعلى أثر ذلك بادرت قوات مرسية وبلنسية بالهجوم كما تقدم تميم فى قواته الى قلب المعركة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ذكر صاحب روض القرطاس أنه لم يسمع بمثلها ، انتهت بهزيمة الجيش القشتالى ومصرع الامير شانجة(٢٤) ، وقتل فى المعركة من القشتاليين وفقا لرواية صاحب روض القرطاس ثلاثة وعشرون ألفا ونيف(٢٥) .

ولدينا روايتان حول مقتل الامير شانجة الاولى رواية ابن القطان يؤكد فيها أن شانجة أفلت من قلب المعركة فى ثمانية من النصارى منهم غرسية أردونيث ، ولجأ معهم الى حصن باشون وكان فيه رغبة لهم من المسلمين ، فاختبأ عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلوهم وقتل معهم شانجة ابن الفونسو السادس(٢٦) . أما الرواية

---

(٢٢) رسالة الامير تميم الى أخيه على بن يوسف ، أنظر ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٢٨ .

(٢٣) ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٢٣ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٤ .

(٢٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ ، ص ٨ .

(٢٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

(٢٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، وأنظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٥ .

الثانية فتعتمد على الروايات النصرانية ، وتؤكد أن شانجة عندما أشتد القتال ازدلف الى قلب المعركة الى جانب مؤدبه القمط أردونش ، فلمحه بعض الجند المسلمين ، فأحاطوا به بغية قتله ، فبــادر القمط أردونش بالدفاع عنه ، فلم يغن دفاعه شيئا فقد أصيب شنجة بطعنة قاتلة ، فسقط من فوق جواده ، ثم تلقى أردنش طعنة فسقط الى جانبه قتيــلا(٢٧) . كذلك قتل فى هذه الوقعة وفقا للروايات النصرانية عدد كبير من النصارى أبرزهم سبعة أقماط (كونتات) عرفت بهم الموقعة فسميت أيضا بوقعة الاقماط السبعة(٢٨) . وتقدر الرواية الاسلامية خسائر القشتاليين بثلاث وعشرين ألف قتيل(٢٩) ، وتقاربها الرواية النصرانية فتقدر هذه الخسائر بعشرين ألفا(٣٠) . وأعتقد أن هذا الرقم لا يمثل العدد الحقيقى لخسائر الجانب القشتالى استنادا الى رسالة تميم الى أخيه على بن يوسف ، وفيها يحدد عدد قتلى النصــارى بنيف وثلاثة آلاف رجل(٣١) . أما عن خسائر المسلمين فى اقليش فغير معروفة على وجه الدقة الا أننا نستنتج أنها كانت فادحــة استناداً الى ما أورده صاحب روض القرطاس الذى يقول : « واستشهد فيها (اقليج) جماعة من المسلمين رحمهم الله »(٣٢)،

---

(٢٧) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٨ .

(٢٨)
Codera, Decadencia. , PP, 8-9; Terrasse, Histoire.,du Maroc vol. , 11, P. 243.

(٢٩) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

(٣٠)
Lafuente (M) : Historia genral de Espana,
Lafuen to, (M) : His toria gemeral do Espana, vol , 111 . , P. 249.
أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٥ .

(٣١) رسالة الامير تميم الى أخيه على بن يوسف ، أنظر ويثى ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٣٠ .

(٣٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١١ .

ولعل ذلك كان سببا حمل تميم على أن يحجم عن مطاردة فلول الجيش القشتالى والتوغل فى أراضى النصارى .

غادر الامير أبو الطاهر تميم اقليش الى غرناطة ، وكتب الى أخيه على بن يوسف بتفاصيل انتصاره وترك لابن عائشة وابن فاطمة مهمـة مواصلة حصار قلعة اقليش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعتها تظاهر بالانسحاب ، وتراجعـا فى قواتهما قليلا ورتبـا الكمائن ، فظن القشتاليون أن المرابطين قد يئسوا من الحصار ، فخرجوا من القلعـة مطمئنين ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا ، وتمكنوا من الاستيلاء على القلعـة(٣٣) .

وعلى الرغم من أن اقليش لا تصل فى حجمها الى حجم الزلاقة الا أنه ترتب عليها ثلاث نتائج هامة نجملها فيما يلى :

١ — أنها دعمت سلطان المرابطـين على الاندلس بعد أن تعرض للاهتزاز منذ أواخر عصر يوسف بن تاشفين .

٢ — أنها أوقفت حركة الاسترداد المسيحى لفترة قصيرة لاسيما أن نتيجة المعركة لصالح المسلمين ومصرع الامـير شانجة كانا سببا فى وفاة الفونسو السادس بعدها بنحو عام (٢٩ شوال ٥٠٢ هـ / ٣ يونيـو ١١٠٩ م) ، ويذكر صاحب روض القرطاس أنه « اغتم لقتل ولده ودخول باده وهلاك عسكره فمرض بالفقعة ومات لعشرين يوما من الكائنة(٣٤) .

---

(٣٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، ميراندا ، وقعة اقليش ، ص ١٢٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٦ .
(٣٤) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

٣ — ترتب على هزيمة القشتاليين فى اقليش سقوط كثير من الحصون والقلاع القشتالية فى أيدى المرابطين وأهم هذه الحصون والمدن مدينتا قونكة وويذه فى نفس السنة ، كما تمكن المرابطون فى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) على أثر جواز على بن يوسف الى الاندلس من تخريب منطقة طليطلة ، والاستيلاء على مدينتى مجريط ووادى الحجارة(٣٥) .

ب) استرجاع مجريط ووادى الحجارة سنة ٥٠٣ هـ :

كانت حملة اقليش فاتحة لسلسلة من الحملات وجهها المرابطون لغزو أراضى قشتالة ، فلم يكد يمضى عام وشهرين على موقعة اقليش ، حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف الزقاق من سبته الى الاندلس برسم الجهاد فى الخامس عشر من المحرم سنة ٥٠٣ هـ (أغسطس ١١٠٩ م)(٣٦) ، فى جيوش كثيفة تزيد على مائة ألف فارس(٣٧) ، واتجه أمير المسلمين الى غرناطة قاعدة الحكم المرابطى فى الاندلس ، فمكث بها أياما ريثما تلاحقت حشوده ومتطوعته وجنوده من مختلف أنحاء الاندلس(٣٨) ، فلما تكاملت حشوده تقدم الى قرطبة ، فأقام بها بضعة أيام(٣٩) وقيل شهرا(٤٠) ، يضع خططه ويستكمل تعبئة قواته ، ثم غادرها

---

(٣٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٢ .

(٣٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ ، ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ ، ابن الكردبوس الاكتفاء ، ص ١١٦ ، ويذكر ويثى ميراندا أن خروج على بن يوسف من مراكش كان فى النصف الثانى من سنة ٥٠٢ هـ ، أنظر ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، مجلة تطوان ، العددان ٤٠٣ ، ١٩٥٩/٥٨ ، ص ١٥٨ .

(٣٧) ابن أبى زرع ، نفسه .

(٣٨) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣٩) ابن عذارى ، نفسه .

(٤٠) ابن أبى زرع ، نفسه .

الى طلبيرة[41] الواقعة على نهر التاجة غربى طليطلة ، لتضييق الحصار على طليطلة من الغرب[42] قضى المسلمون الليل فى مراقبة أسوار المدينة، وفى الصباح دارت معركة عنيفة بين المرابطين والقشتاليين وقد دافع القشتاليون عن مدينتهم دفاعا مستميتا ، وقد حاول المسلمون الوصول الى أسوارها ، غير أن مجرى وادى تاجه المحيط بأسوارها ويشكل خندقا طبيعيا يحميها حال دون وصول المسلمين الى الاسوار ومع طول الحصار وتعدد الاشتباكات تمكن المسلمون من اقتحام المدينة عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصارى واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، ولجأت جماعة من النصارى الى قصبة المدينة ، ثم تسربوا منها ليلا ، فألقوا بأنفسهم فى النهر ناجين بأنفسهم[43] ، فاستولى المسلمون على القصبة ، وانتهبوا سائر ما فى المدينة من الثياب والماشية والسلاح، وعلى أثر ذلك بادر على بن يوسف بتطهير المسجد الجامع بطلبيرة ، وندب للمدينة واليا من قبله ، وترك عليها حامية مرابطية قوية[44] وما أن تم لعلى بن يوسف انجاز هذه الاعمال حتى زحف نحو مدينة طليطلة ، فعسكر بجوارها ثلاثة أيام[45] وقيل شهرا[46] ، ثم اقتحمت قواته منيتها

---

(41) طلبيرة مدينة حصينة تقع على نهر تاجة وقد وصفها الحميرى بقوله : « وهى مدينة كبيرة وقلعتها أرفع القلاح حصنا ومدينتها أشرف البلاد حسنا ، وهو بلد واسع الساحة ، كثير المنافع ، به أسواق وديار حسنة ، وبينها وبين طليطلة سبعون ميلا » .
أنظر الحميرى ، ص ١٢٧ ، ص ١٢٨ .

(42) ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، ص ١٥٧ .

(43) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ ، ص ١٤ ، ميراندا ، على بن يوسف ، ص ١٥٨ .

(44) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

(45) ابن عذارى ، نفسه .

(46) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٢ .

الخضراء الواقعة على نهر التاجه فاستولوا على بعض القلاع والحصون الصغيرة المتناثرة ، ثم استولوا على مجريط ووادى الحجارة(٤٧) ، ومن الجدير بالذكر أن الحصار الذى أحكمه المرابطون على طليطلة أخفق لحصانتها ومنعتها وقوة الحامية القشتالية التيتولت الدفاع عنها وقدحمل ذلك الامير على على رفع الحصار ومغادرة أرض طليطلة الى قرطبة ومنها الى مراكش(٤٨) •

ج) حملة الامير مزدلى على طليطلة ووادى الحجارة عامى ٥٠٧ ، ٥٠٨هـ

واصل المرابطون توجيه حملاتهم سنويا ضـــد مملكة قشتالة ورغم أن هذه الحمـــلات لم تكن تكلل دائما بالنصر ، الا أن المرابطـــين كانوا يبـــلون فيها أحسن بلاء • ومن هـــذه الحملات ، الحملة التى قادهـــا الامير أبى محمد مزدلى(٤٩) فى عـــام ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) لغزو طليطلة

---

(٤٧) ابن أبى زرع ، نفســه ، ابن الكردبوس ، الاكتفــاء ، ص ١١٦ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦٨ •

(٤٨) ابن عذارى ، نفسه ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ ، ابن الكردبوس المصدر السابق ، ص ١١٦ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ١٨ •

(٤٩) هو الامير أبو محمد مزدلى بن سلنكان أو نيلكان ترجوت ابن عم يوسف بن تاشفين وأحد كبار قواده • وقد جرت العادة أن يلقب أفراد الاسرة الحاكمة على أيام المرابطين بالامراء ، وقد ظهر اسم مزدلى أول الامر بالمغرب عندما استولى على اقليم ملوية فى صفر سنة ٤٦٥ هـ (أكتوبر سنة ١٠٧٣ م) ثم تلمسان فى المحرم سنة ٤٦٨ هـ (أغسطس ١٠٧٥ م) أما فى الاندلس فهو الذى استرجع للاسلام مدينة بلنســية فى رجب سنة ٤٩٥ هـ (أغســطس ١١٠٢ م) من أيدى جنود السيد القنبيطور بعد وفاته • وقد تقلب مزدلى بعد ذلك فى مختلف منـاصب القيادة والولاية فى الاندلس مثـل ولايات غرنـاطـة وقرطبة والمرية سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ ــ ١١١٢ م) ، كذلك قاد حملات عديدة ضد المسيحيين الاسبان مثل حملته على برشلونة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، وحملته على طليطلة سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) التى استولى فيها على بعض حصونها وضرب نواحيها • غير أن الامير مـزدلى لم يلبث أن استشهد فــى السنة التــالية فى معركة أخـرى مع القشتاليين بالقرب من حصن مستنا =

ووادى الحجارة ، وكان على بن يوسف قد أسند الى مزدلى ولاية قرطبة وغرناطة والمرية خلفا لاخيه أبى الطاهر تميم الذى أسندت اليه ولاية مدينة تلمسان بالمغرب(٥٠) . فخرج مزدلى من مراكش الى مقر ولايته بالاندلس فوصل الى مدينة اشبيلية ، حيث أمده الامير سير بن أبى بكر والى المدينة بعسكر ضخم من أجناد المرابطين والحشم وغيرهم ، كما انضم اليه عسكر آخر قادم من قرطبة وآخر من غرناطة فضلا عن كثير من المتطوعة(٥١) ، فاتجه مزدلى بحشوده صوب أراضى قشتالة وأخذ يشن الغارات فى أراضيها ، وتمكن من افتتاح حصن أرجنة أو أرلبة oreja وقتل حاميته وسبى الكثير من النساء والاطفال(٥٢) ، ثم قصد المسلمون الى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة ، وأحكموا حولها الحصار ، فلما ترامت أنباء الغزوة المرابطية الى البارهانس Alvar Hzone القائد القشتالى الكبير ، أسرع فى عشرة آلاف فارس لمدافعة المرابطين فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة تحت أسوار طليطلة ، ولكنه لم يستطع أن يصمد طويلا أمام المرابطين ، فاضطر الى الفرار ليلا بعد أن فقد نحو سبعمائة فارس من فرسانه وان كان قد وفق فى حمل المرابطين على رفع الحصار عن طليطلة ، ثم عاد مزدلى ظافرا الى قرطبة(٥٣) . ثم قام مزدلى بحملة حربية جديدة فى منطقة

= Mastana بنواحى طليطلة سنة ٥٠٨ هـ (فبراير ١١١٥ م) وقد خلفه ولداه عبد الله ومحمد على حكم غرناطة وقرطبة .

راجع (ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ حاشية ٤) .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٦ ، ميراندا ، على بن يوسف ، ص ١٦٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧١ .

(٥١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٥٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٥٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٨ ؛ ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧١ .

وادى الحجارة ، عندما بلغه أن ابن الزند غرسيس حسب تسمية ابن أبى زرع هو الكونت رودريجو نوينيث Rodrigo Nunez صاحب وادى الحجارة قام بحصار مدينة سالم ، فاتجه مزدلى اليه ، فلما علم ابن الزند غرسيس بتحرك مزدلى صوبه ، ولى هاربا ، فاستولى مزدلى على محلته وأمتعته(٥٤) • وفى العام التالى ٥٠٨ هـ (١١١٥ م) توفى الامير مزدلى أثناء غزوة قام بها ضد القشتاليين(٥٥) • وبذلك انتهت قصد حياة قائدان من أعظم قادة المرابطين وكان الامير سير بن أبى بكر والى اشبيلية وأحد قادة المرابطين العظام قد توفى هو الآخر قبل ذلك بعهد قصير فى جمادى الاولى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) ، ويكفى الاول فخرا وهو الامير مزدلى أنه استرجع مدينة بلنسية فى عام ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) من أيدى قوات السيد الكنبيطور ، وأما الثانى فقد أظهر براعته العسكرية فى وقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) كما استرد قواعد الغرب الكبرى من أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٠٤ هـ (١١١١ م) • وقد خلف مزدلى فى ولاية قرطبة ولده محمد وولده عبد الله فى ولاية غرناطة ، أما محمد فقد استشهد فى معركة مع القوات القشتالية حدثت بالقرب من قرطبة بعد ثلاثة أشهر من توليه امارة قرطبة •

وتفصيل ذلك أن الامير محمد بن مزدلى والى قرطبة خرج فى طليعة عام ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) فى عسكره لرد قوات قشتالة التى أغارت على أحواز قرطبة واشتبكت قواته معها فى قتال عنيف انتهى بمصرع محمد بن مزدلى الذى سقط شهيدا فى ميدان المعركة واستشهد معه فيها

---

(٥٤) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة •

(٥٥) ابن أبى زرع ، نفسه •

شخصيات مرابطة بارزة نذكر من بينها الامير أبا اسحق ابن دانيــة ، والأمير أبا بكر بن واسينو[٥٦] • ولم يسكت الامير على بن يوسف على هذه الهزيمة ، فقد أزعجه نبأ الهزيمة النكراء التى منيت بها جيوشه كما أسف لاستشهاد قادته الكبار ، وكان عليه أن يتحرك سريعا فبادر بندب ابن عمه الامير أبى بكر يحيى بن تاشــفين لولاية قرطبة ، وعهد اليــه بمهاجمة قوات قشتالة ، وهكذا لم يكد يحيى يصل الى قرطبة ويستقر بها حتى شرع فى حشد قواته واعداد العدة للغزو ، ولما تحقق له ذلك خرج من قرطبة على رأس قوة كبيرة من عسكر المرابطين صوب مدينة بياسة وانضم اليه عبــد الله بن مزدلى والى غرناطة فى قواته ، وبالقــرب من بياسة تم الاشتباك بين المرابطين والقشتاليين يوم ٢٨ جمادى الثانية سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وانتهى هــذا الاشتباك بهزيمة أخــرى منى بهــا المرابطــون[٥٧] •

د) دور تاشفين بن على فى الصراع المرابطى القشتالى :

بادر الامير تاشفين بن على بن يوسف بالجواز الى الاندلس بمجرد أن صدر اليه أمر أبيه بتقلد قيادة الجيوش فى الاندلس عقب وفاة الامير تميم بن يوسف سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، فعبر الزقــاق فى قوة قوامها خمسة آلاف فارس ، ومنذ أن أسندت اليه قيادة جيوش المرابطين وهو يبدى نشاطا عسكريا ضــد مملكة قشتالة لم تشهده الاندلس فى عهــد سلفه ، ففى هذه السنة يذكر صاحب روض القرطاس أنه خرج غازيا الى

---

(٥٦) ابن عـذارى ، البيــان ، ج ٤ ، ص ٦١ ، ابن أبــى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٢ •

(٥٧) ابن عـذارى ، نفسه ، ميـراندا ، عـلى بن يوسف وأعماله فــى الاندلس ، ص ١٦٦ ، ص ١٦٧ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٧٢ •

أراضى طليطلة ، فعاث فى نواحيها ، واقتحم حصنين من حصونها ، ثم واصل سيره غربا فاشتبك مع القشتاليين فى موضع يعرف بفحص الضباب ، فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصنا من حصون هذه المنطقة وكتب الى أبيه بالفتح(٥٨) وفى عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) قام القشتاليون بغزوة واسعة النطاق فى بلاد الاندلس وتوغلوا حتى وصلوا الى حصن الكرس على مقربة من قلة رباح Calatrava فتصدى لهم تاشفين وتمكن من ردهم على أعقابهم(٥٩) • ولكن عندما سير تاشفين جيش اشبيلية سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) بقيادة واليها واجدى بن عمر بن سير اللمتونى لغزو طلبيرة ، فاكتسحها وعاد محملا بالغنائم ، فتبعه زهاء خمسين فارسا قشتاليا وقد حاول جنوده اقناعه بارسال بعضهم للتخلص من هؤلاء القشتاليين ، الا أنه استهان بهم ، فلحق به عدد آخر من القشتاليين فقيل له بددهم قبل تجمعهم ولكنه أعرض عن ذلك ، فتكامل للعدو زهاء ثلاثمائة فارس ، حملوا على الجيش المرابطى وألحقوا به الهزيمة ، وقتلوا وأسروا الكثير منه ، فلما علم الامير على بن يوسف بخبر هذه الواقعة ، ألزم واجدى بن عمر المسئول عن تلك الهزيمة ، بدفع فدية الاسرى ، وأمر بعزله عن ولاية اشبيلية وولى مكانه الامير أبا زكريا يحيى بن على ابن الحاج(٦٠) وفى عام ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، خرج الامير تاشفين فى شهر رمضان بجيش غرناطة ومطوعتها وانضم اليه عسكر قرطبة ، فاتجه بهذه القوات الى حصن السكة Azoca من عمل طليطلة وكان القشتاليون قد جعلوا هذا الحصن مركزا للاغارة على المسلمين ،

---

(٥٨) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ •

(٥٩) عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٣ •

(٦٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٣ •

ووضعوا على قيادته أحد كبار قادتهم ويعرف باسم تليو فرند Telio Firnande فحاصر تاشفين الحصن وتمكن من افتتاحه عنوة ، وقتل من كان به ، وأسر قائده فرند ومن كان برفقته من الفرسان ثم عاد تاشفين ظافرا الى غرناطة(٦١) . وفى نفس العام خرج القشتاليون فى غزوة صوب قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالامير تاشفين ، فبادر اليه بقواته ، فلما علم القشتاليون بمقدم تاشفين انسحبوا دون أن يشتبكوا معه فى قتال(٦٢) . وفى أوائل هذه السنة غزا ينتان بن على بن يوسف بن تاشفين والى بلنسية بعد محمد بن يوسف بن يدر أراضى قشتالة فتصدى له القشتاليون بقيادة القومس جاستون دى بيارن المعروف فى الرواية العربية باسم غشتون ولكن ينتان تمكن من التغلب على القشتالين وسقط قائدهم صريعا وسيق رأسه الى غرناطة وطيف بها على رمح ، ثم حملت الى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هنالك أيضا(٦٣) .

وفى ربيع الاول عام ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) ، بلغ تاشفين أن القشتاليين قد خرجوا من طليطلة فى حملة موجهة نحو قرطبة ، فاستنفر تاشفين جيوشه وبادر بالسير نحو قرطبة ، ثم انه نهض الى لقاء العدو فى قواته الخفيفة ، وترك أثقاله بحصن أرجونة . وكان القشتاليون قد اكتسحوا حصن شنت اشتبين Son Esteban الواقع بالقرب من مدينة جيان ، واستولوا عليه ، كما اجتاحوا الوادى الاحمر ، فبادر للقائهم

---

(٦١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٨٢ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٤٥١ .

(٦٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٦٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٨١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٤ .

وملاحقتهم الى أن أدركهم فى قرية براشة واشتبك معهم فى قتال عنيف انتهى بهزيمــة القشتاليين وأتى القتــل على آخرهم(٦٤) ، واستولى المسلمون على أمتعتهم وأسلحتهم ، وسار تاشفين بالاسرى والغنائم الى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة ، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها، وترك الاسرى لدى أهلها ليفتدوا بهم من أرادوا من أسراهم ، ثم عــاد ظافرا الى غرناطة(٦٥) .

وفى أواخر عام ٥٢٦ هـ ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة القومس ردريجو جونثالث Don, Rodrigo Gonzalez do Lara أغــار على أراضى اشبيلية من جهة حصن القليعة Alcalea وعــاثوا فيها ، ثم اتجهوا الى الشرف Aljarafe وهو السهل المحيط باشبيلية من جهتها الغربية ، وقتلوا من سكانه أعدادا كبيرة ، فخرج عمر بن الحاج اللمتونى والى اشبيلية على غير أهبة للقاء القشتاليين وعسكر على ضفة نهر الوادى الكبير ، ثم بعث بعض خيالته الى الضفة الاخرى ، فتمكنوا من أسر عدد من القشتاليين ، فأقبلوا بهم الى ابن الحاج ، فأصدر هذا أمره بضرب أعناقهم فى مشــهد من اخوانهــم فى الضفة الاخــرى ، فاستثار بذلك مشاعرهم ودفعهم الى عبور النهر لمقاتلة المسلمين ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، استشهد فيها عمر بن الحاج والى اشبيلية ومعظم عساكره، وعندئذ تحصن الاهالى داخل أســوار مدينتهم ، واستغل القشتاليون فرصة انتصارهم على عسكر المرابطين وعاثوا فسادا فى نواحى اشبيلية، فخرج تاشفين بقواته الى اشبيلية ومعه ابن قنونة والى قرطبة ، فلمــا

---

(٦٤) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .
(٦٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٤٥١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٤ ، ص ١٣٥ .

أدركهم فروا أمامه ، فأخذ يطاردهم وطهر وادى اشبيلية منهم ، واتفق أن التقى بقوة من النصارى كانوا قد أغاروا على بطليوس وباجة ويابرة، وأوقع بهم الهزيمة وظفر بغنائم هائلة(٦٦) ، وبينما هو فى طريق العودة اذ أقبلت طلائعه منذرة بقدوم القشتاليين ومعهم غنائم اشبيلية قد ملأت الارض لكثرتها ، فاشتبك معهم فى قتال عنيف انتهى بهزيمة العدو واستئصال شأفته(٦٧) .

وتروى مدونة الفونسو السابع أنه فى عام ١١٣٣ م (٥٢٧ هـ) سار الفونسو ريموندييس ملك قشتالة المعروف بالسليطين ومعه حليفه أبو جعفر أحمد سيف الدولة المستنصر بالله بن هود(٦٨) فى جيشين فى آن واحد لغزو أراضى المسلمين ، وعبر الجيشان جبال الشارات (سيرامورينا) واجتمعا بعد ١٥ يوما فى موضع يقع بالقرب من قرطبة ، وكان الفصل فصل الحصاد ، فأمر الفونسو ريمونديس باحراق الزروع وانتسافها ومضوا يخربون القرى والضياع ويهدمون المساجد ويحرقون المصاحف ويقتلون الرجال ويسبون النساء ، وواصل القشتاليون عيثهم فى المناطق الممتدة ما بين قرطبة واشبيلية ومن هنالك اتجه الفونسو ريمونديس الى شريش فبث الخراب فى عمرانها ثم قفل عائدا الى طليطلة(٦٩) .

---

(٦٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤، ص ٨٥ ، ص٨٦، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ص ١٧٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٥ ، ص ١٣٦ .

(٦٧) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ، وراجع أيضا ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ ، ص ١٩٩ .

(٦٨) هو ابن عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة ، وكان المستنصر هذا قد تنازل عن حصن روطة الحصين لملك قشتالة .

(٦٩) Lafuente, (M) : Historia gemeral do Espana, vol , 111. , P. 249 .

ولم يكف القشتاليون عن توجيه حملاتهم على الاندلس ، ففى العام التالى جهز الفونسو ريموندیس ملك قشتالة جيشا كثيفا قوامه ألوف من كماة النصارى وأنجادهم ووجهة ناحية بطليوس وهناك شن الغارة على أراضيها ودمر نواحيها ، فأسرع تاشفين بالخروج من اشبيلية فى جيشه كما أرسل العيون لمراقبة تحركات العدو ، ثم سار الى موضع قريب من الزلاقة يقع فى شرقى بطليوس وفى هذا الموضع الذى شهد أول انتصار للمرابطين على القشتاليين فى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) اشتبك الجـانبان فى قتال عنيف حدث فى جمادى الاولى سنة ٥٢٨ هـ (مارس ١١٣٤ م) ، أسفرت عن هزيمة القشتاليين وأنهيار صفوفهم ولم ينقذهم من سيوف المرابطين سوى سواد الليل فولوا الادبار وعاد تاشفين بعد هذا الانتصار المؤزر ظافرا الى قرطبة ومنها الى غرناطة(٧٠) .

وفى شهر ذى الحجة من نفس العام (٥٢٨ هـ) ، وفى أعقاب معركة افراغه التى دارت فى شهر رمضان من نفس العام ، خرج تاشفين بجيش غرناطة وقرطبة ولفيف من المجاهدين من الفرسان والمشاة لغزو أراضى قشتالة فى غرب الاندلس واجتمعت اليه قوات اشبيلية بقيادة الامير أبى يعقوب ينتان بن على فى فحص الريحانة وهو موضع قريب من اشبيلية ، وفى موضع البكار فاجأت فرقة قشتالية قوامها ألفى مقاتل قوات المرابطين بالهجوم بعد حلول الظلام واخترقت صفوفهم وأثارت الرعب والهلع فى قلوبهم ، فعلا صياحهم ، وفى أثناء هذه اللحظات المملـوءة بالاضطراب هاجمت جماعة من القشتاليين خيمة الامير تاشفين ، فأشار عليه خاصته بالفرار ، فرفض ، فأحدق به بعض فرســان الاندلس وأبطال المرابطين

---

(٧٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٩٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٣ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٧٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

وحالوا بينه وبين القشتاليين ، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة والامير تاشفين : « فى درعه متشحا بسيفه ودرقته بيده ، يشد حملته ، ويبدى صفحته ، فلم يرأ ربط جأشا ولا أشهم نفسا منه » ، وتمكن أحد عبيده من طعن القائد القشتالى طعنة نجلاء تسببت فى اختلال صفوف النصارى فولوا الادبار ، أما تاشفين فقد رحل فى اليوم التالى الى حصن قشرش أو قاصرش(٧١) Caceres من حصون المسلمين ومن هناك قفل عائدا الى قرطبـــة(٧٢) .

وعندما بلغ تاشفين فى أوائل عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أن القشتاليين أغاروا فى حشود كثيفة وجيوش وافرة أراضى المسلمين وأنهم قتـــلوا أعدادا كبـــيرة من المسلمين واكتسحوا البـــلاد ، استقدم كبار رجـــال المرابطـــين واستفتاهم فى الامر فقالوا له : « الدولة لنـــا فاما تركها أو حمايتها ، لا يتقدمنا أحد الى لقاء عدونا ، فاذا استشهدنا فالامر لمن شاء الله بعدنا » ، ثم استدعى زعمـــاء زناتة وأعاد عليهم سؤاله فقـــالوا له « لا جواب الا الفعل وشرطنا أن تعول أيتامنا » ، ثم استدعى العرب ، فقالوا له « أرم العدو بنا ولا تشرك أحد معنا وسيرى الله عملنا ، فطابت نفسه وشكرهم على تلك الروح الطيبة ، فخرج فى شعبان من نفس العام — ٥٣٠ هـ — فجاءت اليه عيونه وأخبروه بأن العدو تحصن فى جبل القصر ، ففرض تاشفين الحصار على جبل القصر وبدأ فى قتال النصارى المتحصنين به ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بهم وقتل أكثرهم ولم ينج منهم ســـوى القليل ، وامتلأت أيدى المسلمين بدوابهم وأسلحتهم وأطلق تاشفين سراح

---

(٧١) عن قاصرش أنظر أ . د . السيد عبد العزيز سالم ، كتاب الشعب ، ع ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٢ — ٦٤ .

(٧٢) عن معركة البكار أنظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، ص ٩١ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥ ، ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

الاسرى من المسلمين ممن كانوا فى معسكر العدو ، وقام بتوزيع الغنائم على البلدان والمدن القريبة من ميدان المعركة ثم عاد منتصرا ظافرا الى قرطبـــة(٧٣) .

وفى نفس العام ــ ٥٣٠ هـ ــ التقى تاشفين بالقشتاليين فى موضع يعرف باسم فحص عطية ، فأوقع بهم الهزيمة ، وقتل منهم جموعا غفيرة، واستولى على أسلابهم(٧٤) . وفى العام التالى ــ ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ــ غزا تاشفين أرض قشتالة واقتحم مدينة كركى الواقعة قريبا ه قلعة رباح ، فألفاها خالية(٧٥) . وفى العام التالى ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) دخل تاشفين مدينة أشكونية أو أشكلونة(٧٦) Escalna عنوة ، وقتل من وجده فيها ، واستولى على أسلابها ، ومنها عدة من النواقيس العظيمة ، ثم قفل عائدا الى قرطبة(٧٧) ، ومن هناك جاز الى العدوة وحمل من سبى هذه الغزوة ٦ آلاف سبية(٧٨) . وكان تاشفين قبل عبوره قد بلغه خروج الجيش القشتالى لغزو أراضى المسلمين فى منطقة جيان ، فتأهب تاشفين للتصدى لهم ، وكان القشتاليون قد اتجهوا نحو بياسة وأبدة وعاثوا فى تلك المنطقة واتخذوا عدتهم لعبور الوادى ؛ ولكن تعذر على خيل العدو عبور النهر بسبب استمرار هطول المطر لمدة عشرين يوما ، فحاول

(٧٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٩١ ، ص ٩٢ .

(٧٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(٧٥) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١١٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٢ .

(٧٦) أشكونية أو أشكلونة من أعمال كورة تدمير راجع الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٢ ، ص ١٧٢ .

(٧٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٢٨ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ص ١١٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ .

(٧٨) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ١١٥ .

النصارى العبور على العادى ؛ فتكسرت بعضها وغرق من كان فيها وانتهز قائد حامية جيان هذه الفرصة وطاردهم فأوقع بهم الهزيمة ؛ وولت فلولهم الى حصن شبيوطة من عمل أبدء ولكنهم عجزوا عن اقتحامه وعادوا الى طليطلة . وكان الامير تاشفين يراقب الموقف عن كثب ولكن الامطار الغزيرة حالت بينه وبين مطاردة القشتاليين فلما بلغه هزيمة النصارى وعودتهم الى بلادهم ؛ ولى وجهه شطر المغرب بعد أن استدعاه والده أمير المسلمين على بن يوسف ؛ فدخل مراكش فى رجب سنة ٥٣٢ هـ (أوائل ١١٣٨ م)(٧٩) .

استمرت العلاقات متوترة بين مملكة قشتالة ودولة المرابطين فى الاندلس ، على الرغم من اشتغال الملك الفونسو السابع ريموند يس المعروف بالسليطين فى الفترة التى تبعت وفاة الفونسو الاول المحارب باقرار الاوضاع فى أرغون ونابره(٨٠) ، وتمكين نفوذه على القسم الاعظم من مملكة الفونسو المحارب ، وعقد عهود التحالف والصداقة مع أمير برشلونة وعدد من قوامس ولايات البرتات الفرنسية ، ولم يلبث ملك قشتالة أعظم ملوك أسبانيا المسيحية أن استأنف نشاطه العسكرى ضد المسلمين منذ سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) وفيها خرج لغزو أراضى الاسلام ، ومع أن هذه الغزوة لم تكلل بالنجاح وأخفق القشتاليون فى الاستيلاء على قلعة قورية المنيعة(٨١) ، الا أن حركته تسجل بداية لمرحلة جديدة للهجوم ، وفى العام التالى ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) تمكن من انتزاع قلعة « أورية » من المسلمين ، وكانت أورية قاعدة المسلمين فى غاراتهم على

---

(٧٩) ابن القطان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٣ .

(٨٠) راجع تفاصيل ذلك فى عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٩٣ وما يليها .

(٨١) قورية من أحصن المعاقل الاندلسية وأنها سور منيع وتقع بالقرب من مدينة ماردة وتشتهر بأرضها الخصبة وفواكها الكثيرة وأشهرها العنب والتين . أنظر : الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٦٤ .

قشتالة ، كما كانت تعتبر مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفرا عظيما . غير أن المسلمين سرعان ما ردوا على القشتاليين عسكريا ، ففى نفس العام وفق المرابطون بقيادة الزبير بن على والى قرطبة فى الاستيلاء على قلعة « موره » المنيعة ؛ الامر الذى دعا ملك قشتالة الى العمل على استرداد قلعة قورية ، ونجح بالفعل فى استردادها سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١م) بعد حصار دام ما يقرب من شهرين[٨٢]، وفى العام التالى قام القشتاليون بقيادة مونيو ألفونسيز حاكم مورة السابق بغزو قرطبة كرد فعل لتفريطه فى الدفاع عن قلعة مورة التى انتزعها المرابطون منه ، فانتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف نهر الوادى الكبير فى نواحى قرطبة وتمكن من ايقاع الهزيمة بقوة من المرابطين يقودها واليا قرطبة واشبيلية اللذين استشهدا فى ساحة المعركة واستشهد معهما عدة آلاف من المسلمين . وقد أثارت هذه الهزيمة مشاعر الغضب والاستياء فى نفوس المسلمين ، فأمر أمير المسلمين بتقليد يحيى بن غانية بطل افراغه واليا عاما على جميع أراضى الاندلس التابعة للمرابطين ، وأمره أن يعمل على الانتقام لقتلى المسلمين ، فهاجم يحيى بين غانية قلعة رباح وعاث فى نواحيها وعندما اعترض القائد القشتالى مونيو الفونسيز طريقة أوقع به هزيمة نكراء وسقط القائد القشتالى صريعا ، وفصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت الى قرطبة واشبيلية لكى تعرض على زوجى الواليين القتيلين عزاء لهما ، ثم حملت بعد ذلك الى مراكش ، ثم أرسلت بقية جثة مونيو الى القشتاليين مقابل ارسالهم لرأسى الواليين المسلمين[٨٣] . وعلى الرغم من وفاة على ابن يوسف فى عام ٥٣٧ هـ (١١٤٣ م) فقد ظل القشتاليون يمارسون ضغوطهم على دار الاسلام ، بل أنهم انتهزوا فرصة انشغال

---

(٨٢) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٨٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ .

المرابطين فى المغـــرب وصراعهم مع الموحدين وأغـــاروا فى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م) على بسائط قرطبة واشبيلية وقرمونة وغرناطة حتى المرية وعادت قواتهم مثقلة بالغنائم (٨٤) .

وهكذا استمرت الحروب بين المرابطين والنصارى حتى بعد وفـــاة على بن يوسف ، وبوفاته بدأت النهاية بالنسبة لدولة المرابطين ، وعلى الرغم من الدور العظيم الذى قام به ابنه وخليفته تاشفين فى مدافعـــة نصارى الأندلس ، الا أنه لم يستطع أن يصمد أمام ضربات الموحدين فى المغرب،وقدر له أن يموت عندما حاول أن يلتمس النجاة من أحد الحصون القريبة من وهـــران بعد أن أشعل فيه الموحدون النـــيران ، فبينما كان يسعى للفرار تردت به فرســـه تحت جنح الظـــلام فسقط به فى هوة سحيقه . ويسجل مصرعه النهاية الحقيقة لدولة المرابطين .

---

(٨٤) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٨٥ .

(٢)

مع مملكة أرغون

ظلت العلاقات الودية قائمة بين المرابطين وبنى هود فى سرقسطة الى أن توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وتولى ولده على بن يوسف، وكان يوسف قد نصح ولده وولى عهده أن يهادن أمراء سرقسطة وأن يتركهم سدا بينه وبين النصارى(٨٥) . وهكذا ترك المرابطون امارة سرقسطة وشأنها وشغلوا باطاحة بدويلات الطوائف الاخرى ، فاستغل ذلك أرغون شانجه راميرث هذه الفرصة وأخذ يهاجم مملكة سرقسطة وتمكن فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) من انتزاع بلدة منشون Monoson ، ثم احكم حصاره هول وشقة ولكنه توفى خلال الحصار ، فواصل ابنه بدور الاول حصاره لها الى أن سقطت فى يده سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦ م) على الرغم من استبسال أحمد المستعين بالله بن هود فى الدفاع عنها(٨٦) .

ولم تلبث الاوضاع فى سرقسطة أن تغيرت تماما بعد استشهاد الامير أحمد المستعين بن هود فى معركة فالتيرة Valtierra التى دارت بينه

---

(٨٥) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٠ ، وأنظر أيضا مؤنس ، الثغر الأعلى الاندلس ، ص١٠٤ .

(٨٦) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥٤ ، ص ١٦٣ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٠٤ ،ص١٠٥ عنان،دول الطوائف،ص ٢٨٨،ص٢٨٩.
Antonio Preito R vives : Los reyes de Taifas, Madrid, 1926, p. 49.

وبين الارغـونيين فى أول رجب سنة ٥٠٣ هـ (أوائـل ١١١٠ م)(٨٧) ، وبوفاته فقـدت سرقسطة آخر ملوكها العظام الذين استطاعوا حمايتها من الاخطار التى تهددتها ، فخلفه ولده عبد الملك الملقب بعماد الدولة ، وكان حليفا للنصارى يميل اليهم ويعتمد عليهم فى عسكره ، فبادر بعقد حلف مع ملك أرغون خوفا من المرابطين على بلاده بعد أن استشعر من أهل سرقسطة ميلهم اليهم(٨٨) ، وقد أدى تحالفه مع أرغون الى اقدام المرابطين على الاستيلاء على سرقسطة ، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا فى هذه المناسبة أن ملك أرغون الجديد وهو الفونسو الاول الذى تولى العـرش فى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٥ م) كان ملكا عالى الهمة بعيـد الآمال شديد الطموح ، وقد دفعه طموحه وحماسه المسيحى الى حد التعصب الاعمى ضد الاسلام فى أسبانيا سيما بعد زواجه من دونيا أراكه ابنـة الفونسو السادس ووريثته ، وتوحيد مملكة أرغون مع مملكة قشتالة وليون ، دفعه ذلك الى التطلع لتحرير الاندلس من سيطرة الاسـلام ، وكان همه الاول السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى وأعظم مدن الاندلس الشمالى ، وجاءت وفاة المستعين بالله واستخلاف ابنه الضعيف عماد الدولة حافزا له على تحقيق هـدفه(٨٩) . وهـكذا كان طبيعيا أن

(٨٧) عن معـركة فالتيرة انظر : ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ابن الخطيب ، أعمـال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١٠٦ ، كليليا سارنللى ، مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .
D. R. vives, Los Reyes de Taifas, p. 49; Afif Turk, El Reino de Zaragoza, p. 188.

(٨٨) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨ ، ابن عذارى ، المصـدر السابق ، ص ٥٣ ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٩) مؤنس ، الثغر الأعلى الاندلسى ، ص ١١١ .

يقدم المرابطون على استنقاذ سرقسطة من السقوط الوشيك بين مخالب الفونسو الاول المحارب • وتختلف الروايات العربية حول كيفية دخول المرابطين المدينـــة :

وتتلخص رواية كل من ابن عذارى وابن الخطيب فى أن وفاة الامير أحمد المستعين بالله بن هود قد أطمعت محمد بن فاطمة والى غرناطة فى الاستيلاء على سرقسطة ، فبادر بالتحرك اليها ولما يمضى شهر واحـــد على وفاة المستعين ، فلما اقترب من المدينـــة طلب منه أهلها الانصراف عنهم ، كى لا يكون ذلك سببا فى استدعاء عماد الدولة بن هود للنصارى فلما تبين لاهل سرقسطة أن عمـــاد الدولة تحالف مع النصـــارى بسبب خـــوفه من المرابطين بادروا باستدعاء محمد بن الحـــاج والى بلنسية ، فأقبل اليهم وفتحو له أبواب مدينتهم(٩٠) •

أما رواية ابن سعيد المغربى وصاحب الحلل الموشية فتتلخص فى أن أهل سرقسطة عندما أيقنوا من تحالف عماد الدولة مع النصارى ، كتبوا الى أمير المسلمين فى مراكش يناشدونه ضم سرقسطة الى دولته وخلع بنى هود ، كما أن فقهاء على أفتوه بوجوب خلع بنى هود ، فأصـــدر على بن يوسف أمره الى محمـــد بن الحاج والى بلنسية بأن يزحف الى سرقسطة ويستولى عليها ، فلما علم عمـــاد الدولة بقدوم هذا الجيش المرابطى ، بادر بالكتابة الى على بن يوسف يسترضيه ، ويذكره بما كان بين والديهما من صلات الود والصداقة ، وأنه يحمل للامير منزلة سامية ويقدره قـــدره وأنه من الانسب والاوفـــق لصـــالح المسلمين أن يترك

---

(٩٠) ابن عذارى ، البيـــان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب • أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ •

سرقسطة على وضعها حاجزا بين دولة الاسلام فى الاندلس وبين النصارى وتشير الرواية الى أن الامير رق لهذا الملتمس وكتب الى قائده بأن يكف عنه[91] . وأن كانت الحوادث التالية أثبتت أن مثل هذا العفو لم يحدث ، وأن ابن الحاج دخل سرقسطة ، واذا كان دوزى يبرر ذلك بأن ابن الحاج تسلم أمر على بن يوسف بالكف عن عماد الدولة بعد فوات الاوان[92] فان المنطق يؤكد أن مثل ذلك لا يجوز قبوله فليس من المنطقى أن يخالف القائد ابن الحاج أمرا أصدره اليه أمير المسلمين فيفتح مدينة أمره الامير بالكف عن منازلتها . وأيا ما كان الامر فقد وصلت قوات المرابطين الى سرقسطة فى صباح العاشر من ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ففتحت لهم أبواب المدينة ، ودخل ابن الحاج قصر الجعفرية الشهير ، وفى رواية أخرى لابن عذارى وابن الخطيب أن عماد الدولة استدعى الفونسو المحارب ملك أرغون الذى سارع الى نجدة حليفه ، فقسم جيشه الى قسمين ، قسم صدم به ابن الحاج ، والقسم الآخر صدم به أبا يحيى بن محمد بن الحاج ، فتفرق الناس عن أبى يحيى واستشهد ، كما فقد معه جملة من المسلمين وذلك عشية يوم الاحد منتصف ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ[93] ولكن أهل سرقسطة أقدموا على طرد عماد الدولة فاتجه الى حصن روطة[94] فى الشمال تحت حماية

(٩١) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ ، مجهول الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

(٩٢) Dozy, Histoire de Musulmans d'esp agne vol, III, p. 154.

(٩٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٩٤) روطة Rueda حصن من أعمال سرقسطة وأحد المعاقل الحصينة فى منطقة الثغر الاعلى ، وكان المستعين بن هود قد أعده وبناه وشحنه بالأسلحة والاقوات ليكون ملاذا لبنى هود فى أوقات الخطر . أنظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٢٤٦ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، وابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى .

الفونسو المحارب ، وظل مقيما فى هذا الحصن مترقبا الاحداث آملا فى أن يسترجع ملكه فى الفرصة المواتية وفى ظل هذا الامل وضع نفسه فى خدمة الفونسو المحـــارب •

وعلى الرغم من أن المرابطين قد فوتوا باستيلائهم على سرقســطة الفرصة على ألفونسو المحارب ، فقد ظل يتحين الفرصة لانتزاعهــا من أيدى المرابطين ، ففى عام ٥٠٤هـ (١١١١م) خرج الفونسو المحـــارب فى مقدمة قوة من عساكره لمهاجمة سرقسطة وصحبه فى هذه الغزوة حليفه عماد الدولة ، وعندما اقترب من سرقسطة عسكر على بعــد فرســخ من المدينة ، استعدادا لمحاصرتها ، فتصدت له قوات المرابطين بقيادة محمد ابن الحاج والى المدينة ، وظل ابن الحاج يناوش الفونسو وقواته ، حتى لحقت به قوات مرسية بقيــادة واليها ابن عائشــة ، فاضطر الفونسو المحارب الى الانسحاب الى بلاده[٩٥] • وفى العام التالى ٥٠٥هـ (١١١٢م) خرج عماد الدولة بن هود من حصن روطة لمحاربة سرقسطة ، فتصدى له ابن الحاج وأرغمه على العودة الى روطة[٩٦] •

وظل ابن الحاج واليا على سرقسطة يتولى حمايتها من الاخطــار المحيطة بها الى أن استشهد أثناء عودته اليهــا من غزوة قام بهــا فى برشلونة فى عام ٥٠٨هـ(١١١٤م)،فخلفه فى ولاية سرقسطة الامير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلويت والى مرسية وبلنسية وطرطوشة الذى تابع خلال العامين اللذين قضاهما فى ولايتها نفس سياسة سلفه ، ففى عام ٥١٠هـ

---

(٩٥) ابن عذارى ، البيان ، ، ج ٤ ، ص ٥٥ ، وأنظر أيضا ، عنان ، عصر المرابطين ص٨٨ •

(٩٦) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٦ •

(١١١٦م) قاد حملة الى حصن روطة ، كما غزا برجة وبها عماد الدولة بن هود[٩٧] . وكان ابن تافلويت فى الحق آخر حماة سرقسطة وشرق الاندلس .

كان الفونسو المحارب أثناء ذلك لا يكف عن مراقبة الموقف عن كثب حتى يتمكن من ضرب ضربتـه فى الوقت المناسب ، ويحقق أهم وأغلى أمانيه فى السيطرة على سرقسطة فبعـد وفاة ابن تافلويت تلكأ على بن يوسف فى اسناد ولايتها الى أحد قواده الكبار الذين لم يتخطفهم الموت بعد وترك أمر حمايتها الى أخيه ابراهيم بن يوسف والى مرسية الذى لم يتردد فى السير اليها للنظر فى أحوالها وأحوال أهلها ، فلما تم له ذلك عاد الى مرسية مقر ولايته[٩٨] . على أن الامير على بن يوسف لم يلبث أن أدرك خطورة الاوضاع فى سرقسطة بعد وفاة ابن تافلويت وعز عليه أن يترك هذه المدينة الهامة فريسة لاطماع الفونسو المحارب فجاز جوازه الثالث الى الاندلس فى صفر سنة ٥١١هـ (١١١٧م) ، وأسند ولايتهـا الى القائد عبد الله بن مزدلى والى غرناطة الذى أقام يقارع الفونسو المحارب عاما كاملا ويحبط عليه خططه فى السيطرة على سرقسطة الى أن توفى بدوره[٩٩] فانتهز الفونسو المحارب فرصة وفاة ابن مزدلى وعـدم وجود وال يحميها ، وبادر بالتحرك وأقبل فى جيوش كثيفة من الفرنج والقشتالين لحصارها ، فعندما بلغ على بن يوسف ذلك كتب الى أمراء

---

(٩٧) ابن عذارى ، المصـدر السـابق ، ص ٦٢ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج١ ، ص٤٠٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص٨٩ .

(٩٨) ابن الخطيب ، المصـدر السـابق ، ص ٤٠٨ ، عنـان ، عصر المرابطين ، ص٨٩ .

(٩٩) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ .

الاندلس يأمرهم باللحاق بأخيه تميم والى شرق الاندلس ، ليخرجوا من هنـاك الى سرقسطة لاستنقاذها واسـتنقاذ لاردة التى تعرضت هى الأخرى لخطر النصارى ، وهكذا توافدت الى تميم حشود كبيرة من بلاد الاندلس ، فخرج تميم مع هذه الحشود نحو لاردة ، وكان الفونسو قد فرض عليها الحصار ، ونشبت بين الجانبين معركة عنيفة ، هزم فيهـا الفونسو المحارب ، بعد أن فقد فيهـا ما يزيد على عشرة آلاف مقـاتل ، واضطر الى رفع الحصار عن لاردة ، وعلى أثر ذلك عاد تميم الى مقـر ولايته فى بلنسية ثم رحل منها الى مراكش(١٠٠) عنـدما بلغه اضطراب الامور فى المغرب(١٠١) .

انتهز الفونسو المحارب عودة الامير تميم الى المغـرب ، وبعث الى طوائف الافرنج يستنصر بهم على قتال سرقسطة ، ويذكر صـاحب روض القـرطاس أنهم أتوه فى أمم كالنمل والجـراد فنزلوا معه بهـا وشرعوا فى قتالها(١٠٢) ، ويعبر الاستاذ عبد الله عنان عن الروح الصليبية التى غلبت على هذه الغزوة فيذكر أنه شارك فيهـا الى جانب الفونسو المحارب الكونت جاستون دى بيارن وأخوه بسانتولو ، وكلاهما كان قد شارك فى الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام الامارات الصليبية فى الشام ، كما شارك فيها قمط دى تولوز وحشود كثيفة من البشكنس ومن قطلونية فضلا عن كثير من الاساقفة وكبار رجال الدين(١٠٣) ويقـدر

---

(١٠٠) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٣ ، مؤنس ، الثغـر الاعلى الاندلس ، ص١١٥ ، أشبـاخ ، تاريخ الاندلس ، ص١٤٤ ، عنـان ، عصر المرابطين ، ص ٩٢ ، ص ٩٣ .

(١٠١) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(١٠٢) ابن أبى زرع ، نفسه .

(١٠٣) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٠ .

صاحب الروض المعطار عددهم بخمسين ألف فارس (١٠٤) . اتجهت هذه الحشود صوب سرقسطة وفرضت عليها الحصار ، ويصف ابن أبى زرع حصار النصارى للمدينة بقوله : « وصنعوا أبراجا خشب تجر على بكارات وقربوه منها ، ونصبوا فيه الرعدات ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فنيت الاقوات ، وفنى أكثر الناس جوعا » (١٠٥) ، وعندما اشتد الحصار على أهل سرقسطة راسلوا الفونسو المحارب على أن « يدفع عنهم القتال الى أجل فان لم يأتيهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموها له » (١٠٦) ، فعاهدهم على ذلك . وفى هذه الاثناء كتب ثابت بن عبد الله قاضى سرقسطة وجمهورها رسالة مؤثرة الى الامير أبى الطاهر تميم يستنصرون به باسم الدين ، فى عبارات مؤثرة ولكنها ضارعة ، أن يتقدم لانجاد سرقسطة واستنقاذها ، وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى (١٠٧) . ولكن الامير تميم تقاعس عن نجدة سرقسطة وتركها لمصيرها التعس ، وانتهت المهلة المعطاة من النصارى دون أن يتلقى المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة الى التسليم بعد أن عصف بها الحصار وضربها بأهلها وانقطع عنها الوارد والصادر واشتد الجوع وفنيت الاقوات ، وتم دخول النصارى فى سرقسطة صلحا فى الرابع من رمضان سنة ٥١٢هـ الموافق للتاسع عشر من ديسمبر سنة ١١١٨م (١٠٨) .

(١٠٤) الحميرى ، ص ٩٨ .
(١٠٥) روض القرطاس ، ص ١١٣ .
(١٠٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ .
(١٠٧) ورد كل من أ.د.حسين مؤنس ، والاستاذ عبد الله عنان نص رسالة أهل سرقسطة الى الامير تميم ، أنظر مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٣٨ ـ ٥٤١ .
(١٠٨) عن أحداث سقوط سرقسطة فى أيدى النصارى أنظر : ابن =

وقد أورد ابن الكردبوس الشروط التى وضعت لتسليم المدينة على النحو التالى : « أن يسلموا البلد اليه (أى الى ابن ردمير) ، ويجعلوه فى يديه ، فمن أحب منهم الاقامة على أداء الجزية خاصة أقام ؛ ومن أحب أن يرحل بما عنده الى حيث شاء من البلاد فله الأمان التام ، الى أن يصل الى بلاد الاسلام ، وعلى أن يسكن الروم المدينة والمسلمون ربض الدباغين ؛ وعلى أن كل أسير يفات للروم من المدينة ويحصل عند الاسلام ، فلا سبيل لمالكه اليه ، ولا اعتراض له عليه »(١٠٩) وهكذا تم توقيع الاتفاق وانعقدت العقود بالعهد والميثاق ، فلما استقر المقام بابن ردمير فى سرقسطة لم يتحمل الاهالى نير التبعية ولم يقبلوا أن يعتبرهم اخوانهم المسلمون أهل دجن ، فآثروا الرحيل عنها ، فخرجوا من المدينة فى أعداد هائلة يرغبون فى هجرتها الى دار الاسلام وفى ذلك يقول ابن الكردبوس : « فبلغ عددهم نحوا من خمسين ألف نسمة ما بين صغير وكبير ونساء وذكور ، فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، ركب بنفسه مع من استصحبه واحتمله ، فوقف عليهم وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم من القليل والكثير ، فرأى أموالا لا تحصى كثرة ، ولا كان راجيا أن يرى جزءا منها دهره . فقال لهم : لو لم أقف على ما عندكم من هذه الاموال ، لقلتم لو رأى بعضها لم يسمح لنا بالترحال ؛ فسيروا الآن

= الابار ، الحلة السيراء ج٢ ، ص٢٤٨ ، ابن أبى زرع ، نفسه ، ص١١٤ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، فى صناعة الانشاء ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ ، مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٥ ،أشباخ، تاريخ الاندلس ، ص١٤٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص١٠٠ .

Codera, Dec. Y Des. de Los Almoravides en Espanna p. 12, 13; Terrassa, Histoire du Morac, vol, II p. 244; Miranda, Historia Musulmona de Valencia R su region movedad, vol, III Valencia 1970, pp. 45-46.

(١٠٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ .

حيث شئتم فى أمان • ووجه معهم من رجاله ، من يشيعهم الى آخر أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى غير مثقال ، على الرجال والنساء والاطفال فتملكها — لعنه الله — من ذلك التاريخ »(١١٠) • وتشير بعض المصادر العربية الى أن جيشا للمرابطين قوامه عشرة آلاف فارس ، قدم الى سرقسطة لاستنقاذها ولكن بعد فوات الأوان(١١١) •

وجاء سقوط سرقسطة فى يد ألفونسو المحارب نذيرا بسقوط ما تبقى من قواعد المسلمين فى الثغر الأعلى ، كما كان ضربة عنيفة أصابت الجبهة الدفاعية فى الشمال الشرقى من الاندلس ، وأسقطت هيبة المرابطين العسكرية ، كما فتح الطريق أمام مملكة أرغون للسيطرة على عدد من قواعد المسلمين وحصونهم ، فقد استولى الفونسو المحارب فى سنة ٥١٣هـ (١١٢٠م) على طرسونة Tarrazona وأعاد بها مركز الاسقفية القديمة ثم تقدم من هناك الى برجة Berja واستولى عليها ، كما افتتح بعض الحصون والبلاد الواقعة فى تلك المنطقة ومنها الاجون ومالن ومجايون وآبله وغيرها(١١٢) ، ثم زحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع الحصون الباقية للمسلمين فى الثغر الأعلى ولم يكن فى بلاد شرق الاندلس أمنع منها(١١٣) ، ثم واصل زحفه الى قلعة دروقة • واتصلت هذه الانباء المزعجة بأمير المسلمين على بن يوسف ، فاهتم لها وكتب الى أخيه الامير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين والى اشبيلية

---

(١١٠) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١١٩ •

(١١١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ ، السلاوى ، ج ١ ، ص ١٢٦ •

(١١٢) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٢ •

(١١٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٤ •

يأمره بتسيير حملة لقتال الفونسو المحارب ، كما كتب فى نفس الوقت الى القادة والرؤساء بالاندلس يستحثهم ويستنفرهم بأن يسيروا بقواتهم انجادا لأخيه ، وأن يكونوا تحت امرته • فاستنفر ابراهيم قواته ، وانضمت اليه قوات قرطبة وغرناطة ومرسية بقيادة ولاتها ، وشارك فى الحشود طائفة من علماء الاندلس وقضاتها بالاضافة الى جموع كبيرة من المتطوعة ، وبهذه الحشود تقدم ابراهيم نحو قلعة دروقة المنيعة لاستنقاذها ، وتم الاشتباك مع قوى النصارى فى ظاهر بلدة كتندة فى الرابع والعشرين من ربيع الأول وقيل فى ربيع الآخر سنة ٥١٤هـ (يونية أو يولية سنة ١١٢٠م) • وقد انتهت المعركة بهزيمة فاحشة رزىء بها المسلمون وكانت كارثة لا مثيل لها فيما سبق من هزائم ، وقد بلغ عدد القتلى المتطوعة المسلمين وفقا للرواية الاسلامية نحو عشرين ألفا بخلاف من استشهد من كبار العلماء والفقهاء ، أما قائد المسلمين الامير ابراهيم بن يوسف فقد انسحب فى فلول جيشه الى بلنسية(١١٤) ، وترتب على هزيمة المسلمين سقوط مدينة دروقة فى أيدى الارغونيين(١١٥) ؛ كما ترتب عليها أمر آخر أعظم خطرا هو توثب طائفة المعاهدة الاسبان فى الاندلس وتحفزهم فى الداخل ضد السلطة المركزية واتصالهم السرى

---

(١١٤) عن معركة كتندة أنظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠٢ ، ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلس ، ص ١١٦ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٦ •

Codera, Dec. R Des. de Los Almoravides, p. 12; Miranda, Historia Musulmana de Valencia, vol, III, P. 46.

(١١٥) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ ، المقرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ •

بمملكة أرغون بهدف تحريضها على مهاجمة دار الاسلام فى الوقت الذى يقدمون لها العون اللازم للقضاء على الاسلام فى الاندلس • ومن الواضح أن الانتصارات المتلاحقة التى أحرزها الفونسو المحارب على قوات المرابطين كانت الحافز على هذا التآمر بين المعاهدة وبين أرغون بهدف التخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، ومن الجدير بالذكر أن نصارى غرناطة على وجه الخصوص كانوا أكثر عناصر المعاهدة رغبة فى الاطاحة بدولة الاسلام والتآمر على سلامة المسلمين وهم الذين حملوا لواء حركة التمرد ضد المسلمين ، ولما كان من الاستحالة عليهم أن ينشطوا وحدهم لتحقيق هذا الهدف باعتبار أن القلاع والحصون كلها كانت فى أيدى المسلمين ، بالاضافة الى تفرق النصارى المعاهدين فى مختلف أنحاء الاندلس فقد كان لزاما عليهم التعاون مع الفونسو المحارب الذى أثبت بانتصاراته أنه أعظم ملوك النصارى وأكثرهم نشاطا فى حركة الاسترداد الاسبانى سيما بعد أن استولى على سرقسطة وقلعة أيوب وتطيلة ودروقة فكتبوا اليه بأحوال الاندلس وأحوال قلاعها كتابة مستفيضة ، والتمسوا منه غزو الاندلس ، وتعهدوا له ببذل العون الصادق والعمل كمرشدين ومحاربين ، ووجهوا اليه زماما يشتمل على اثنى عشر ألف مقاتل ، كما وعدوه عند وصوله الى حضرتهم بأن ينضم الى جيشه جميع المعاهدين فى بلادهم ، ورغبة منهم فى استثارة طمعه وشراهته أسرفوا فى امتداح غرناطة ووصف محاسنها وفضائلها وما تتميز به من ثروات وخيرات ، كما أطنبوا فى ذكر رخائها وعظم ثروات أهلها(١١٦) •

---

(١١٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ ، مجهول ، الحلل الوشية ، ص ٦٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ص ١٤٨ ، عنان ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٦ ، ص ١٠٧ •

وقد نجح مجاهدة غرناطة فى اسالة لعاب الفونسو واستنهاضه للقيام بهذه المغامرة يدفعه الطمع فى الظفر بكل ما وعدوه به ، فخرج من سرقسطة فى أول شعبان سنة ٥١٩هـ (٢ سبتمبر سنة ١٢٥ م) فى قوة قوامها أربعة آلاف فارس[١١٧] ، وقيل خمسة آلاف[١١٨] بالاضافة الى خمسة عشر ألفا من المشاه[١١٩] ، وقد رافقه فى حملته القمط جاستون دى بيارون ، كما صحبه عدد من رجال الدين فى مقدمتهم أسقفا سرقسطة ووشقة ، وأقسم الجميع قبل القيام بغزوتهم على الانجيل ألا يفر أحد منهم عن صاحبه ، وهكذا مضى الفونسو بحشوده نحو الشرق ؛ فوصل الى بلنسية فى ٢٠ من رمضان ، فتصدت له حامية المدينة بقيادة واليها أبى محمد بدر بن ورقاء . وفى أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع الى الانضمام اليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له منهم أعداد كثيفة عملوا له أدلاء يرشدونه الى الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف فى صفوف المسلمين ، ثم رحل من بلنسية فوصلت قواته الى جزيرة شقر فقاتل أهلها بضعة أيام ثم واصل غزوته مخترقا كل شرق الاندلس مرورا بدانية وشاطبة والسن وأوريوله ومرسيه وبيرة والمنصورة ومن هناك اتجه نحو الاندلس الجنوبية مرورا ببرشانة وبسطة،وقد حاول أثناء مروره بهذه المدينة أن يستولى عليها مستغلا فى ذلك موقعها فى بسيط من الارض استمدت منه تسميتها بالاضافة الى ضعف أسوارها ، الا أن محاولته باءت بالفشل فتابع مسيرته الاستعراضية مارا بوادى آش وبلدة القصر التى حاصرها لمدة شهر دون أن ينال من دفاعها[١٢٠] .

---

(١١٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ .
(١١٨) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٩ .
(١١٩) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٩ .
(١٢٠) ابن عذارى،نفسه ص ٧٠،مجهول ، الحلل الموشية،ص ٦٧ ، =

وفى هذه الاثناء كانت أنباء تحركات ألفونسو المحارب قد وصلت الى المغرب فانزعج لها أمير المسلمين ، فلم يتردد فى حشد جيوشه وارسالها الى الاندلس حيث انضمت اليها عساكر مرسية واشبيلية ، وتركزت هذه القوات المرابطية فى غرناطة حاضرة المرابطين فى الاندلس ، ومقر الادارة المركزية التى يتولاها تميم بن يوسف بن تاشفين(١٢١) . أما ألفونسو فقد خرج من وادى آش ، نحو غرناطة فمر بقرية دجمة Diezma وتقع غربى وادى آش ، ومن هناك واصل زحفه الى غرناطة ، فلما اقترب منها وأصبح فى منتصف المسافة بين وادى آش وغرناطة ، استبد الذعر والقلق عند أهل غرناطة وكثر الجزع والارجاف ، ويصف ابن عذارى رد الفعل فى غرناطة فيقول : « وجاءت الطلائع منبئة .... وانقطعت السابلة والواردة ، وقلت المرافق ، وتزاحم الناس فى المدينة ، وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب ، والخراب وكثر الجزع والارجاف والموجان بالنهار والليل .... والاسوار معمورة بأهل البلدة وما نسى فى الدور غير الصبية والنسوة ، وتوالت الامطار وسالت الطرق وضاقت النفوس أشد ضيقة »(١٢٢) ، ويواصل ابن عذارى سرده لأحداث غرناطة فيذكر أن الفونسو أقام بمحلته بضع عشرة ليلة دون أن يتمكن من شن هجومه عليها بسبب تكاثف الثلوج وغزارة الامطار ، وفى أثناء ذلك كان المعاهدة النصارى يزودونه بكل ما كان يحتاج اليه من مؤن وأقوات والظاهر أنه ارتاع لكثرة ما عاينه من مناعة غرناطة وكثافة حشود

= ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص١٠٩ ، ص ١١٠ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٨ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٨ ، ص١١٠ .

(١٢١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٠ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٢٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ .

المدافعين عنها ، كما أنه لم يلق من المعـاهدة ما كانوا قد وعدوه به من مساعدات بدليل أنه بعث يلوم زعيم معاهدة غرناطة ويدعى ابن القلاس لتقاعسهم عن نصرته ونكثهم بما عاهدوه له ، ولكن ابن القلاس رد على لومه مبررا تقاعس معاهدى غرناطة عن نصرة الفونسو المحـارب ببطء حركته الأمر الذى أتاح للمرابطين فرصة ارسـال قواتهم الى غرناطة واحياء التدبير الذى خططوا له(١٢٣) .ثم أن الفونسو لم يلبث أن واصل مسيرته الاستعراضية بعد أن فشل فى تحقيق هدفه نحو قرية مرسـانة ثم بيشى ، ومن هناك واصل السير الى قلعة يحصب Alcala La Real ثم الى قبرة(١٢٤) Cabra . وكان عسكر اشبيلية قد انضموا الى بقيـة عسكر المرابطين بهدف مطاردة الارغونيين ، وفى هذه الاثناء كان الفونسو المحارب قد انتقل من قبرة نحو غرناطة ، وقوات المسلمين فى اثرة تلاحقه الى أن وصل الى فحص الرينسول ، وهناك اشتبك الفريقان فى معركة ضارية أسفرت عن هزيمة المسلمين وتعلل الرواية العربية الهزيمـة التى أسفرت عنها المعركة فى النهاية بعد أن رجحت كفة المسلمين فى بدايتهـا بحادث وقع فى معسكر المسلمين وكان مصدر للاضطراب الذى شاع فيه وتفصيل ذلك أن الامير تميم بن يوسف أصدر أمره بنقل مخيمه الى أكمة يستطيع أن يشرف منها على تطورات الموقعة فظن المسلمون أنه قرر التراجع فاضطرب المعسكر وولى كثـير من المقاتلـة المسلمين الادبار وترتب على ذلك حدوث الهزيمة(١٢٥) . أما الرواية النصرانية فتبرر الهزيمة بانشغال

---

(١٢٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧١ ، وانظر أيضا : مجهول ، الحلل الموشية ص ٦٨ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ، عنان ، عصر المرابين ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(١٢٤) قبرة تقع الى الشمال الغربى من غرناطة .

(١٢٥) ابن عذارى البيان ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١١ ، عنان ، عصر المرابطين، ص ١١١ .

المسلمين بعد انتصارهم الأول على القوة النصرانيـــة بتقسيم الغنـــائم اعتقادا منهم بأن انتصارهم على النصارى كان حاسما ، فانتهز الفونسو هذه الفرصة وانقض ورجاله على صفوف المسلمين كالبواشق ، وكانت الهزيمةعلى المسلمين(١٢٦) .

ونستدل من متابعة الفونسو زحفه الى الساحل الجنوبى للاندلس على أن انتصاره لم كن حاسما ، فهو لم يستغله فى السيطرة على الحصـــون والقرى المجاورة ، فقد اكتفى بهذا الانتصار وواصل مسيرته نحو الساحل مخترقا البشرات وجاز على وادى متريل الى أن وصل الى بحـــر بلش ؛ فلما وصل اليه صنع جفنا صغيرا صاد به سمكا والظاهر أنه أراد أن يفى بنذر كان قد نذره لو وصل الى البحر المتوسط، وما أن تم له ما أراد حتى اجتزا سلسلة الجبال من جديد متجها نحو غرناطة ، ومر أثناء مسيرته بعدد من القرى مثل دلر وهمدان ثم المرج وقوات المسلمين تتبعه ، ولم يكن الأمر يخلو من اشتباكات مع المسلمين فى بعض الاحيان كما حدث فى قرية همدان ، ومازال يتابع سيره حتى وصل الى وادى آش ، وعندئذ قرر فجأة العودة الى بلاده بعد أن تبين له أن حملته لم تحقق الهدف منهـــا وأن عســـكره أصيبوا بخســـائر جسيمة خلال المعـــارك التى خاضتها قواته مع قوات المرابطين بالاضافة الى الامراض التى سببتها برودة الشتاء القاسية، وعلى هذا النحو قرر أن يتراجع الى بلاده وآثره أن يمر أثناء عودته بسواحل شرق الاندلس ، لدفئها نسبيا ، وهكذا اتجه الى مرسية ومن هناك اتجه شمالا نحو شاطبة ، فبلنسية . وكان طبيعيا أن ينضم اليه عدد كبير من العناصر النصرانية فى غرناطة بعد أن أدركوا اخفاقه فى خطته ، وأيقنـــوا

---

(١٢٦) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤٩ .

بسوء المصير لو أنهم استمروا يقيمون فى كنف المسلمين ، فيتعرضوا لسخطهم وقسوة انتقامهم ، وهكذا لحق بعسكر الفونسو المحارب ما يقرب من عشرة آلاف من المعاهدين • ومازال الفونسو يواصل انسحابه الى أن وصل الى سرقسطة وقد عصف به الاعياء وأمضه التعب والارهاق خلال ١٥ شهرا قضاها فى الغزوة الاستعراضية(١٢٧) •

وقد أسفر حملة الفونسو المحارب ملك أرغون على الاندلس عن النتائج التالية :

١ — أثبتت حملة الفونسو المحارب أن المعاهدة النصارى الذين كانوا يتعايشون مع المسلمين فى ذمة الاسلام وفى ظل سياسة التسامح التى كان يطبقها المسلمون منذ الفتح أنهم كانوا منافقين غير موالين للمسلمين ، وأنهم ببذلهم العون والنصرة لملك أرغون قد خانوا العهد ونكثوا بولائهم للمسلمين مندفعين فى ذلك وراء تعصب دينى أعمى بصائرهم ، ونسوا أنهم للمسلمين أخوة ، وكان طبيعيا أن يتفرغ لهم أولوا الأمر بعد عودة الفونسو الى بلاده ، فيعاقبوهم بما يستحقون من عقاب ممتثلين للنبى صلى الله عليه وسلم عندما خانه بنو قريظة ، وهكذا أفتى الفقيه أبو الوليد بن رشد الجد قاضى الجماعة بقرطبة بتغريبهم ونفيهم الى المغرب فأقر أمير المسلمين هذه الفتوى ، وصدر عهده الى جميع مدن وأقاليم الاندلس بتغريب النصارى المعاهدين الى المغرب ، فنقل معظمهم فى

---

(١٢٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ص ١١٣ ، اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٥٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٢ •

Codera, Dec R Des. de Los Almora Vides, P. 15, 16; Terrasse, Histoire, vol, II, p. 245; Miranda, Historia Musulmana, vol, III, p. 57, 58.

رمضان سنة ٥٢١هـ الى المغرب ونزلوا على الأخص فى مدينتى مكناسة وسلا ، وتعرض عدد كبير منهم للهلاك والموت أثناء انتقالهم الى المغرب(١٢٨) .

٢ – كشفت غزوة الفونسو المحارب الطويلة عن ضعف وسائل الدفاع الاسلامى فى الاندلس ، كما أثبتت سوء القيادة العسكرية للمرابطين وما أصابها من وهن وتخاذل سيما بعد أن توفى فى العقد الاول من هذا القرن السادس أعظم قادة المرابطين وبعد الكارثة التى أصيب بها جيش ارابطين فى كتندة .

٣ – أثبتت الغزوة قصور الامير تميم فى قيادة عسكر المرابطين ، ولهذا أفتى الفقيه ابن رشد بعزله عن القيادة ، وأشار على علـى بن يوسف بذلك وتقديم قائد كفء يمكنه أن يتصدى لقوى النصرانية فى الاندلس(١٢٩) ، غير أن الموت لم يمهل تميم طويلا بعد هذه الغزوة ، فقد توفى قبل أن يعزله أخوه عن ولاية الاندلس ، فأسند على بن يوسف ولاية الاندلس الى ابنه تاشفين بن على ، وجاء تقليد تاشفين ولاية الاندلس وقيادة الجيوش موفقا كل التوفيق ، وأثبت تاشفين بانتصاراته

---

(١٢٨) عن تغريب النصارى المعاهدين أنظر ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، ص ٧٣ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، ٦٦ ص ٧٠، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٥٠ ، ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الاندلس، ص ١٧٣، عنان ، عصر المرابطين ص ١١٣ ، ص ١١٤ .
Codera, Des Y Des. Los Almoravides, p. 16, F.J. Simonet : Mozarabes, Yjuaderios ´des Los ciudades Hispanomusulmanas, Al Andalus, Vol. XIX, 1954, Fasc, I, p. 173-174.

(١٢٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ .

الكثيرة على جيوش النصرانية أنه أهل لهذا الاختيار كما أثبت جدارة فى صراعه مع قوى قشتالة .

٤ ـ تبين لعلى بن يوسف أن أسوار الأندلس المثلمة لم تعد صالحة الصمود أمام أى غزوة يقوم بها ملوك النصرانية فى أسبانيا ولهذا فقد أصدر الامير أوامره الى ولاة الاندلس بتحصين الاسوار وترميمها وقد فرض لذلك ضريبة عرفت بالتعتيب(١٣٠) خصصت مواردها لترميم الاسوار واصلاح ما وهى منها فى القواعد الكبرى للاندلس مثل المرية وقرطبة وغرناطة واشبيلية وغيرها(١٣١) .

هزيمة المسلمين فى القلعة أو القلاعة سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م)

واصل الفونسو المحارب نشاطه ضد المرابطين فى الثغر الأعلى وكان هؤلاء مزالوا بعد يسيطرون على الاراضى الواقعة الى الشرق من سرقسطة ، وأهم قواعدها لاردة وافراغه ومكناسة بالاضافة الى المنطقة الممتدة على طول نهر ابرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان الفونسو يستهدف اجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ضمانا لربط مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة(١٣٢) ، فلما سقطت طركونة فى أيدى القطلانيين ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة سوى ثغر طرطوشة ، ازدادت رغبة الفونسو المحارب فى انتزاع هذا الثغر ، الا أنه كان لزاما

---

(١٣٠) الادريسى ، وصف المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ص ١٩٨ .

(١٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

(١٣٢) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٤ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٦ .

عليه قبل ذلك أن يقحم نفسه فى صراع عنيف مع المرابطين الذين كانت لهم السيطرة الفعليــة على منطقتى لاردة وافراغة وما وراءهما من أراضى اقليم أرغون حتى مصب نهــر ابرة ، وعلى الرغم من الاخفــاق الــذى تمخضت عنــه غزوة الفونسو المحــارب للاندلس ، فانه لم يتردد فى معاودة الكرة لتحقيق مشروعه • ولم يمضى على حملته عامان حتى خرج فى قواته من حاضرته سرقسطة وزحف شرقا نحو نهر سنكا متجهــا نحو افراغه ولاردة ، وكان عليه أن يمضى أولا الى أراضى بلنسية ، فما كادت أنباء تحركاته تصل عن طريق عمال بلنسية الى الامير على بن يوسف حتى سرى الخوف فى نفس الامير وخشى أن تكون حركة الفونسو المحــارب هذه المرة مماثلة لغزوته التى اخترق فيهــا بلاد الاندلس ، فأمر باعداد قوات من السودان تتحمل مدن الاندلس تزويدهم بالارزاق والســلاح والنفقات كل مدينة وفق امكانياتها(١٣٣) ، كما أنه وجه الحشود الاسلامية الى مدينة مرسية تعزيزا لجيوش المرابطين فى اقليم شرق الاندلس •

ولم تلبث قوات المرابطين بقيادة أبى محمد بن أبى بكر بن سيراللمتونى والارغونيين أن اشتبكت فى قتال عنيف فى الموضع المعروف باسم القلعة أو القــلاعة وذلك فى شــهر رجب من عام ٥٢٣هـ (١١٢٩م) وأســفر الاشتباك فى البداية عن رجحان كفة المسلمين استنادا على الرسالة التى وجهها أمير المسلمين الى الامير أبى محمد بن أبى بكر وفيهــا يقــول « كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهــدى والرشــد سعيك • من حضرة مراكش حرسها الله فى السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة • وقبله وافى كتابك تذكر فيه المليه التى كانت

---

(١٣٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٩ •

للعدو ـ دمره الله ـ عليك فى اليوم الذى واجهته فيه ، بعد أن كان لكم صدره ، وأتيح لكم نصره . فأواخر الامور أبدا أوكد وأهم ، والعواقب هى التى تحمد أو تذم »(١٣٤) ، غير أن الامور لم تلبث أن انقلبت وتحول نصر المرابطين الى هزيمة نكراء فقد فيها المسلمون ما يزيد على اثنى عشر ألفا ما بين قتيل وأسير ، واحتوى العدو على أسلابهم ومتاعهم ودوابهم(١٣٥) . فلما علم على بن يوسف بتلك الهزيمة كتب الرسالة التى أشرنا اليها من قبل الى الامير أبى محمد ابن أبى بكر ، يلومه على تقصيره وتفريطه فى مدافعة العدو ، وفيها يقول « وان لسان العذر لتلك الحال لقصير ، وان الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير ، توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أو فر منه عدة وأكثر جمعا ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعا ، وأقوى دونه دفعا ، فثبت وزللتم ، وجد ونكلتم ، وشد عقد عزيمته وحللتم ، وكنتم فى تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعا منكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذى أسلمتموه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم درئية للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهورا ، وأجبنهم وجوها ونحورا ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولا عندكم فى الرشد روية ولا بديهية ، فمتى وأى وقت

---

(١٣٤) أورد هذه الرسالة أ.د.حسين مؤنس فى مقاله (الثغر الاعلى فى الاندلس) ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، كما أورد عبد الله عنان فى باب الوثائق من كتابه عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢ .

(١٣٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١١ .

تفلحون : ولأى شىء بعد ذلك تصلحون ؟ »(١٣٦) .

وهناك رسالة أخرى وجهها أمير المسلمين الى قاضى بلنسية وأعيانها وأهلها عند وصول الفونسو المحارب اليها ، ونستدل منها على أن الفونسو بعد انتصاره فى موقعة القلاعة ، تقدم نحو الشمال فى قلب ولاية بلنسية واكتسحت قواته بلدة قليرة الساحلية Cullera (١٣٧) واقتربت من ثغر بلنسية ، فاضطر قاضى هذه المدينة الى الاستنجاد بالأمير على بن يوسف فى رسالة رد عليها بكتابه الصادر من مراكش فى شعبان سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م) ، وفى هذه الرسالة يلمح على بن يوسف بالهزيمة المخزية التى تلقاها عسكره فى القلعة بسبب تخاذلهم وعدم أخذهم بنصحه ، ثم يعد أهل بلنسية بالدفاع عنهم وعدم تركهم لمصيرهم ويذكر أنه أمر ولاته بالتعجيل بالدفاع وتخليصها من العدو فى أقرب وقت ، ويختتم رسالته بالدعاء الى الله بشد أزرهم وصمود جبهتهم واسباغ الالفة عليهم(١٣٨) . وعلى الرغم من أن الفونسو كان بمقدوره مضايقة بلنسية بالحصار المتصل وانتساف المزارع والعمران ، فقد اكتفى بما قام به عسكره من أعمال التخريب والعيث والفساد ، دون أن يهدف الى مهاجمة ثغر بلنسية بنفسه .

انتصار المسلمين الثالث فى افراغة

انتهز الفونسو المحارب فرصة وفاة الملكة دونيا أوراكة وتنصيب ولدها الشاب الفونسو ريموندديس على مملكة قشتالة وظن أنه يستطيع

---

(١٣٦) أنظر نص الرسالة فى مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١٢٩ ــ ١٤٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٤١ ــ ٥٤٢ .

(١٣٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١١ .

(١٣٨) أورد رسالة أمير المسلمين الى أهل بلنسية أ.عبد الله عنان فى باب الوثائق من كتابه عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤٣ .

بالحرب أن ينتزع أكبر عدد من حصون قشتالة اليه ولم يلبث أن دخل مع ريموندیس فی حرب طويلة المدى دامت على نحـو متقطـع مدة أربع سنوات وانتهت بعقد هدنة بين مملكتى أرغون وقشتالة فى سنة ١١٣٠م ، وبمقتضاها تنازل ملك أرغون عن الحصون التى كان قد انتزعها من مملكة قشتالة مقابل ولاية « ريوخا » التى تنازل عنها الفونسو ريموندیس ، وكان الفونسو السادس قد انتزعها من نبرة(١٣٩) . ولم يلبث الفونسو المحارب بعد انتهائه من هذا الصراع مع قشتالة أن شغل بحروب أخرى فى جنوبى فرنسا ، انتهت باستيلائه على بلدة بيونة ، وكان المسلمون قد استغلوا فرصة اشتغاله بحروبه فى قشتالة وجنوبى فرنسا لشن غاراتهم من لاردة وطرطوشة على أراضى أرغون وامارة برشلونة ، ولعل ذلك كان من العوامل التى دفعت الفونســو المحارب الى تصفية خصـومانه مع الفونسو ريموندس والتفرغ لتنفيذ مشروعاته القديمة ضد المرابطين ، وكان يستهدف قبل كل شىء الى استكمال سيطرته على بقية الثغر الأعلى وهو أمر يحقق له حلمه القديم فى وصل مملكة أرغون بالبحـر الابيض المتوسط وضمان سلامة الملاحة فى نهر أبرة ، وعلى هذا الاساس عزم على ضم سائر المدن الواقعة ما بين نهرى الزيتون وشيقر وأهمها لاردة وافراغة ، بالاضافة الى ثغر طرطوشة الواقع على مصب نهر ابرة ، لذلك أخذ يتأهب لتنفيذ مخططه فأعد حشود هائلة اشترك فيها عدد كبير من الفرنجة على نحو ما حدث عند استيلائه على سرقسطة ، وكان من المنطقى أن يبدأ بمهاجمة المدن الداخلية الواقعة بين النهرين سالفى الذكر ، فشرع بمهاجمة مدينة مكنسة وتمكن من الاستيلاء عليها فى أواخر سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) بعـد أن قاومتـه طويلا ثم اتجه الفونســو بعد ذلك الى

---

(١٣٩) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص١٦٠ - ١٦٢ .

الاستيلاء على مدينتى افراغه ولاردة ، وكان الاستيلاء عليهما أمرا عسيرا للغاية سيما افراغه لموقعها المنيع فى نهاية ربوة عالية وعرة المسالك لاترام(١٤٠) .

وكان قادة المرابطين بعد وقوفهم على حقيقة نوايا الفونسو المحارب قد قرروا تهدين امارة برشلونة ليتفرغوا لمواجهة تحركات ملك أرغون ، ولهذا فقد عقدوا الصلح مع رامون بيرنجير الثالث أمير برشلونة مقابل جزية سنوية مقدارها اثنى عشر ألف دينار ، فلما علم الفونسو المحارب بهذا الصلح غضب وصرح بقوله : « هؤلاء الفعال الصناع يؤدون الاتاوة للصانع الفاعل ، ولو أعطونى أنا درهما واحدا لأخذته ، ويعلم أنى قهرتهم وغلبتهم وحلف بايمان مغلظة عنده لأنزلن على تلك البلاد التى يؤدين عليها الجزية ، فأصيرها فى ملكى ، وأقطع عن الفاعل الصانع البرشلونى ، حتى يعلم أهل الارض أنى قهرتهم فى كل وجه »(١٤١) .

فرض الفونسو المحارب الحصار على مدينة افراغة فى رمضان سنة ٥٢٨هـ (يوليه ١١٣٤م) ويؤكد الحميرى أن ابن ردمير (الفونسو المحارب) آلى على نفسه ألا يبرح افراغه حتى يأخذها عنوة(١٤٢) ، فقاومته حاميتها وصمد أهلها لحصاره بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش فلما ضيق عليهم الفونسو الخناق ونضبت مواردهم كتبوا الى أبى زكريا يحيى بن على بن غانية والى مرسية وبلنسية ، بطلب الانجاد والاقوات ، وأنذروه فى كتابهم بأنه اذا لم يسرع لنجدتهم سلموا

---

(١٤٠) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٤ .
(١٤١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ .
(١٤٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٤ .

مدينتهم لابن ردمير « فلما قرأ كتابهم حشد حشوده ، وأعتق عبيـده ، وكتب وصيته ، فقال له بعض خاصته تغزو بهذا العسكر وليس للمسلمين عسكر بالأندلس سواه ؟ فكيف تلقى على بن يوسف بعد اليـوم وقد انهزمت ؟ فقال لهم فليصنع بى ما شاء »(١٤٣) ، كما هرع الى نجـدة افراغة الزبير بن عمرو اللتمونى من قرطبة فى ألفى فارس ومعه كميـات وفيرة من المؤن والاقوات ، كما هرع اليها عبد الله بن عياض والى لاردة فى مائتى فارس(١٤٤) .

كان الفونسو المحارب مصرا على افتتاح افراغة مهما كلفه الامر ولهذا أقسم تحت أسوارها أن يفتتحها ، واذكاء لحماس عسكره ، أمر باحضار رفات القديسـين وأن يتـولى الاسـاقفة والرهبان القيـادة اقتـداء بالقواميس(١٤٥) وما كادت قوات المرابطين القادمة من بلنسية ومرسية ولاردة تصل الى افراغة حتى دارت معـركة ضـارية بين قوات أرغون وحلفائهم وبين عسكر المرابطين وتشير الرواية العربية الى أن الفونسو المحارب استهان بقوات المرابطين القادمة لنجدة افراغة واكتفى بأن سير فرقة من عسكره لمقارعة المسلمين ، فلما اقتربوا منهم تصدى لهم عبد الله بن عياض والى لاردة ، وأوقع بهم الهزيمة ، فلما عاين الفونسو انهزام فرقته لم يتردد فى أن يمضى على رأسه قواته لمقاتلتهم فتصدى له يحيى بن غانية وعبـد الله بن عيـاض ، ودارت معركة عنيفة مروعة وأذرع المسلمون فى صفوف النصارى وقتلوا منهم أعدادا هائلة فانتهـز أهل

---

(١٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٠ ، ص ٢٢١ .
(١٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .
(١٤٥) ابن القطان ، المصدر السـابق ، ص ٢٢٢ ، أشـباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

افراغة الفرصــة وفتحوا أحد أبواب مدينتهم ، وتدفقوا من خــلاله ثم انقضوا على عسكر الارغونيين وسحقوهم سحقا ، واستولوا على ما فى المعسكر من المؤن والسلاح والعدد وانتهت المعركة بهزيمة نكراء منى بها الفونسو المحارب وعسكره(١٤٦) • وتشير الرواية المسيحية الى أنه على أثر وصول الجيش الاسلامى الى افراغه ، اشتبك معهم النصــارى فى معركتين ، دارت الدائرة فيهما على المسلمين ، فدب اليأس فى نفوس أهل افراغه وعرضوا على الفونسو المحــارب تسليم مدينتهم مقــابل بعض الشروط ولكن الفونسو أبى الا أن يدخلها بالسيف ، فثارت نفوس أ' هالى وبلغ بهم الحماس مبلغا كبيرا فاندفعوا على قوات النصارى يقــاتلون قتال الموت ، فنصبوا كمينا استدرجوهم اليه ثم انقضوا عليهم ومزقوهم شر ممزق ، وتحولت الهزيمــة الى نصر وأصبح المسلمون يملكون زمام المعركة واثخنوا فى عسكر النصارى فهلك منهم عدد هائل من بينهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفا روطة ووشقة وقسم كبير من الجيش(١٤٧) •

وأيا ما كان الأمر فقد كانت موقعة افراغة فى رمضان سنة ٥٢٨هـ(١٤٨) من المواقف المشرقة لدولة المرابطين وصفحة مشرقة فى تاريخهم العسكرى ، ولم تكن فى أهميتها أقل من وقعة الزلاقة اذ حققت للمرابطين انتصــارا حاســما •

---

(١٤٦) ابن القطان ، نفسه ، ص٢٢٢ ، ابن الاثير الكامل ، ص ٣٥١ ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١١٩ ، عنان ، عصر المرابطين،ص١٧٣ •

(١٤٧) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ ، وأنظر أيضــا مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٧٣ •

(١٤٨) تختلف المصادر العربية فى تحديد تاريخ معركة افراغة ، فابن القطان يضعها فى عام ٥٢٩هـ ، وابن الاثير فى عام ٥٢٩هـ ، ابن عذارى فى=

وتختلف الرواية الاسلامية والمسيحية حول مصير الفونسو المحارب فالرواية الاسلامية تشير الى أن الفونسو قد مات مهموما بعد المعـركة بعدة أيام أو شهور . فابن القطـان يقول : « وفر اللعين ابن رذمير فى شرذمة قليلة جدا ولحق بمدينة سرقسطة واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها الى وشقة ، فأقام بها مختبلا أشهر قليلة ، وحان أجله الى نار الله الحاميـة »[١٤٩] ، وفى حين يؤكد ابن الاثير أنه لحق بمدينـة سرقسطة ، فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة[١٥٠] ، ، أما ابن عذارى فيؤكد أنه بقى أياما بعد المعركة ومات بسبب مرض أصابه[١٥١] ، ولا يحدد عبد المنعم الحميرى الفترة التى قضاها حيا بعد هزيمته فى افراغه ، ويكتفى بالاشارة الى أنه آوى الى حصن خرب فى رأس جبل شاهق ، مع من بقى معه من فلول جيشـه ، ثم تسلل من هذا الحصن أثناء الليل عندما أحدق به المسلمون[١٥٢] أما الرواية المسيحية فتختلف هى الأخرى فى تحديد مصير الملك الفونسـو

عام ٥٢٨ هـ ، والحميرى فى عام ٥٢٥ هـ . أما الروايات المسيحية فتجعلها فى السابع عشر من يوليه سنة ١١٣٤م وهذا التاريخ يوافق رمضان٥٢٨هـ .

أنظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٣٥١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٤ ، أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٤ .

Codera, Dec. Y Des. de Los Almoravides en Espana p. 16-18; Lofuente (M); Historia general de Espana, p. 243; Miranda, Historia Musulmana De Valencia, vol, III, p. 82-84.

(١٤٩) ابن القطان ، نظه الجمان ، ص ٢٢٣ .

(١٥٠) ابن الاثير الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .

(١٥١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٣ .

(١٥٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٥ .

المحارب ، فهناك مؤرخ قطلانى معاصر للأحداث يؤكد أن الفونسو فـر عقب هزيمته بصحبة فارسين ، ولاذ بدير القديس « خوان دى لابنيا » بسرقسطة ، حيث أمضه الحزن واعتصره الألم فمات بعد مضى ثمانيـة أيام فقط من الوقعة فى ٢٥ يوليه سنة ١١٣٤م(١٥٣) ويتفق هذا المؤرخ فى روايته مع رواية ابن الاثير فيما يتعلق بلجوء الملك الفونسو المحـارب الى سرقسطة • وهناك رواية مسيحية أخرى خلاصتها أن الفونسـو لما عاين الكارثة التى أصابت جيشه فكر فى أن يقذف بنفسه فى المعمعة ليلقى حتفه ولكن أسقف أرقلة نهاه عن ذلك ، ففر بصحبة ستين من فرسـانه لم ينج منهم سوى عشرة ، ثم أنه حشد حشودا أخرى من فلوله عاد بهم الى ساحة المعركة على وجه السرعة تجنبا للهزيمة الا أنه لم يلبث أن وقع فى كمين نصبه له المسلمون فى ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤م (٥٢٨هـ) ، فسقط صريعا فى ميدان القتال وقتل معه نحو ثلاثمائة من فرسانه(١٥٤) • ونرجح أن تكون الروايات الاسلامية أقرب الى الحقيقة التاريخية ، فمن المعقول أن تكون وفاته قد حدثت بعد الهزيمة بفترة من الوقت اما أن يموت فى ساحة المعركة دون أن يعثر على جثته بين جثث الضحايا فأمر مستغرب ، وقد دفع ذلك بعض البـاحثين الى الاعتقـاد بأنه توفى بعـد هزيمتـه فى افراغه(١٥٥) •

وباختفاء صورة الفونسو المحارب من مسرح الاحداث السياسية فى

---

(١٥٣) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٥ • وانظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢٤ •

(١٥٤) أشباخ ، المرجع السابق ، نفس الصفحة •

(١٥٥) Codera, Dec. Y Des. — 19; Terrasse, Histoire du Morac, vol, III, p. 245.

الاندلس تلاشى الخطر الذى كان يتهدد بقية قواعد الثغــر الأعلى الى حين . والحقيقة أن الفونسو الاول المحارب كان من أعظم الشخصيات البطولية فى تاريخ أسبانيا المسيحية ، فاسمه يقترن بفتح سرقسطة ، كما أن اسم الفونسو السادس ملك قشتالة يقترن بفتح طيطلة ، ولهذا عد من عظام ملوك أسبانيا المسيحية ، ولا يختلف مؤرخو العرب فى نعته بشدة البأس والمثابرة على حرب المسلمين[١٥٦] .

أما فيما يتعلق بالآثار التى ترتبت على انتصار المرابطين فى افراغه فأولها أنه أعاد للمرابطين هيبتهم العسكرية وأبرز بعض قادة المسلمين ومنهم يحيى بن غانية بطل افراغة . وثانيها أنه أبعد شبح الخطــر عن الاندلس لبعض الوقت وأوقف حركة المد المسيحى على حساب أراضى الاسلام ، على أن المرابطين أخطئوا فى عدم افادتهم من هذا الانتصار الساحق ، وكان فى وسعهم أن يستردوا سرقسطة نفسها لو أنهم عجلوا بمحاصرتها فور وفاة ملك أرغون وارتباك صفوف عسكر النصرانية فى أعقاب الهزيمة ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وبذلك فوتوا فرصـــة ذهبية ، وكما يذكر الاستاذ عنان ارتكبوا خطأ عسكريا فادحا فى احجامهم عن استرداد سرقسطة[١٥٧] .

---

(١٥٦) وقد وصف ابن الاثير الفونسو المحارب فقال : (وكان من أشد ملوك الفرنج بأسا ، واكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا) .
نظر : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .
(١٥٧) عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢٦ .

مع مملكة البرتغـــال

فى نفس الوقت الذى كانت فيه الجيوش المرابطية تحاصر طليطلة فى عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) ، وجه الامير على بن يوسف فى بداية سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) حملة بقيادة الامير سير بن أبى بكر اللمتونى والى اشبيلية صوب الغرب الى أراضى البرتغال(١٥٨) . وكانت هذه المملكة النصرانية الجديدة الناشئة فى كنف قشتالة قد بدأت فى ظل أميرها هنرى البرجونى Enrique de Borgona صهر الفونســو الســادس ملك قشتالة وزوج تريسا ابنته غير الشرعية تنمو وتقوى سريعا ، وكانت قاعدتها يومئــذ مدينة قلمرية ، وقد استغل البرتغاليون حالة الركود السياسى التى سبقت وفاة يوسف بن تاشفين وأخذت تنتهج سياسة توسعية فى غرب الاندلس فاستولت على عدد من قواعد الغرب مثل يابرة وشــنترة وشنترين(١٥٩) بل ان صاحب روض القرطاس يذكر أن سير بن أبى بكر والى اشبيلية تمكن فى عام ٥٠٤هـ (١١١٠م)من استرجاع بطليوس والبرتغال ويابرة وشنترين وأشبونة(١٦٠) ، وينكر الاستاذ محمد عبــد الله عنان فتــح بطليوس ويؤكد أنها ظلت منذ سقوط أسرة بنى الافطس تابعــة لدولة المرابطين ، أما مدينة البرتغال فلم يحدث أن افتتحتها قوات المرابطين فى هذه الحملة المذكورة ولم تصل قواتهم اليها(١٦١) .

---

(١٥٨) ابن ابى زرع ، روض القــرطاس ، ص ١١٢ ، الســلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١٢٥ .
(١٥٩) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٣٩ .
(١٦٠) ابن أبى زرع ، ص ١١٢ .
(١٦١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص٧٠ .

وأيا ما كان الأمر فقد توغل سير بن أبى بكر فى أراضى البرتغال وتمكن من استرجاع مدن يابرة وأشبونة وشنترة وشنترين[١٦٢] ، هذا وقد وصلت الينا رسالة وجهها سير الى على بن يوسف يبشره فيها بفتح مدينة شنترين ويبين له أدميتها جاء فيها « وهذه القلعة التى انتهينا الى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمدا للعيون وأخصبها بلدا فى السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها تحت الثرى راسخة ، تباهى بأزهارها نجوم السما ، وتناجى بأسرارها أذن الجوزا ، مواقع القطار فى سواها مغبرة مربدة ، وهى زاهرة ترف انداؤها ، ومطالع الانوار فى حشاها مقشعرة مسودة وهى ناضرة تشف أضواؤها ، وكانت فى الزمن الغابر ، أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مددا ، فأبت على طاعته كل الاباء ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصاء ، ومردت مرود مارد على الزبا ، فأمكننا الله تعالى من ذروتها ، وأنزل ركابها لنا عن صهوتها »[١٦٣] ولم يكتف سير بما حققه من انتصارات وفتوحات ، بل واصل تقدمه نحو الشمال حتى وصل على مقربة من مدينة قلمرية عاصمة المملكة[١٦٤] .

وكانت للهزائم المتتالية التى تلقاها المرابطون فى الاندلس على أيدى القشتاليين وخاصة فى سنوات ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩هـ أسوأ الاثر فى نفسية الامير على بن يوسف فصمم على العبور بنفسه على رأس قواته الى

---

(١٦٢) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١١٢ ، السلاوى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، أشباخ ، المرجع السابق ، ص ١٤١ ، عنان ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٦٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٧ ، ١٨٧٨ .

الاندلس ، وقد قضى فصلى الخريف والشتاء لحشـد الجيوش والتزود بالسلاح والعدد والآلات ؛ فلما اكتمل له ذلك جاز الى الاندلس فى أواخر المحرم سنة ٥١١هـ (مايو ١١١٧م) ، ووفقا لرواية صاحب البيان المغرب توجه فور عبوره المجاز الى مدينة اشبيلية حيث وافته قوات المغـرب والاندلس ، كما أقبلت اليه وفود الفقهاء والعلماء من قرطبة وجمـوع هائلة من غرناطة(١٦٥) ، فلما تكاملت الحشود خرج بها لغزو مدينة قلمرية بالبرتغال ، فلما وصل الى أحوازها شرع فى أحكام الحصار عليها ابتـداء من ٢٨ من المحـرم سنة ٥١١هـ واستمر يحـاصرها ٢٠ يوما حتى ١٨ صفر(١٦٦) ، ونستدل من الرواية النصرانية أن عليا تمكن من اقتحامها عنوة فى ١٨ صفر المذكور(١٦٧) ، كما نستدل من رواية ابن عذارى على أنه افتتح قلمرية بالفعل ولكنه لم يحتفظ بها طويلا فما كاد ينصرف عائدا الى اشبيلية حتى استردها البرتغاليون ، كذلك يؤكد ابن عذارى أن قوات المرابطين بقيادة كل من عبد الله بن فاطمة ، والمنصور بن الافطس غزت منطقة الغرب وأثخنت فى أراضى النصارى وألحقت بها الخراب والدمار ثم عادت الى اشبيلية مثقلة بالسبى والغنائم(١٦٨) .

---

(١٦٤) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٤١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠ .

(١٦٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ٦٤ وانظر أيضا ميراندا على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، ص ١٦٨ .

(١٦٦) ابن عذارى ، المصـدر السـابق ، ص ٦٤ ، ميراندا ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(١٦٧) Codera, Dec. Y Des. p. 22-23.

(١٦٨) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٤ .

والمنصور هذا هو ولد عمر المتوكل بن الافطس صـاحب بطليوس على عصر الطوائف وكان المنصـور قد فر هاربا الى قشـتالة عقب دخول المرابطين بطليوس وقتلهم لوالده وأخويه وذكروا أنه اعتنق النصرانية ولكنه لم يلبث أن عاد الى طاعة امير المسلمين ، فرحب به وأكرمه ، وجعله قائدا لاحدى فرق عسكر المرابطين .

راجع(ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، عنـان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠) .

مع قطلونيـــة

في صفر سنة ٥٠٨هـ (١١١٤م) خرج القـــائد المرابطى الكبـــير (أبو عبد الله محمد بن الحاج والى سرقسطة على رأس حملة موجهة ضد امارة برشلونة وكانت هذه الامارة تابعة آنذاك للأمير رامون بيرنجير الثـــالث Roman Berenger III وانضـــم القـــائد المرابطى محمـــد بن عائشة الى قوات ابن الحاج فى تلك الغزوة ، وفى أثنـــاء زحفهما الى برشلونة ، مرت هذه القوات بحصن ثرفيرا Cervera فخربته ، كما أغارت على ظاهر برشلونة فدمرت أرباضها وانتسفت زروعها وغنمت غنـــائم كثيرة ولكنها أخفقت فى الاستيلاء على برشلونة لحصانتها(١٦٩) ، ثم واصل ابن الحاج زحفه غربا بعد أن أرسل السبى والغنائم مع القسم الأكبر من جيشه لتعود من الطريق الرئيسى الكبير فى حين سلك هو بمن معـــه من العسكر طريقا جبلية ضيقة تؤدى مباشرة الى سرقسطة ولكنه ما كاد يقطع مسافة من هذا الطريق حتى أطبق عليه عدد كبير من قوات النصارى ترصدت له فى كمين ، فقاتلهم قتالا ضاريا حتى سقط صريعا ، فاستشهد كما استشهد معه معظم قواته ، ولم ينج سوى ابن عائشـــة فى قلة من أصحابه وان كان قد أصيب اصابة أفقدته بصره فيما بعد ، وتعرف هذه

---

(١٦٩) مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى فى عصر المرابطين ، ص ١١٢ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراســات الاسلامية فى مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ـ ٢ ، ١٩٥٩ م ، ص ١٢٨ .

المعركة فى المصادر العربية بموقعة البورت[١٧٠] ، بينما يعرفها مؤرخو المسيحيين باسم كونجست دى مارتوريل Congest del Martorrell[١٧١]، ما كاد على بن يوسف يبلغه ذلك حتى بادر بتقليد صهره الامير أبى بكر بن ابراهيم بن تافلويت المسوفى والى مرسية ولاية بلنسية وطرطوشة وسرقسطة ، وأمره بالسير لغزو برشلونة انتقاما لمقتل ابن الحاج ، فجمع ابن تافلويت سائر قواته واتجه بهم شمالا الى برشلونة مخترقا بلاد قطلونية ناشرا الدمار فى كل موضع تطرقه قواته الى أن وصل الى برشلونة فحاصرها مدة عشرين يوما ، واضطر أميرها رامون بير نجير الى الخروج لقتالته فى قوات برشلونة وأربونة واشتبك الفريقان فى قتال عنيف أسفر عن مقتل عدد كبير من عسكر الجانبين وبلغت خسائر المسلمين نحو سبعمائة قتيل ، واضطر المسلمون بعدها الى الانسحاب نحو دار الاسلام[١٧٢] .

---

(١٧٠) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ص ٢٩ ، وانظر أيضا ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦١ .

(١٧١) Codera, Dec. Y Des. p. 20-22.

مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، ص ١١٢ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٥ .

(١٧٢) مؤنس ، الثغر الاعلى ، ص ١١٢ ، ص ١١٣ ، ميراندا ، على بن يوسف ص ١٦٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٥ .

(ب) العلاقات بين المرابطين والصنهاجيين فى المغرب الادنى والاوسط

مع بنى زيرى فى المغرب الادنى

من المعروف أن كلا من الزيريين والمرابطين صنهاجيون فهم ينتمون الى قبيلة صنهاجة البربرية ، بل كان يطلق عليها الزيريين صنهاجة الشمال ، وعلى المرابطين صنهاجة الجنوب ، ونظرا لتلك الصلات القبلية التى تجمع بينهما ، فان المرابطين عندما شرعوا فى توسيع دائرة نفوذهم السياسى فى المغرب اقتصروا على القسم الغربى من المغرب الاوسط تجنبا للاصطدام مع بنى عمومتهم بنى زيرى فى المغرب الاردنى وبنى حماد فى القسم الشرقى من المغرب الاوسط .

وهكذا سادت العلاقات بين دولة المرابطين ودولة بنى زيرى روح الود والصداقة وتنعكس هذه العلاقات فى الكتاب الذى وجهه يوسف بن تاشفين الى تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف له فيه جهوده فى فتح بلاد المغرب وجوازه الى الاندلس لجهاد النصارى ، وانتصاره على الفونسو السادس ملك قشتالة فى موقعة الزلاقة المشهورة عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)(١٧٣) ، كما تتجلى هذه العلاقات الودية فى استعانة الزيريين بأسطول المرابطين لمواجهة الخطر النورمندى الذى كان يتهدد سواحل الدولة الزيرية ، وكان النورمنديون قد استقروا بادىء ذى بدء

---

(١٧٣) انظر نص هذا الكتاب الذى أرسله يوسف بن تاشفين الى تميم بن المعز بن باديس ، لآ باب الوثائق من كتاب دول الطوائف ، للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص ٤٤٦ ــ ٤٥٠ .

فى قلورية ، ثم بدأوا يتدخلون فى شئون صقلية عندما استنجد بهم ابن الثمنة الملقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani ضد صهره القائد ابن الحواس على بن نعمة صاحب قطانية وسرقوسة ، سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م) ، وأسفر دخول النورمانديين على مسرح أحداث صقلية عن ضياع هذه الجزيرة من أيدى المسلمين ، اذ تمكن روجار الاول من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجيا الى أن تمكن فى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧١م) من تلك الجزيرة كلها باستثناء قصريانة التى سقطت نهائيا فى سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) • ومن صقلية تطلع النورمنديين للسيطرة على المهدية(١٧٤) •

وكانت العلاقات قد ساءت بين الزيريين والنورمنديين على عهد الامير على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وكان سبب ذلك خلافا حدث بين الامير الزيرى ورافع بن كامل بن جامع الرياحى واليه على مدينة قابس ، بسبب رغبة الاخير فى احتكار التجارة البحرية ، وكان رافع قد حصل على موافقة الامير يحيى بن تميم ومساعدته على القيام باحتكار التجارة البحرية ، ومع ذلك فان على بن يحيى بن تميم لما تولى الحكم عارضة فى هذا المشروع وقال : « لا يكون لأحد من أهل افريقية أن يناوئنى فى اجراء المراكب فى البحر بالتجار » وأدى الخلاف بينهما الى خروج على بن يحيى لحصار رافع فى قابس سنة ٥١١هـ (١١١٧م) فاضطر رافع الى الاستعانة برجار الثانى صاحب صقلية وطلب نصرته ولم يتردد رجار فى العمل على مساعدته وأمد رافع بأسطول صقلى يتكون من ٢٤ سفينة أغار به على المهدية ، فلما علم على بن يحيى بخروج هذا الاسطول النورمندى ، أخرج أسطوله من قاعدته البحرية

---

(١٧٤) انظر : سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٧٤ •

المهدية وأبحر به نحو قابس ، وتمكن على بن يحيى من أيقاع الهـزيمة بأسطول صقلية[175] ، فبادر هذا الاسطول الصقلى بالانسحاب ، وعلى أثر ذلك ترك على بن يحيى حصار قابس وعاد مرة أخرى الى المهـدية ، غير أن رافع لم يلبث أن تمادى فى معارضته لعلى بن يحيى وجمع قبائل العرب ثم زحف بهم حتى نزل على المهدية وأحكم عليها الحصار ، ولكن الأمير الزيرى لم يتردد فى اخراج عسكره لملاقاة قوات رافع ، فحملوا عليهم حملة عنيفة ، وألحقوا بهم الهزيمة ، فلمـا عاين رافع عدم قدرته على مواجهتهم انسحب ليـلا الى مدينـة القيروان ، فمنعه أهلهـا من دخولها ، فقاتلهم أياما قلائل ثم دخلها ، فأرسـل على بن يحيى اليـه عسكرا من المهدية ، حاصروه بها الى أن خرج عنها وعاد الى قابس ، ثم أن جماعة من زعماء افريقية من العرب وغيرهم ، سألوا عليا فى الصـلح مع رافع ، فامتنع ثم لم يلبث أن وافق وتم عقد الصلح بينهما[176] .

كانت استجابة رجار الثانى السريعة لمساعدة رافع بن مكن عاملا فى تدهور العلاقات النورمندية الزيرية ، فقد أخذ كل منهما يتحـرز من الآخر ، وعمد رجار الى مجافاة على ، فقد ذكر ابن عذارى أن رجـار صاحب صقلية أرسل فى عام ٥١٢هـ رسـولا الى الامير على بن يحيى « يلتمس تجديد العقود . وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له موقفة

(١٧٥) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٧٨ ، ص ٢٧٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٠ ، سالم ، المغـرب الكبير ، ص ٦٧٧ ، ص ٦٧٨ .

(١٧٦) ابن الاثير ، الكـامل ، ج٨ ، ص ٢٧٨ ص ٢٧٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٠ ، امبرتوريتسيتانو ، العلاقات بين النورمنديين وبنى زيرى من الفتح النورمندى لصقلية حتى وفاة روجيرو الثانى ، فصله من مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ج ١ ، مايو ١٩٤٩م ، ص ١٣ ، ص ١٤ .

بالمهدية وذلك بعنف وغلظة • فرد على رسوله دون جواب وجبهه بالقول ، فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار »(١٧٧) • ومنذ ذلك الحين شرع على بن يحيى فى دعم أسطوله وتقويته واعداده ليكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أى تهديد من جانب النورمنديين ، كما كاتب فى نفس الوقت المرابطين بمراكش للاجتماع معه على دخول صقلية ، وكف رجار عما يعتزمه(١٧٨) •

توفى الامير على بن يحيى فى عام ٥١٥هـ (١١٢١م) وخلفه ابنه الحسن آخر أمراء بنى زيرى ، وحدث فى أوائل عهده أن قام أبو عبد الله ميمون أمير البحر المرابطى فى عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) بالاغارة على جزيرة صقلية ، فافتتح مدينة نقوطره Nicotera من عمل رجار الثانى صاحب صقلية ، وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها • فلم يشك رجار أن المحرك لذلك والمسبب له « هو الحسن بن على أمير افريقية لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة ، فاستقر أهل بلاد الروم قاطبة ، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة ، فعلم بذلك الحسن بن على ، فأمر بتشييد الاسوار ، واتخاذ الاسلحة ، وحشد القبائل ، واستقدام العرب ، فجاءت الحشود من كل جهة ومكان ، والناس متأهبون لما يطرقهم منهم »(١٧٩) •

جعل رجار الثانى جرجى الانطاكى ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز

---

(١٧٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ •

(١٧٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٣١٢ ، ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٧ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٧٨ •

(١٧٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، وانظر أيضا سالم ، المرجع السابق ، ص ٦٧٨ ، ص ٦٧٩ •

على قيادة تلك الحملة النورمندية على المهدية . وكان جرجى هذا وأبوه ميخائيل من نصارى أنطاكية . وكان قد التحق ببلاط الامير تميم بن المعز بن باديس ، ولما توفى الامير تميم رحل جرجى الى صقلية حيث استخدمه الملك رجار الثانى فى بلاطه واستقبله أحسن استقبال ، ولم يكتف بذلك بل عهد اليه بكثير من المهام التجارية والحربية وأسند اليه قيادة أسطوله(١٨٠) . خرجت حملة رجار الثانى فى نحو ثلاثمائة جفن تحمل ثلاثين ألف من المشاة وألف فرس . وفى أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣م) وصل الاسطول الصقلى الى ساحل افريقية فافتتح جرجى جزيرة قوصرة . ثم قصد بأسطوله الى ساحل المهدية ، واستولى على جزيرة الاحاسى وقصر الديماس فى الثانى من جمادى الآخرة . بيد أن المسلمين تمكنوا من دخول جزيرة الاحاسى ، فانهزم الروم الى سفنهم ، ثم حاصر المسلمون قصر الديماس . فاضطر عسكر صقلية الى طلب الامان من الامير الحسن بن على ، ولكن العرب الذين اشتركوا فى تحرير الجزيرة رفضوا ذلك . فخرج الصقليون من القصر فى منتصف جمادى الآخرة . فأخذتهم السيوف ، وأبيدوا عن آخرهم . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم فى السفن عائدين الى صقلية(١٨١) .

وقد أشاد الشاعر الكبير ابن حمديس الصقلى بانتصارات المسلمين، وبالهزيمة التى منى بها أولئك الذين جرؤا على مهاجمة المهدية ، فقال مخاطبا الامير الحسن بن على :

---

(١٨٠) ابن خلدون . العبر . ج ٦ . ص ٢٣٠ ، ص ٣٣١ ، امبرتوريتسيتانو ، العلاقات بين النورمنديين وبنى زيرى ، سالم . المغرب الكبير ، ص ٦٧٩ .

(١٨١) ابن عذارى . البيان . ج ١ . ص ٣٠٩ . ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ . سالم . المغرب الكبير . ص ٦٧٩

أبى الله ألا يـــكون لك النصر وان يهدم الايمان ما شاده الكفر
وأن يرجع الاعلاج بعد علاجهـا خزايا على آثارها الذل والقهـر

وقال أيضـــا :

أتـوا بأســاطيل تمر كأننهـــــا جراد مظل ضاق عن عرضه البحر
وخيل حشوا منها السفين ولميكن لها فى مجال الحر كـر ولا فـر
وقد ركبت فرســـانها صهوتهـا فأرجلهم عنهـا التذلل والذعـر
فسل عنهم الديماس تسمعحديثهم فهم بالمواضى فى جزيرة جـــزر
وما غنمـوا الا منى كذت لهـم وكانلهم بالقصرعن نيلهاقصر(١٨٢)

والظاهر أن الحسن بن على أرسل أثناء الحصار البحرى الذى فرضه الاسطول الصقلى على المهدية ؛ فى طلب العون من أمير المسلمين على بن يوسف ، فسارع هذا بارسال أسطول للمرابطين بقيـادة عبـد الله بن ميمون ، والظاهر أيضا أن هذا الاسطول المرابطى قد وصل الى سواحل المهدية عقب هزيمة الصقليين وفرارهم الى بلادهم ، فلم يشأ ابن ميمون أن يعود الى بلاده خالى الوفاض ؛ دون أن يقوم بعمل ما يثاب عليه،فلم يتردد فى الاغارة على جزيرة صقلية ، والعيث فى نواحيها ، وقفل عائدا الى قواعده يحمل معه عددا كبيرا من السبايا(١٨٣) .

أدرك رجار الثانى بعد فشل حملته على المهدية وما أعقبها من اغارة

---

(١٨٢) ابن حمديس الصقلى ، الديوان ، صححه وقدم له احسان عباس . طبعة بيروت ، ١٩٦٠م ، قصيدة رقم ١٤٣ ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٧ .

(١٨٣) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) : الرحلة ، قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب ، طبعة تونس ، ١٩٥٨م ، ص ٣٣٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .

الاسطول المرابطى على صقلية أن الفرصة غير مناسبة للاستيلاء على المهدية وتقويض دعائم الدولة الزيرية ، ويشير التجانى الى أن رجار الثانى كان يعتقد بأن كل اغارة يقوم بها أسطول المرابطين على سواحل صقلية ، انما تتم بتحريض الامير الحسن بن على(١٨٤) ، وفى هذا دلالة واضحة على أن الاسطول المرابطى كان دائم الغزو لصقلية ، كذلك يشير التجانى الى التعاون العسكرى الوثيق بين المرابطين والزيريين • ومن الواضح أن الاسطول المرابطى لا يمكنه أن يشن تلك الغارات على صقلية الا اذا كان ذلك مقترنا باتفاق مسبق مع الامير الزيرى • وهكذا ظل المرابطون يوفرون سبل الدفاع عن سواحل المهدية الى أن سقطت دولة المرابطين على أيدى الموحدين فى عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) ، فسنحت الفرصة للصقلين بعد ذلك فى الاستيلاء على المهدية فى عام ٥٤٣هـ (١١٤٨م)(١٨٥) •

وهكذا كان الود والتعاون يسودان العلاقات بين المرابطين والزيريين، ولم يحدث بين الدولتين حادث ما عكر صفو هذه العلاقات وواضح أن دولة المرابطين بحكم صلاتها القبلية ببنى زيرى الصنهاجين التزمت سياسة الحياد تجاه الزيريين ، وكان بامكانها أن تضم المغربين الادنى والاوسط اليها على نحو ما فعله الموحدون فيما بعد ولكنها آثرت الجهاد ضد اسبانيا المسيحية من جهة وشغلت بمواجهة حركة المهدى بن تومرت فى المغرب من جهة ثانية ، ومع ذلك فلم تتخل تماما فى سياستها نحو مساندة الزيريين عندما تعرضوا لخطر النورمنديين •

---

(١٨٤) التجانى ، المصدر السابق ، ص ٣٣٩ •

(١٨٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ ؛ المبادىء ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣٢٧ •

(٢)
مع بني حماد في المغرب الاوسط

تم انقسام الدولة الصنهاجية فى افريقية والمغرب الاوسط فى عهـد الامير باديس بن المنصور بن بلكين فى أواخر القرن الرابع الهجـرى الى دولتين : الدولة الزيرية فى افريقية نسبة الى زيرى بن مناد الصنهاجي والدولة الحمادية فى المغرب الاوسط نسبة الى حماد بن بلكين بن زيرى .

ومن المعروف أن حمـاد هذا كان يعمـل منـذ أسـندت اليه ولاية أشير[١٨٦] فى حياة أخيه المنصور بن بلكين على الاستئثار بحـكم هـذه المدينة الهامة ؛ فلما توفى المنصور فى سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م) وخلفه ابنه نصير الدولة باديس وكان صبيا لا يتجاوز من العمر اثنى عشر عاما أقر

---

(١٨٦) اشير مدينة بربرية فى طرف افريقية الغربى ،ويرجع الفصل الاول فى تعميرها الى زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكان زيرى هذا فى بدأ أمره يسكن الجبال ولما نشأ ظهرت منه شجاعة دفعت طائفة من عشيرته الى الانضمام اليه فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر وتمكن من الانتصار عليهم المرة بعد المرة فعظم جمعه وطمع فى الامارة وضاق عليه وعلى صـاحبه مكانهم ، فخرج يرتاد موضعا ينزله ، فرأى اشير وهو موضع مهجور مع كثرة عيـونه وسعة فضائه وحسن منظره ، فاستقدم البنائين من المدن التى حوله وشرع فى انشاء أشير فى سنة ٣٢٤هـ ، وعمل على جعلها حصنا مانعا لا مجال لدخوله الا من جهة واحدة ، ثم انتجعها أهل النواحى المحيطة بها طلبا للامن والسلامة فصارت مدينة مشهورة راجع (ياقوت (شهاب الدين أبى عبـد الله الحموى) معجم البلدان ، طبعة ليبزج ، ١٨٦٧م ، ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٦٠ ، الادريس ، صفة المغـرب والاندلس ، ص ٨٥ .

عمه حماد على ولاية أشـير • وقد كانت حداثة باديس من العـوامل الرئيسية التى دفعت حماد الى الانفصال عن دولة ابن اخيه ، وكان قد اتفق مع باديس فى سنة ٣٨٩هـ (٩٩٨م) أى فى أعقاب انتزاء أعمامه بنى زيرى عليه فى أشـير ، وحركة فلفل بن سـعيد بن خزرون الزناتى فى افريقية وطرابلس على أن يتولى باديس بنفسه محاربة فلفل ، بينمـا يتولى عمه حماد محاربة أعمام باديس الخارجين عليه • وقد قام بالفعل بتنفيذ ما أتفق عليه مع باديس ابن أخيه ، فظل يحارب أعمام باديس حتى تمكن من التخلص من ماكسن بن زيرى وولديه محسن وباديس فى رمضان سنة ٣٩١هـ (١٠٠٠م) أما زاوى بن زيرى وابنا أخيه ماكسن وهما حباسة وحبوس فقد عبروا الزقاق الى الاندلس ولاذوا بعبد الملك بن المنصـور بن أبى عامر وكانوا سـببا فى الفتنة البربرية التى انتهت بسـقوط الخـلافة الاموية فى الاندلس(١٨٧) • وظل الوفاق يسـود العلاقات بين باديس وعمه حماد الى أن تحركت قبائل زناته من جديد فى سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) ، فسير اليهم عمه حماد بعد أن اشترط عليه الاخير أن يعقد له على ولاية أشير والمغرب الاوسـط وكل بلد يفتتحه وألا يستقدمه باديس • واضطر باديس الى قبول هذه الشروط المجحفة ، رغما عنه أمام الخطر الذى يتهدد دولته ويتمثل فى حركة الزناتيين • أما حماد فقد مضى الى محاربة الزناتيين وتمكن من ايقاع الهزيمة بحشودهم ثم أختط مدينة القلعة المنسوبة اليه (قلعة بنى حماد) بجبل كتامة سنة ٣٩٨هـ(١٠٠٧م) وتم بناؤها فى طليعة القرن الخامس الهجرى وشيد فيها القصور والمساجد والفنادق وحاطها بالاسوار وأنزل فيها أرباب الحرف

---

(١٨٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ، سالم تاريخ المسـلمين وآثارهم فى الاندلس بيروت ، ١٩٦٢م ، ص ٣٣٦ ، وانظر أيضا قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ، ص ١٢٠ •

والصناعات[188] ، وجعل حماد مدينة القلعة منزلا ومقرا لولايته ؛ وأخذ يعمل على الاستقلال عن باديس ، وأحس باديس بما يتأهب له حماد ، فأراد أن يختبر طاعتـه فكتب اليه طالبـا أن ينزل عن عمـل تيجس وقسنطينه الى المنصور بن باديس ولى العهد فأبى حماد وأظهر الخلاف ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية وقامت الحـرب بين باديس وحماد حتى وفاة باديس سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م) ثم بين المعز بن باديس وبين حمـاد حتى سنة ٤٠٩هـ (١٠١٧م) عندما جنح حماد الى الصلح ، فتم عقده بينهما ، وبمقتضـاه يستقل حمـاد بعمل المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وما يفتح من المغـرب ، وانقسمت بذلك الدولة الصنهاجية الى دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان وافريقية ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة ثم بجاية التى بنيت من جديد فى عهد النـاصر بن علناس بن حماد سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) ٠

أما عن علاقات بنى حماد بالمرابطين فلم تكن ودية تماما وانما كانت تتخللها بعض المناوشات والحروب الصغيرة نتيجة اصطدام الحماديين بسياسة المرابطين التوسعية ؛ فمن المعروف أن المرابطين بعد أن أقاموا دولتهم فى المغرب الاقصى آثروا الانقضاض على المغرب الاوسط للقضاء على بقايا الزناتيين لينصرفوا بعد ذلك الى فتح السهول الشمالية باطمئنان، ولذلك بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلى فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) لغزو مدينة تلمسان ، فسار اليها فى عشرين ألفا من المرابطين ، فدخلها وظفـر

---

(١٨٨) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٠ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٤٩ ٠

عن قلعة حماد انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغـرب ص ٤٩ ، الادريسى ، ص ٨٦ ، ص ٩١ ، ياقـوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٦٣ ــ ١٦٤ ٠

بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوى فقتله ، وفى العام التالى — ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) — قام يوسف بفتح مدينة أجرسيف ومدينة مليلة وجميع بلاد الريف وفتح مدينة تكرور وخربها كما فتح مدينة وجده ومدينة تونس ووهران وجبال وانشريش وأعمال شلب بأجمعها الى الجزائر (١٨٩) .

ويعتقد الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمود أنه لو أن الحماديين كانوا أقوياء فى هذه الفترة لكان المرابطون قد اطمأنوا الى ذلك وانصرفوا الى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناتة المغرب الى بنى عمومتهم ، ولكن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن فقد اتفق فى ذلك الوقت أن عرب بنى هلال غزوا افريقية وخربوا القيروان وقوضوا ملك بنى زيرى ، ثم طرقوا باب المغرب الاوسط وهددوا الدولة الحمادية ، وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الاوسط الى الاقصى فيمثلوا فيه نفس الدور ويعيثوا فيه فسادا ، كما عاثوا فى افريقية من قبل ، لولا قيام الدولة المرابطية فى المغرب الاوسط التى بسطت نفوذها على النصف الغربى من المغرب الاوسط واستطاعت أن تجنب المغرب الاقصى شر بنى هلال ، وقد ركز المرابطون اهتمامهم على المغرب الاوسط الذى يتحكم فى الطريق الموصل الى المغرب الاقصى ، ومن مظاهر هذا الاهتمام أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمر هذا الاقليم ولى عليه القائد اللمتونى الشهير مزدلى ليرعى شئونه ويحرس مسالكه فلا ينفذ اليه العرب ويطوقون باب المغرب الاقصى (١٩٠) .

---

(١٨٩) ابن ابى زرع روض القرطاس ، ص ٩٨ ، ص ٩٩ .
(١٩٠) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٨ ، ص ٣٢٩ .

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيطرة على المغرب الاوسط وسعيهم الى مدافعة عرب بني هلال الى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة ، لأن بنى حماد لم ينظروا الى توسع المرابطين فى المغرب الاوسط نظرة الارتياح والرضا ولم يضعوا فى اعتبارهم أن المرابطين بعد أن وصلوا الى مشارف الجزائر كان فى مقدورهم أن يفتتحوا افريقية نفسها لو أنهم حقا كانوا يستهدفون ذلك لأن عرب بنى هلال بعيثهم فيها قد أفسدوا عمرانها ومزقوا وحدتها وقضوا على معالم حضارتها ، ولم يمنع المرابطين من فتحها الا الابقاء على صلات القربى التى بينهم وبين بنى حماد ، ورغم ذلك فقد ظل بنو حماد يترقبون فرصة مواتية للتعبير عن حقدهم وكراهيتهم للمرابطين ، ولذلك فقد انتهزوا فرصة عبور قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الى الاندلس تلبية لنداء ملوك وأمراء الطوائف بالاندلس ، وانشغال يوسف بالجهاد فى الاندلس ، فاستعان بنو حماد بعرب بنى هلال وأغاروا على القسم الغربى من المغرب الاوسط الخاضع للمرابطين ، وتفصيل ذلك أن المنصور بن الناصر بن علناس حاصر مدينة تلمسان وعاثت عساكره فيها ولكنه لم ينل من تحصيناتها ولم يحقق هدفه فتركها وقفل عائدا الى القلعة(١٩١) . ومن المرجح أن المنصور كان يخشى أن يتسبب حلفاؤه الجدد وهم العرب الهلالية فى تدمير بلاده ، كما فعلوا مع المعز بن باديس فى افريقية .

وعلى أية حال فمن الملاحظ أن العلاقات بين المرابطين وبنى حماد قد ساءت بعد هذه الاحداث ، ولعل ما يؤكد ذلك هو الموقف الذى وقفوه

---

(١٩١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، ص ٣٦١ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٨ .

مع معز الدولة بن المعتصم بن صمادح ، الذى لجأ اليهم بعد فراره من المرية قبل أن يقتحمها عسكر المرابطين ، فرحب بنو حماد بمعز الدولة ، وفتحوا أبواب بلادهم أمامه ؛ وأقطعه المنصور بن الناصر بن علناس مدينة تدلس الواقعة على البحر(١٩٢) ، وقد وقفوا نفس الموقف أيضا مع ابن مجاهد صاحب مدينة دانية ، عقب فراره أمام قوات المرابطين التى كان يقودها داود بن عائشة ، فاستقبله المنصور بن الناصر ، وأحسن اليه وأكرمه(١٩٣) .

وهكذا ساد العلاقات بين المرابطين والحماديين توتر واضح المعالم ولكنه لم يؤد الى صدام مسلح بين الطرفين ، ولعل ذلك يرجع الى حد كبير الى تمسك المرابطين بصلة القربى التى تجمع بينهما وكان فى وسع المرابطين فرض سيادتهم الكاملة على دولة بنى حماد لاسيما أن خلفاء المنصور بن الناصر بن علناس كانوا من الضعف واللامبالاة خاصة فى عهد يحيى بن العزيز بن المنصور الذى قضى حياته بين العبيد والملهين والمضحكين بحيث لم يكن لديهم القدرة على مقاومة أى غزوة يقوم بها المرابطين فى أوج قوتهم ، ويمكن أن نضيف الى ما سبق أن ذكرناه أن المرابطين كانوا يحرصون على استقلال الدولتين الصنهاجيتين لأنهم أى المرابطين أنفسهم كانوا فى حالة جهاد دائم ضد قوى المسيحية فى الاندلس ، ولانشغالهم فى نفس الوقت بمواجهة أخطار داخلية أعظمها الحركة التى قادها المهدى محمد بن تومرت ، كل هذه الاسباب وضعت حدا لأى تدهور فى العلاقات المتوترة بين المرابطين وبين ذويهم بنى حماد حتى لا تتخذ شكل الصدام المسلح ، فتزداد بذلك جبهات القتال أمام المرابطين ويستحيل عليهم مواجهة العواصف والانواء .

---

(١٩٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٨ ، سالم ، تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٢ .

(١٩٣) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٢ .

(ج) العــلاقة بين دولة المرابطين والخلافة العباسية

كان من الطبيعى أن تعترف الدولة المرابطية بخلافة العباسيين ، اذ كان المرابطون يعتقدون اعتقادا راسخا أنه لن يعتبر ملكهم مشروعا الا اذا باركته الامامة القرشية ، ولما كانت الخلافة الاموية فى الاندلس قد سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية فى ذلك الوقت الا خلافة بغداد العباسية ، ولذا تطلع المرابطون صوب العباسيين يلتمسون منهم العون ويستمدون التأييد والاعتراف الرسمى أو الشرعى . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ اتصال المرابطين بالعباسيين ، فابن الاثير يقول ان أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار الزلاقة واستيلاء يوسف على الاندلس(١٩٤) ، ويتفق مع ابن الاثير فى هذا الرأى كل من ابن خلدون (١٩٥) والقلقشندى(١٩٦) والذهبى(١٩٧) .

والصحيح أن المرابطين قد بدأ اتصالهم بالعباسيين قبل فتح الاندلس بزمن طويل ، فقد نقش المرابطون أسماء الخلفاء العباسيين على السكة المرابطية منذ عام ٤٥٠هـ وذلك منذ عهد الامير أبى بكر بن عمر(١٩٨) ، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقرونا باسم أبى بكر بن عمر الى أن توفى فى عام ٤٨٠هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسى(١٩٩) ، وهذا يؤكد أن المرابطين قد

---

(١٩٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٣ .
(١٩٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٥ .
(١٩٦) القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .
(١٩٧) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١ .
Lavoix, Catalogue de monnaies musulmanes de la Bibbiotheque nationale, P. 198.
(١٩٩) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

دعوا للعباسيين قبل الزلاقة ، وليس الى الشك سبيل فى أن أبا بكر بن عمر لم يكتب فى عملته اسم الخليفة العباسى الا بعد أن راسل الخليفة العباسى وتلقى منه اجابة بقبول طاعته وتقليدا بولايته .

ونستدل من النص الذى أورده صاحب الحلل ويتعلق بتعليل تسمية يوسف بأمير المسلمين بدلا من لقب أمير المؤمنين ، ورفضه للقب الاخير بحجة أنه من ألقاب خلفاء بنى العباس(٢٠٠) على أن يوسف كان يدين بالطاعة الخليفة العباسى سواء قبل الزلاقة أو بعدها .

وهناك ملاحظة أخرى هى أن اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية هو « عبد الله أمير المؤمنين » ، وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة المرابطية ، فكان ذلك سببا فى أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبد الله المنقوش على السكة ، فقالوا أنه قد يكون اسم عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين ، ولكن عبد الله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب ، وهو يعلم أنه من ألقاب الخلافة ، كما أن الرجل لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه ، وترك أمر الحكم ومسئوليته — ليحيى بن عمر وأبى بكر بن عمر ، ولكن الرأى الصائب ما رواه العالم الاثرى الالمانى فان برشم Van Berchem من أن الخلفاء العباسيين والامويين كانوا يكنون عن أنفسهم بلفظ عبد الله فى النقوش أو النقود ، كما أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الاسماء المجردة ، انما اكتفت بالكنى والالقاب ، لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة المجرد على السكة ، واكتفوا بقولهم (عبد الله) وهى كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة

---

(٢٠٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٦ .

عباسى ، كما أضافوا الى جانبها لقب « أمير المؤمنين » وهو لقب لا يلقب به الا الخلفاء(٢٠١) . كما أن هناك ناحية أخرى وهى أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعارا لهم فى ملابسهم وأعلامهم ، وهذا اللون الاسود كما هو معروف هو شعار العباسيين ، ويؤيد ذلك ما روى من أن المعتصم بن صمادح صاحب المرية أراد أن يتقرب من المرابطين ، فارتدى ثوبا مرابطيا أسودا ، فكان على حد قول بعض الرواة بين فرسانه البيض « كالغراب الاسود بين الحمام الابيض »(٢٠٢) .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد اسم الخليفة العباسى الذى أرسل الى يوسف بن تاشفين تقليده واعترافه بشرعية حكمه ، فابن الاثير ذكر اسم الخليفة وهو المقتدى بالله(٢٠٣) ، أما ابن خلدون فقد ذكر أنه المستظهر بالله(٢٠٤) ، ومرة أخرى باسم المستنصر بالله(٢٠٥) ، ويؤيد ابن خلدون فى روايته الأولى (أى تحديد اسم المستظهر بالله) كل من ابن الخطيب(٢٠٦) والقلقشندى(٢٠٧) والذهبى(٢٠٨) .

أما عن الرسول الذى حمل الرسالة الخلافية الى يوسف بن تاشفين ، فقد أشار ابن خلدون الى أنه القاضى الفقيه عبد الله بن العربى وولده

---

(٢٠١) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، احمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ١٠٠ .

(٢٠٢) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٩١ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٦ ، العبادى ، دراسات ، ص ١٠٠ .

(٢٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٣ .

(٢٠٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦١ .

(٢٠٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ .

(٢٠٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٢٠٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

(٢٠٨) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢١ .

أبا بكر ، وقد رفع ابن العربى الى الخليفة العباسى المستظهر بالله خطابا يلتمس فيه تقليدا خلافيا يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب ، كما طلب توصية من الخليفة له ولابنه أبى بكر ، فاستجاب الخليفة لهما وسلم ابن العربى وولده تقليده وعهده لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤرخا فى رجب سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) ، كما حصل ابن العربى على رسالة من محمد بن جهير وزير الخليفة العباسى ، موجهة الى يوسف بن تاشفين ، وفيها تقدير لما قام به أمير المسلمين وثناء على حسن رأيه وفى نهايتها أيضا توصية بابن العربى وابنه أبى بكر ، كما حصل ابن العربى أيضا على خطاب من الامام أبى حامد الغزالى ، يتضمن مطلبين كان ابن العربى قد طلبهما من الغزالى أولهما :

استصدار فتوى حول موقف بن تاشفين من أمراء الطوائف .

وحقه فى قتال هؤلاء الامراء والظفر بأموالهم ، وحق الطاعة ليوسف بن تاشفين ، ولفتوى الغزالى أهمية كبيرة ، اذ أظهرت حق يوسف بن تاشفين فى جهاد ملوك الطوائف وأفتى بشريعة حكم يوسف حتى ولو تأخر وصول تقليد الخلافة ، وطلب الامام الغزالى من الخليفة سرعة ارسال التقليد . أما المطلب الثانى فهو أن يبعث الغزالى رسالة تأييد لجهاد يوسف بن تاشفين وتأييد سياسته ، كما حصل ابن العربى من العلامة أبى بكر الطرطوشى حين مر بالاسكندرية ، وهو فى طريقه الى بلاده ، على رسالة الى يوسف بن تاشفين ، وهذه الرسالة تدور حول الوعظ والارشاد ، مؤيدة بكثير من الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية والروايات عن الصالحين وأهل الخير ، خاصة الخليفة أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وغيرهما ، وقد توفى الفقيه أبى العربى فى الاسكندرية فى عام ٤٩٣هـ (١١٠٠م) ، وعاد ابنه أبو بكر دونه الى الاندلس فى نفس العام وهو يحمل رسالة

الغزالى ورسالة محمد بن جهير ورسالة الطرطوشى فضلا عن التقليد ومرسوم الخلافة الى يوسف بن تاشفين[209] .

وهكذا كان أمراء المرابطين يحصلون على وضعيتهم الشرعية من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم ، ولذا بمجرد أن تولى على بن يوسف أرسل الى الخليفة العباسى يطلب الحصول على التقليد الخلافى فأرسل اليه المستظهر بالله العباسى فى عام ٥١٢هـ (١١١٨م) مرسوما بولايته ، منوها فيه بخدماته من أجل ــ الاسلام[210] .

ونلاحظ من خلال هذا المرسوم أن العلاقات بين المرابطين والعباسيين كانت علاقات روحية فقط ، بدليل أن الخليفة لم يطلب من على بن يوسف فى هذا المرسوم بأى التزام تجاه الخلافة ، بل بمزيد من الجهاد والطاعة للخلافة فقط .

(٢٠٩ أورد الاستاذ الدكتور مختار العبادي نص الخطاب الذى رفعه ابن العربي الى الخليفة المستظهر بالله العباسى ، يلتمس فيه تقليدا خلافيا يخول ليوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والاندلس ، ورد الخليفة على خطاب ابن العربى (انظر : درسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ضميمة رقم(١)،ص ٤٧١ ــ ٤٧٧) ، كما أوردت نص الخطاب ورد الخليفة عليه عصمت دندش (انظر : دراسة حول رسائل ابن العربى ، مجلة المنهل ، العدد ٩ ، السنة الرابعة ، الرباط ، ١٩٧٧م ص ١٦٠ ــ ١٦٦) ، كما أوردت دندش خطاب الوزير ابن جهير الى يوسف ص ١٦٦ ــ ١٦٩ ، كذلك أورد الدكتور العبادى خطاب ابن العربى الى الغزالى ورد الغزالى عليه ضميمة رقم (٢) ص ٤٧٨ ــ ٤٨٤ ، كما أوردتهما دندش ص ١٦٩ ــ ١٧٧ ، أما عن رسالة الطرطوشى الى يوسف بن أما عن رسالة الطرطوشى الى يوسف بن تاشفين فقد أوردتهما دندش ص ١٧٧ ــ ١٨٨ .

(٢١٠) مؤلف مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

الباب الثانى

الدراســة الحضــارية

الفصل الأول : نظم الحكم والادارة فى عصر على بن يوسف .

الفصل الثانى : بعض مظاهر الحضارة فى عصر على بن يوسف .

الفصل الأول

نظم الحكم والادارة فى عصر على بن يوسف

أولا : النظـام الادارى

(أ) نظام امارة المسلمين .

١ ـــ تطبيق النظام الوراثى بعد نظام الشورى .

٢ ـــ لقب أمير المسلمين .

(ب) ولاة العهد فى عصر على بن يوسف .

(جـ) منصب نائب أمير المسلمين .

١ ـــ نائب أمير المسلمين فى الاندلس ومهامه .

٢ ـــ نواب أمير المسلمين فى المغرب .

٣ ـــ ولاة الأقاليم .

(د) نظام الوزارة فى عصر على بن يوسف .

(هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات .

ثانيا : النظام القضائى فى عصر على بن يوسف .

(أ) نظرة عامة عن النظام القضائى فى عصر على بن يوسف .

(ب) أهم خطط القضاء الشرعى .

(جـ) القضاء العسكرى .

(د) قضاء الذميين فى الاندلس .

ثالثا : النظام الحربى فى عصر على بن يوسف .

(أ) الجيش (ب) الأسطول

رابعا : النظام المالى فى عصر على بن يوسف .

(أ) السياسة الضريبية للدولة .

(ب) العملات .

أولا : النظـام الادارى

(أ) امارة المسلمين .

١ ـ تطبيق النظام الوراثى بعد نظام الشورى .

٢ ـ لقب أمير المسلمين .

(ب) ولاة العهد فى عصر على بن يوسف .

(جـ) منصب نائب أمير المسلمين .

(د) نظـام الوزارة .

(هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات .

(أ) نظـام امارة المسـلمين

١ ـ تطبيق النظام الوراثى بعد نظام الشورى فى الحكم والادارة :

يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة المرابطية الى يوسف بن تاشـفين نفسه ، المؤسس الحقيقى للدولة ومؤسس حاضرتها مراكش ، وهو الذى اتخذ لنفسه لقب أمير المسلمين ، وهو نفسه الذى وضـع نظـام الوراثة فى الحـكم •

كان نظام الشورى هو الاساس الذى قام عليه نظام الحكم فى بداية قيام دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين عندما كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذى يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم ، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين ، الذى لم يحرص على اسـتمرار الامارة فى أسرته ، كما أنه لم يباشر أى ضغط على المرابطين فى اختيـار يحيى بن عمر ثم أبى بكر بن عمـر ، بل كانت وصيته الاخيرة للمرابطين قوله : « اياكم والمخالفة والتحاسد على الرياسة ، فان الله يؤتى ملكه من يشاء ، ويستخلف فى أرضـه من أحب من عباده ، ولقد ذهبت عنكم ، فانظروا من تقدمونه منكم ، يقوم بأمركم ويقود جيوشـكم ، ويغـزو عدوكم ، ويقسم بينكم فيئكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم »[١] ومن هذه الوصية يتبين أن عبد الله بن ياسين المؤسس الأول للدولة ، لم يكن يرى

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠ •

طريقة الحكم الوراثى • أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده ، وأن تنفصم عرى هذه الوحدة وتنتهى هذه الرسالة التى عمل جاهدا على تبليغها زهاء نصف قرن ، لذلك رأى يوسف أن يعين وليا للعهد يستخلفه بعد موته ، وهكذا تحول نظام الشورى المتبع فى السنوات الأولى من قيام دولة المرابطين الى نظام وراثى منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه عليا لولاية عهده سنة ٤٩٦هـ (١١٠٢م) ، ولو أن يوسف ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا لكان بذلك قد أفسح المجال لفتح باب التنافس بين أبنائه وأقاربه للظفر بامارة المسلمين من بعده ولكان من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين ، لأنه لم يكن هناك ثمة نظام للانتخاب فى وقت أصبحت بلاد الاندلس فيه مهددة بغارات نصارى الشمال ، ولذلك قرر يوسف أخذ البيعة لابنه على ، استنادا الى أن هذا الحق من جملة حقوقه كما يتبين ذلك من عهده له ؛ ونضيف الى ذلك بأن يوسف عندما ابتدع هذا النظام لم يكن مقيدا فى اختياره لولى العهد بأى شروط أو تقاليد معينة وانما جرى فى ذلك حسب تقديره للمصلحة العامة ، واذا كان قد آثر عليا على أخيه تميم ، فانما فعل ذلك لأنه رأى عليا أهلا لخلافته(٢) •

ولد الامير أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين بمدينة سبتة فى شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين(٣) أو سبع وسبعين وأربعمائة(٤) ، من أم رومية الإصل اسمها قمر وتكنى أم الحسن أو فاض الحسن(٥) ،

---

(٢) ويعلق محمد بن الخلف فى البيان الواضح على اختيار يوسف لابنه على بقوله : (ومما سلى النفوس كل التسلية وأطفأ نار الرزية ما كان من نظره الجميل ورأيه الاصيل ، من توليه الامر فى حياته لابنه الامير أبى الحسن ذى العقل الرصين ، والرأى الحسن) • راجع : مجهول ، الحلل الوشية ، ص٥٥ •

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠١ •

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ •

(٥) ابن بى زرع ، نفسه ، ص ١٠٩ ، ابن عذارى ، نفسه ، ص ١٠١ •

ولم يكن على أكبر أولاد أبيه (بد وفاة الابن الاكبر ليوسف وهو أبو بكر سير أثناء موقعة الزلاقة) ، الا أنه وقع اختياره عليه « لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم »(٦) ، ولتفوقه رغم كونه أصغر سنا على تميم تفوقا كبيرا « فى المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة »(٧) وقد امتدح أحد شعراء الاندلس الامير على عندما أقدم أبوه يوسف على اختياره وليا للعهد بقوله :

وان كان فى الاسنان يحسب ثانيا
على ففى العليـــاء يحسب أولا
كـذا لكم الأيدى ســواء بنانهـا
وتختص فيهن الخنـاصر بالحلا(٨)

وكان من الطبيعى أن يعمل يوسف على مشاورة كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار ؛ ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة فى سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) ، وناقشهم فى المبررات التى دفعتـه الى اختيـاره ، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه ، وعلى أثر ذلك قرىء مرسوم البيعة الذى يتضمن الاسباب التى حملته على هذا الاختيار والشروط الواجب توافرها فيه ، والمبادىء التى ينبغى أن يسير عليها ، وهذا المرسوم من انشاء الوزير الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور وكان من أعلام البلاغة فى ذلك العصر(٩) .

---

(٦) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٥ .
(٧) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١١٢ .
(٨) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٩) راجع نص المرسوم فى الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

ونستخلص من نص هذه الوثيقة : أن يوسف بن تاشفين قد اتبع مبدأين فى اختيار ولده أبى الحسن على وليا لعهده(١٠) .

أولهما : مبدأ الاختيار :

فقد أشارت الوثيقة الى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة تلك الدولة المرابطية المترامية الاطراف : « فوجد ابنه الامير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا الى المعلى ، واهتزازا ، وأكرمها سجية ، وأنفسها احتزازا ، فاستخلصه غيبا استرعى ودعاه لما كان اليه دعى »(١١) .

ثانيهما : مبدأ الشورى :

فقد أخذ يوسف به ، وتمسك بما جاء فى القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه وما سار عليه الخلفاء الراشدون : « ودعاه لما كان اليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى »(١٢) .

كما يشير مرسوم البيعة الى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها عليه أبوه ولعل أهمها التمسك بالمبادىء التى دعا اليها الامام عبد الله بن ياسين من اعلان الجهاد على أعداء الاسلام ، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء ، والعمل على اقامة العدل بين الرعية بالاضافة الى ما ذكره صاحب الحلل فى قوله : « وكان من الشروط فى تقديمه للعهد التى اشترطها عليه أبوه ترتيب سبعة عشر ألف فارس بالاندلس موزعة على أقطار معلومة يكون منها باشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف

---

(١٠) راجع حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤٥ وما يليها.
(١١) انظر نص المرسوم فى احلل الوشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .
(١٢) انظر نص المرسوم فى الحلل الوشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

فارس وبغرناطة ألف فارس وفى الشرق أربعة آلاف فارس وباقى العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة فى الحصون المعاينة للعدو »(١٣) •

وفى عام ٤٩٦هـ (١١٠٢م) ؛ جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس جوازه الرابع والاخير برسم تفقد أحوال الاندلس والنظر فى مصالحها وتنظيم البيعـة لولده على ، وقد صحبه فى هذا الجـواز ولداه الامير أبو الحسن على ، والامير أبو الطاهر تميم ، وبعد أن اطمئن على حسن سير الامور فى ولايات الاندلس المختلفة ، اتجه صوب مدينة قرطبة المقر القديم للخلافة الاموية والقاعدة الاولى للمرابطين فى الاندلس ، وهناك قرر أخذ بيعةأهل‌الاندلس لولده،فدعا كبار رجال الدولة من أمراء المتونة وأشياخ البلاد ، وقادة الرأى والفقهاء والقضاة وتلا عليهم عقد البيعـة لابنه على الذى سبق الاشارة اليه ؛ وضمنه الاسباب التى حملته عـلى اختياره وليا للعهد ، ثم أخذ البيعة له من جميع الحـاضرين ، وأقسـم هؤلاء يمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على عقد البيعة ، وقام على أثر ذلك ، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التى رسمها أبوه ، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة(١٤) • وصـدر كتـاب التولية والبيعة عن يوسف بن تاشفين لولده على ، بقلم وزيره وكاتبـه أبى بكر بن القصيرة فى ذى الحجة عام ٤٩٦هـ(١٥) •

ثم عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب ؛ حيث مرض مرضه الاخير الذى استمر زهاء عامين وشـهرين وانتهى بوفاته عن مائة عام فى أول

---

(١٣) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٧ ، ٥٨ •

(١٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٩ ، مجهـول ، الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ١٤٣ •

(١٥) انظر : ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ص ٥١٨ ــ ٥٢١ •

المحرم سنة ٥٠٠هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦م) ، وكان ولى العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه يؤكد ذلك نص لابن عذارى يوصى فيه يوسف بن تاشفين عندما اشتدت به العلة الى ولده ولى عهده ، فاضطلع أبرع اضطلاع وقام أحمد مقام ، كما يدل على ذلك أنه فى عام ٤٩٩هـ أى فى فترة ولاية على بن يوسف العهد قرئ باشبيلية كتاب من ولى العهد بعزل القاضى ابن منظور(١٧) ، كذلك أورد الدكتور محمود مكى رسالة صادرة عن على بن يوسف مؤرخة فى آخر ذى الحجة سنة ٤٩٩هـ (١ سبتمبر ١١٠٦م) أى قبل وفاة يوسف بن تاشفين بيوم واحد تتضمن رده على رسالة وجهها اليه عدد من الفقهاء فى احدى أقاليم الدولة(١٨) ، ورسالة صادرة فى نفس السنة ردا على رسالة بعثها أحد عمال المرابطين على الاندلس فى مستهل ذى القعدة(١٩) ، كما أشار ويثى ميراندا الى تقلد على مهام والده أثناء مرضه وأنه قام بعزل محمد بن الحاج عن غرناطة وأقام مكانه أبا بكر بن ابراهيم اللمتونى(٢٠) .

وكان يوسف بن تاشفين قبل وفاته فى مستهل المحرم سنة ٥٠٠ هـ

---

(١٦) عن وفاة يوسف بن تاشفين انظر : المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٩٥ ، وقد اتفقت المصادر الاسلامية فى تحديد عام ٥٠٠هـ لوفاة يوسف بن تاشفين فيما عدا صاحب المعجب الذى جعل الوفاة فى عام ٤٩٣هـ . وانظر أيضا : بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٤٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٤ .
Terrasse, Histoire du Maroc, vol, II, pp. 240 - 241.

(١٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤٥ .

(١٨) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(١٩) مكى ، نفسه ، ص ١٤٨ .

(٢٠) ميراندا ، على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، ص ١٥٥ .

أوصى ولده وولى عهده بعده أبا الحسن عليا بثلاث وصايا أولها « ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة» والثانية : أن يهادن بنى هود بالاندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم ، والثالثة : يقبل من أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم»(٢١) .

٢ ـ لقب أمير المسلمين

اتخذ المؤسسون الأول لدولة المرابطين لأنفسهم بادىء ذى بدىء لقب « الامير » وهو لقب ظل يطلقه المرابطون على زعمائهم ؛ ابتداء من عهد أمير لمتونة أبى زكريا يحيى بن عمر اللتمونى ، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) وعندما تولى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ سنة (٤٦٤هـ) (١٠٧٢م) ظل يتقلب بالامارة الى أن سقط أبو بكر بن عمر شهيدا فى أحد المعارك فى سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) وعندئذ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين ، واتفق أن لبى أنذاك نداء أهل الاندلس الجهاد ، وبفضل اشتراكه فى وقعة الزلاقة أمكن للمسلمين أن يوقعوا بقوى النصرانية فى أسبانيا ، الأمر الذى دعاه الى أن يتخذ لنفسه لقبا جديدا هو لقب (أمير المسلمين وناصر الدين) تتويجا لهذا الانتصار المؤزر الذى حققه فى أرض الاندلس ، ويذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف تسمى فى يوم الزلاقة بأمير المسلمين « ولم يكن يدعى به قبل ذلك »(٢٢) ، وفى موضع آخر يذكر صاحب روض القرطاس « وكان يدعى بالامير فلما فتح الاندلس وصنع غزاة الزلاقة وأذل الله تعالى بها الروم وبايعه فى ذلك اليوم ملوك الاندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكا وسلموا

---

(٢١) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٠ .
(٢٢) ابن أبى زرع ، ص ١٠٣ .

عليه بأمير المسلمين وهو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغـرب وخرجت كتبه صدرة عنه بذلك الى بلاد العـدوة وبلاد الاندلس فى ذلك اليــوم٠٠٠٠٠» (٢٣) ، ويؤيد ابن أبى زرع فى ذلك من المؤرخين ابن الخطيب(٢٤) وابن خلدون(٢٥) • ويميل عدد من الباحثين المحـدثين الى الأخذ بهذا القول(٢٦) لأن انتصار الزلاقة يبرر التسمية الجـديدة التى تحمل معنى نصرة الدين • غير أن هناك رواية مخالفة لصـاحب الحلل الموشية وخلاصتها أن يوسف لما كثرت فتوحه فى أنحاء المغرب وتضخمت مملكته ، واتسعت أعماله ، اجتمع اليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وزينوا له أن يتلقب بأمير المؤمنين ، فأبى أن يستجيب لهم لأن لقب أمير المؤمنين من ألقاب خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة فى حين أنه لا يعدو قائما بدعوتهم ، واقترح عليهم أن يتسمى « بأمير المسلمين وناصر الدين » فخطب له على المنابر بهـذا اللقب الجديد ، كما خوطب له بذلك فى العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا فى ذلك وهذا هو نص كتابه الى عماله ورجال دولته •

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين الى الاشياخ والاعيان والكافة من أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه سلام عليكم ورحمـة الله تعالى وبركاته (أما بعـد)

---

(٢٣) ابن بى زرع ، ص ٩٤ ، ٩٥ •

(٢٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٥١ •

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ •

(٢٦) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٠ • وهناك من الباحثين من يعارض هذا الرأى ومنهم : أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٩٩ •

حمد الله أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله فى منتصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل وهو « أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية فليخاطبها بهذا الاسم ، ان شاء الله تعالى ، والله ولى العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام(٢٧) .

والرأى عندى أن يوسف اتخذ هذا اللقب بعد انتصار الزلاقة ، فطبيعى أن يعمد المنتصر الى اتخاذ لقب جديد يتناسب مع مقتضى الاحداث ولهذا فانتصار الزلاقة كان الحافز والدافع المباشر الذى دفع بيوسف الى التلقب به على سائر زعماء القبائل ، ومن الواضح أن صاحب الحلل الموشية يخلط بين هذا التاريخ ٤٦٦هـ وتاريخ سنة ٤٧٩هـ الذى انتصر فيه يوسف على نصارى اسبانيا فى الزلاقة وأنه أخطأ فى هذا التاريخ بدليل أنه يذكر فى روايته أنه (خوطب به من العدوتين) ولما كان المرابطون فى هذا التاريخ (٤٦٦هـ) على غير اتصال بملوك الطوائف وان أول اتصال بين ملوك الطوائف وبين يوسف حدث قبل الزلاقة بعام أو حتى بثلاثة أعوام ، فان النص الذى أورده صاحب الحلل الموشية لا يتفق مع حقيقة الحوادث التاريخية .

---

(٢٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٦ ، ١٧ .

(ب) ولاة العهد فى عصر على بن يوسف

سار أمير المسلمين على بن يوسف على نهج سياسة والده فى اختيار ولى العهد ، فقد بدأ يذكر فى مستقبل الدولة من بعده ، وفى ضرورة وجود شخصية قوية على رأس الدولة للحفاظ عليها من طمع الطامعين ، فوقع اختياره على ابنه الامير سير لولاية عهده وذلك فى عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م)(٢٨) ، وفى هذا الصدد يقول ابن عذارى نقلا عن الوراق : « لما عزم على بن يوسف أن يخلع عهده على ابنه سير الذى من أمته قمر ، وجه الى عقد ذلك أهل العقد والحل من الفقهاء والقضاة وجمع لذلك بنى عمه وأخويه الأمير تميما كبيره وأخاه ابراهيم صغيره المشتهر بابن تاعيشت وهى أمه سوداء ، فسلم الأمر لابنه سير وشهد الشهود عليه بذلك ، وكملت البيعة له ، وأرسل بها الى سائر الاقطار والانظار ، فاستقرت البيعة والتزم قبولها ، واستقل بالأمر ونظر فى سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيش والاحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعودا فخما »(٢٩) ، هذا هو نص رواية ابن عذارى حول توليه الامير سير ولاية عهد أبيه أمير المسلمين على بن يوسف ، وهى تثبت لنا أن عليا قد اتبع السلف الصالح فى اختيار ولى العهد ، واتبع نفس الطريق الذى سلكه أبوه فى اختيار ولى العهد فهو لم يحاول أن ينفرد بهذا الاختيار وحده ، بل أنه استدعى كبار رجال دولته من الفقهاء والقضاة ، كما استقدم أخوته وأبناء عمومته وزعماء قبيلته لمتونة ليشهدوا على عقد تولية العهد للامير سير ، وليكون ولى العهد مسئولا أمامهم عن أمور البلاد ، وبعد أن تمت البيعة ، أرسل على بن يوسف الى مختلف مدن

Antoonio Preito Y Vives, los reyes de Taifos, p. 243.

(٢٩) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

المغرب والاندلس منشورا باختيار ولى العهد ؛ ويبدو أيضا كما هو واضح من النص أن هناك بعض المهام التى كان يقوم بها ولى العهد منها قيـادة الجيوش فى وقت الحرب ، والنظر فى أمور وأحوال الولايات ، والجلوس للفصل فى المنازعات بين الناس ، وكان اسم ولى العهد ينقش على السكة الى جانب اسم أمير المسلمين ، وهكذا كانت نقود على بن يوسف تحمـل فى احدى وجهيها عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله أمـير المسلمين على بن يوسف ولى عهده الامير سير »

ولما ولى على ابنه سير ولاية عهده ، رأى أن يولى ابنه الامير تاشفين الاندلس ، فولاه على مدينة غرناطة والمرية ثم أضـاف اليـه مدينة قرطبة. وكانت للامير تاشفين فى مدافعة العدو صولات وجولات وفق فيهـا كل التوفيق وأحرز انتصارات رفعت مكانته فى نظر أهل الاندلس ، فلما ذاع صيته فى أمر الغزو والجهاد ، وشاع ذكره فى المغرب والاندلس ، كبر ذلك على أخيه الامير سير ولى العهد ، وأكلت قلبه عوامل الغيرة من أخيـه ، ففاوض أباه فى ذلك وقال له : « ان الأمر الذى أهلتنى اليه لا يحسن لى مع تاشفين ، فانه قد حمل الذكر والثناء دونى ، وغطى على اسمى ، وأمال اليه جميع أهل المملكة ، فليس لى معه اسم ولا ذكر . فأرضاه بأن عزله عن الاندلس ، وأمره بالوصول الى حضرته ، فرحل عن الاندلس فى أواسط سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، ووصل مراكش وصار فى جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه »(٣١) .

ظل سير وليا لعهد أبيه الى عام ٥٣٣هـ ، عندما توفى ، وقد اختلفت

(٣٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٩٧ .
(٣١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

الروايات حول وفاته ، فيقول ابن القطان : « ولم يكن — أى سير — أهلا لشيء ، فعكف على البطلة ، ودخل مستورا على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة ، عجلت منيته »(٣٢) ، ويقول ابن عذارى « وكان سير يركن للراحة ويصطحب أهل الفكاهة ، فاقتحم ليلا على أخيه عمر فى داره فضربه وقضى عليه »(٣٣) ؛ ويقول ابن الخطيب « فقضى الله وفاة سير على الصورة القبيحة »(٣٤) . وهكذا يبدو لنا أن هناك جريمة أخلاقية انتهت بوفاة سير ، فى حياة أبيه ، فثكله أبوه وأشتد جزعه عليه وكان عظيم الايثار والارضاء لأمه قمر التى كانت قد تسببت فى عزل تاشفين عن ولاية الاندلس واهمال شأنه ، فتدخلت من جديد لتقديم ولده اسحق لولاية العهد ، وكان اسحق حدثا لم يبلغ الحلم بعد ، تبنته قمر وتولت تربيته والاشراف عليه ، فشب محبا مخلصا لها ، ولم يستجب على بن يوسف لطلبها قبل أن يستطلع رأى الناس خاصتهم وعامتهم فى ولى العهد(٣٥) ؛ وواضح أن عليا كان يتبع فى اختيار ولى العهد مبدأ الشورى الذى كان تقليدا متبعا عند المرابطين ، وقد يعبر هذا الموقف عن ندم على فى عزل تاشفين عن ولاية الاندلس ، وكأنما أراد بترك الامر شورى أن يفكر عن خطئه فى حق ولده تاشفين الذى تعرض لظلم أخيه واستبداده به بالاضافة الى أنه كان أميل الى تاشفين الامير القائد الذى ذاعت شهرته ، وأختياره وليا للعهد فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ دولة المرابطين ينسجم تماما مع تطور حوادث الاندلس التى كانت تحتاج

---

(٣٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٥ .
(٣٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٩٧ .
(٣٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ .
(٣٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٤٤٧ .

لجهاده وجهوده العسكرية ، ثم ان دولة المرابطين كانت آنذاك فى أشد مراحل الانهاك بسبب المعارك المتواصلة مع الموحدين فى المغرب •

جمع على بن يوسف كبار رجال الدولة من الفقهاء والقضاة وزعماء لمتونة ، وأفراد الاسرة المرابطية ، وعرض عليهم الامر ، وطلب منهم أن يتشاوروا ويختاروا لولاية العهد من يرضونه ، ومن يرون فيه الصفات الطيبة التى يجب أن تتوافر فى ولى العهد ، فأجمعوا على اختيار الامير تاشفين لولاية عهد المرابطين ، فعقد له والده ولاية عهده ، ونقش اسمه على الدنانير والدراهم الى جانب اسم أبيه أمير المسلمين ، وقلده النظر فى الامور السلطانية ، كما كتب الى العدوة والاندلس وبلاد المغرب ببيعة تاشفين ، فبايعوه ووصلت البيعات من كل الجهات وذلك فى رجب عام ٥٣٣هـ (١١٣٩)[٣٦] •

ومنذ أن تولى تاشفين ولاية العهد والحظ يجانبه وينحرف عنه ، فلم يوفق فى محاربة الموحدين ، بخلاف ما كسبه من شهرة فى الاندلس ، ويبدو أن عليا بن يوسف قد غضب على ولده تاشفين لهذا السبب ، ونستدل مما رواه المؤرخون أنه كان يأمل فى ابنه تاشفين ما لم تكن الاقدار تساعده به ، فتشاءم به وعزم على خلعه وصرف عهده الى اسحق ، ولده الاصغر ، فاستقدم الى مراكش عامله على اشبيلية ويسمى أغمار ليشرف على تربية ولده اسحق واعداده لتولى ولاية عهده[٣٧] ، الا أن انشغال الدولة بمحاربة الموحدين ، ثم وفاة أمير المسلمين على بن يوسف حالت دون تحقيق رغبة على فى نقل ولاية العهد الى ابنه اسحق ، ولعل فى هذا ما يشير الى عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد فى دولة المرابطين[٣٨] ،

---

(٣٦) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٨٩ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ •

(٣٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج١ ، ص ٤٤٧ •

(٣٨) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٤٧ ، ٤٧٨ •

وهو أمر له حسناته وله سيئاته وسيئاته أكثر من حسناته ، اذ كان يترتب عليه قيام النزاع بين أولاد الامير حول حق كل منهم فى ولاية العهد ، ولدينا مثال على ذلك الامير أبو بكر بن على بن يوسف الابن الاكبر لامير المسلمين ، اذ أنه ولد فى عام ٤٩٣هـ ، وكان يلقب ببكور ، أو بكو ، ونشأ فى الاندلس كما جرت عادة على بن يوسف فى تنشئة أبنائه[٣٩] وقد قام على رعايته وتأديبه الطبيب الاندلسى المشهور أبو مروان بن زهر[٤٠] ، وكان أول منصب تولاه أبو بكر ولاية مدينة اشبيلية فى ذى الحجة عام ٥١٧هـ (١١٢٤م)[٤١] ، ثم أسندت اليه قيادة الجيوش المرابطية فى الاندلس[٤٢] ، الى أن عزل عن ولاية اشبيلية فى رجب عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) بسبب التصريحات التى صدرت منه ، يعبر فيها عن عدم رضائه عن البيعة لأخيه سير ، فأسرع أبوه بعزله وأمر بتكبيله وارساله الى الصحراء[٤٣] ، ولكنه لم يلبث أن عفا عنه وعهد اليه بقيادة بعض جيوش المرابطين ضد الموحدين[٤٤] ، ويبدو أن أبا بكر قد عاد مرة أخرى بعد وفاة الامير سير ومبايعة تاشفين بولاية العهد ، عاد الى الاعتراض بسبب تخطيه مرة أخرى عند اختيار ولى العهد ، اذ يشير ابن عذارى الى أن عليا بن يوسف أمر باخراج ولده أبى بكر من مراكش الى الجزيرة الخضراء ، ليسجن بها ، لأنه خاف من خوضه فى أمور ، فأصيب أبو بكر خلال سفره بمرض ، فكان الرجال يحملونه على أعناقهم ، فلما وصل

---

(٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، هامش رقم (١) ، ص ١٠٥ .

(٤٠) مؤنس ، سبع وثائق تاريخية عن عصر المرابطين ، ص ٧٠ .

(٤١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤٢) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، وفى نص رسالة على بن يوسف الى ولده أبى بكر مايشير الى أنه هدده بالنفى الى ميورقة (انظر مؤنس ، سبع وثائق ، ص ٦٩) .

(٤٤) ابن القطان ، ص ١١٥ ـ ١١٨ .

الى الجزيرة ، سجن بها الى أن مات فى مجلسه(٤٥) . وهذا ما يؤكد على أن عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد تسير عليه الدولة ، كثيرا ما يؤدى الى النزاع بين أفراد البيت الحاكم نفسه .

(جـ) نائب أمير المسلمين

١ — نائب أمير المسلمين فى الأندلس ومهـامه

كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة مترامية الاطراف ، فكان من الطبيعى أن يكون له نائب ينوب عنه فى ادارة شئون الاندلس ، وأكثر من نائب يتولون عنه ادارة شئون المغرب ، وكان يراعى فى اختيار النائب أن يكون أقرب النـاس الى أمير المسلمين ، وأن تتوافر فيه حسن الادارة والكفاية العسكرية .

كانت بلاد الاندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب أمير المسلمين ، وكان ولى العهد يتولى عادة هذا المنصب قبل تنصيبه أميرا للمسـلمين ، فاذااعتلى ولى العهد العرش ولى أحدأخوته أو أكبر أبنائه فى هذا المنصب وممن حظى بالولاية على الأندلس على عهد على بن يوسف : الامير أبو الطـاهر تميم(٤٦) وأبو محمـد بن فاطمـة(٤٧) وأبو بـكر بن على بن يوسف(٤٨) ، وتاشفين بن على بن يوسف(٤٩) .

---

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ، ١٠١ .

(٤٦) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ٨٣ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٨٦ .

(٤٧) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١٧ ، ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٤٨) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٦٧ .

(٤٩) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٧٩ ، ٨٧ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج١ ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .

وكان النائب يستقر غالبا فى غرناطة أو قرطبة ، فقد كانت الاندلس تنقسم فى عهد المرابطين الى خمس ولايات هى اشبيلية وغرناطه وقرطبه وبلنسية ومرسية ، وكانت سرقسطة هى الولاية السادسة قبل سقوطها فى أيدى الفونسو المحارب سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، وقد اتخذ المرابطون فى أول عهدهم بالاندلس قرطبة مركزا لحكومتهم وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية ابنه على ولاية عهد الدولة المرابطية ، ولما تولى على الملك أمر بنقل قاعدة الحكم الى غرناطة ، فلبثت كذلك حتى عام ٥٢٦هـ (١١٣٢م) ، ففى نفس العام عين أمير المسلمين ولده تاشفين واليا على قرطبة ، وطلب منه أن يتخذ منها مقرا للحكومة المرابطية فيقول : « واجعل قرطبة دار سكناك وقرار مثواك »(٥٠) .

كان نواب أمير المسلمين يمثلونه فى سلطانه ، فكانت سلطاتهم شبه مطلقة ، فكانوا يقيمون الولاة أو يعزلونهم حسبما تقتضيه مصلحة الدولة، وكانت تعقد لنائب أمير المسلمين القيادة العليا على جيوش المرابطين بالاندلس ، فمن رسالة لعلى بن يوسف الى ابنه الاكبر أبو بكر بن على ، وكان نائبا عنه على الاندلس يقول له فيها : « وقد رأينا أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة عموما يشمل من كان هناك منها ، ومن وصل من هذه العدوة اليها ، وخاطبنا عالك بالسمع منك والطاعة لك ، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك ، ويوافق عملك »(٥١) . وفى هذا تأكيد على أن وظيفة نائب أمير المسلمين سياسية ادارية تستلزم اشرافا شاملا على الشئون السياسية والادارية والعسكرية .

---

(٥٠) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٨٧ ، عنان ، عصر المرابط) ، ص ٤١٥ .
(٥١) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

٢ ــ نواب أمير المسلمين فى المغــرب

كان لأمير المسلمين نائب عنه فى المغرب مقره مدينة فاس وكان نائب فاس أميرا مصغرا للمسلمين اذ كانت فاس ومازال العاصمة الدينيــة للمغرب ، وقد حاول بعض أمراء المرابطين الانتزاء بها ، ولكنهم أخفقوا ومن بين هؤلاء الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين الذى سبق أن أشرنا الى حركته فى بداية دراستنا لدولة على بن يوسف ، لذلك حظيت مدينة فاس باهتمام أمير المسلمين ، فكان يولى عليها أقرب المقربين اليــه كأخيه أبى الطاهر تميم الذى تولى فاس بعد أن عزل عن الاندلس(٥٢) •

ولأهمية منصب نائب أمير المسلمين ســواء فى المغــرب والاندلس وخطورته كان أمير المسلمين يتحرز من نوابه ويعمل على مراقبتهم كمــا أنه لم يكن يتيح لهم الاستقرار فى مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال والانتزاء ، فكان النواب دائما معرضين للنقل من ولاية الى أخرى(٥٣) • وكان نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتابا يقومون عنه بالمكاتبات أو تسند اليهم بعض الاعمال الادارية وممن ظهر من كتــاب نواب أمير المسلمين على بن يوسف فى الاندلس الكاتب الاديب أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال كاتب الامير محمد بن الحاج ، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الامير أبى بكر بن ابراهيم ، والزبير بن عمر اللمتونى كاتب تاشفين بن على بن يوسف(٥٤) • وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المســلمين صورة مصغرة من حياة هذا الامير فكانوا يتخذون القصــور والخــدم والفقهاء والاعوان ، كما أن بعضهم كان ينعم بحياة البذخ والابهة •

---

(٥٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٣ •
(٥٣) ابن بى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٢ •
(٥٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٣ •

٣ ـ ولاة الأقاليم

كان أمير المسلمين على بن يوسف من اليقظة وحسن التصرف بحيث أنه كان يراقب سير الامور فى الولايات المختلفة ، مخافة أن يستبد أمير من الامراء بأمر ولايته ، أو يسىء معاملة رعيته ، فكان اذا ولى أحد الولاة ، أرسل اليه رسالة يرسم له فيها السياسة التى يجب أن يتبعها فى معاملة رعاياه، ويتمثل ذلك فى رسالة مؤرخة فى سنة ٥١٠هـ(٥٥) كتبها أبو القاسم بن الجد عن أمير المسلمين الى أبى محمد بن فاطمه واليه على اشبيلية جاء فيها: وقد رأينا والله ولى التوفيق ، والهادى الى سواء الطريق : أن نجدد عهدنا الى عمالنا بالتزام أحكام الحق وايثار أسباب الرفق لما نرجوه فى ذلك من الصلاح الشامل والخير العجل ، والله تعالى ييسرنا لما يرضيه فى قول وعمل وأنت ـ أعزك الله ـ ممن يستغنى باشارة التذكرة ويكتفى بلمحة التبصرة لما تأوى اليه من السياسة والتجربة ، واتخذ الحق أمامك وملك يده زمامك ، وأجر عليه فى القوى والضعيف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسد فى وجه المهضوم بابك ، ووطىء للرعية حاطها الله أكنافك ، وأبذل لها انصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها وأطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق فى أمرها عادة أو غير رسما أو بدل حكما ، أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما ، فاعزله عن عمله ، وعاقبه فى بدنه ، وألزمه رد ما أخذ متعديا الى أهله واجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم منهم أحدا على مثل فعله ان شاء الله وهو تعالى ولى تسديدك ، والملى بضدك ، وتأييدك : لا اله غيره ولا خير الا خيره »(٥٦) .

---

(٥٥) ينسبها الدكتور حسن محمود الى يوسف بن تاشفين ، انظر قيام دولة المرابطين ، ص ٣٥٦ .

(٥٦) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الواقع أن هذه الرسالة تعتبر دستورا يبين للوالى الطريق الذى ينبغى أن يسير عليه ، حيث يدعوه أمير المسلمين الى أن يستخدم كل تجاربه لخير رعيته ، ويأمره بتطبيق العدالة والتزام جانب الحق فى معاملة الرعيـــة •

وكان أمير المسلمين دائم الاهتمام بأمر الولايات ، لا يترك أمرا من الامور فى ولاية دون أن يؤكد على أهلها بالعمل على الحفاظ على وحدتهم ونبذ خصوماتهم والانقياد لأميرهم ، والعمل على عدم الخروج عن طاعته ، ونشير فى هذا المقام الى الرسالة التى أرسلها على بن يوسف الى اشبيلية فى جمادى الأولى سنة ٥١٢هـ تتضمن هذه التوجيهات(٥٧) ؛ وهناك رسالة من انشاء ابن القصيرة موجهة من على بن يوسف الى أهل بلنسية يدعوهم فيها الى الانصياع والطاعة لوالى عليها أبى محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة تولى نشرها الاستاذ الدكتور محمود على مكى(٥٨) فى جملة ما نشره من وثائق تاريخية جديدة من عصر المرابطين •

واذا كانت سياسة أمير المسلمين تدعو الى حسن معاملة الوالى لرعيته وطاعة الرعية له ، فان سياسة الدولة كانت تدعو أيضا الى أن يعاقب الوالى أو يعزل اذا قصر أو أهمل أو أساء السيرة فى الرعية ، ويتجلى ذلك بحق فى موقف أهل الجزائر الشرقية من واليهم وأنور بن أبى بكر اللتمونى ، الذى تعسف مع أهل الجزيرة وأراد أن يرغمهم على بناء مدينة جديدة بعيدة عن البحر ، فامتنعوا عليه وثاروا ضده ، فأقدم وأنور على قتل زعيم الثوار ، الامر الذى أثار عليه أهل الجزيرة واقدامهم على

(٥٧) انظر نص الرسالة : ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١١١ ، ١١٢ •
(٥٨) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١١٤ •

القبض عليه وارساله الى على بن يوسف ، وقد ترتب على ذلك أن ولى عليهم أمير المسلمين محمد ابن على بن غانية(٥٩) .

(د) نظـام الـوزارة

لم يظفر نظام الوزارة فى عصر المرابطين باهتمام مؤرخى هذا العصر فان أحدا منهم لم يتعرض للحديث عن وزراء المرابطين الا بالقدر الذى يضطر اليه ؛ وكل ما أوردوه لا يعدو شذرات قليلة لا تشبع لهفة الباحث ، فى حين أوردوا مادة كافية فيما يتعلق بدولة الموحدين ونظمها فى الادارة والحكم .

ونستدل مما ورد فى المصادر العربية الاندلسية والمغربية أن الوزير كان يشغل مكانة سامية فى دولة المرابطين ويتمثل ذلك بصدق فى كتـابات بعض الكتاب المعاصرين لهذه الدولة ومن بينهم الطرطوشى صاحب كتـاب سراج الملوك ، وابن عبدون صاحب كتاب رسالة فى القضاء والحسبة ، فالطرطوشى يسجل أهمية الدور الذى يقوم به الوزير فى عصره بقوله : « وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة ، والوزير عون على الامور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة ، والوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، و فى الامثال نعم الظهير الوزير »(٦٠) ، أما ابن عبدون فيعبر عن ذلك بقوله : « الوزير واسطة بين القاضى والسلطان ، فباتفاق القاضى والوزير يكون صلاح الدولة وصلاح العالمين »(٦١) .

---

(٥٩) ابن خلدون ، العبرة ، ج ٤ ، ص ٥٠٥ .
(٦٠) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ٧٠ .
(٦١) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص ١٤ ، ١٥ .

ولما كان أهم مبادىء دولة المرابطين التى قامت عليها الجهـاد فقد كانت تعتمد فى نظمها الادارية على المقومات العسكرية ولهذا فقد كان من الطبيعى أن تغلب على صفة الوزير السمة العسكرية كذلك جرت العادة أن يكون الوزير ملما بالآداب وفنون كتابة الرسائل والوثائق على النحو الذى عرف فى عصر الطوائف فى الاندلس ولهذا أيضا وجد فى دولة المرابطين وزراء يجيدون الكتابة الديوانية كما يجيدون الدراسات الفقهية •

وهكذا اجتمع فى دولة على بن يوسف نوعان من الوزراء :

الأول : وزراء الحرب وكانوا يختارون عادة من أقرباء الامير أو من قبائل لمتونة وصنهاجه عصب دولة المرابطين •

الثانى : وزراء أدباء معظمهم من الاندلسيين(٦٢) •

ومن المعروف أن الوزراء فى العهد السابق لعلى بن يوسف كانوا كتابا يشرفون على ديوان الانشاء ، ولكن الأمر لم يلبث أن تغير فى عهـد على بن يوسف فتعقد نظام الوزارة وتعددت اختصاصات الوزراء ، ونظـرا لكثرة عدد الوزراء فى الدولة ، فقد كان لهم مجلسا يتولى رئاسته كبـير الوزراء أو الوزير الأول(٦٣) هو حلقة اتصال بين الوزراء والامير ، ولقد كان الوزراء موضع احترام أمراء المسلمين ومحل ثقتهم ، ولهذا أطلقوا أيديهم فى الشئون المالية والادارية وأدانوا منازلهم(٦٤) •

أشـهر وزراء على بن يوسـف :

١ ـ الفقيه الكاتب مالك بن وهيب الاشبيلى :

كان من أشهر الوزراء الكتاب والفقهاء ، وهو اشبيلى الاصل ، كان

---

(٦٢) أحمد مختار العبادى ، دراسات ، ص ١٥١ ، ١٥٢ •

(٦٣) أشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٨ •

(٦٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٢ •

موسوعة فى الفقه والعلوم الدينية والاجتماعية والآداب ، وقد شارك فى جميع مجالات المعرفة ؛ فنظم الشعر وصنف فى التاريخ والعلوم وكانت له مواقف مشهورة ، يقول عنه صاحب المعجب : « وكانت لديه فنـون من العلم ، رأيت له كتابا سماه « قراضة الذهب فى ذكر لئام العـرب فى الجاهلية والاسلام ، وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، رأيت بخطه كتاب الثمـرة لبطليموس فى الاحكام وكتاب المجسطى فى علم الهيئة »(٦٥) .

ولعل شهرة مالك بن وهيب تقترن بموقف من المواقف المشهورة أثناء المناظرة العلمية والفقهية التى تمت بين فقهاء المرابطين والمهدى بن تومرت فى حضرة أمير المسلمين على بن يوسف ، فقد استطاع مالك دون بقيـة الفقهاء أن يقدر براعة هذا الرجل ، ويدرك مدى الخطر الذى يمكن أن تتعرض له الدولة على يديه ؛ فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال له : « هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد الا مال اليه ، وان وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كبير(٦٦) ، الا أن أمير المسلمين رفض قتله ، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن الا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخـرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء(٦٧) . وبلغ مالك بن وهيب مكانة كبـيرة عند على بن يوسف ، فأصبح جليسه وأنيسه مما أوغر عليه بعض حساده وأعدائه ، فقال فيه :

---

(٦٥) المراكشى ، ص ١٨٥ .
(٦٦) المراكشى ، نفسه
(٦٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨٦ .

دولة لابن تاشفين على
طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس اليها
من خباياه مالك بن وهيب[٦٨]

٢ — ينتان بن عمر :

كان من أشهر الوزراء العسكريين ، فقد كان قائدا لفرقة الحشم[٦٩] ؛ وكان لينتان هذا موقفا تاريخيا خلال المناظرة التى حدثت بين فقهاء المرابطين وابن تومرت ، فقد أشار البيذق الى ما قام به ينتان فى هذا اليوم من انقاذ ابن تومرت من السجن ، وأنه اقنع أمير المسلمين بتركه يرحل عن مراكش بدلا من سجنه[٧٠] ، ولقد حفظ الموحدون لينتان هذا الموقف النبيل وظهر ذلك خلال المعارك التى دارت بين المرابطين والموحدين ففى احدى هذه المعارك وقعت ابنة لينتان تسمى تاما كونت فى قبضة الموحدين ، فطلبت مقابلة عبد المؤمن بن على ، وأخبرته بما فعله والدها من أجل ابن تومرت ؛ فأطلق سراحها هى ومن كن معها من النساء وكان عددهن أربعمائة[٧١] .

٣ — اسحق بن ينتان بن عمر :

هو ابن الوزير ينتان بن عمر ، ، استوزره على بن يوسف فى أواخر أيامه ، وكان شابا لم يتجاوز الثامنة عشر عاما ، الا أنه كان يتميز بالذكاء

---

(٦٨) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٨ .
(٦٩) العبادى ، دراسات ، ص ١٥٤ .
(٧٠) البيذق ، المهدى بن تومرت ، ص ٦٨ ، ٦٩ . ويقول صاحب الحلل أن ينتان قال للامير على بن يوسف : (يا أمير المسلمين ، هذا وهن فى حق الملك ، أن تلتفت الى هذا الرجل الضعيف ، فخلى سبيله) . ص ٧٤ .
(٧١) البيدذق ، ص ٨٨ .

الخارق والفهم السريع ، ولهذا أعجب به الامير على وأسند اليه مهمة الاشراف على ديوان المظالم والشكايات ، وكان هذا الديوان لا يتولاه سوى ولى العهد بنفسه(٧٢) .

٤ – أبو محمد بن مالك :

كان أبو محمد بن مالك من الوزراء الذين حازوا ثقة أمير المسلمين على بن يوسف ، فقد أطلق على يد هذا الوزير فى جميع شئون الاندلس المالية والادارية ، وقد أشار ابن خاقان الى تلك المكانة التى تمتع بها ابن مالك بقوله : « حتى أقطعه أمير المسلمين وناصر الدين خلد الله ملكه فى الاندلس من خطة ، وأقعده على تلك المنصة وبوأه المراتب اللائقة به المختصة ، ولما كثر اختلال الشرق – أى شرق الاندلس – وفساده وظهر استفحال العدو فيه ، واستئساده ، صرف أمير المسلمين اليه وجه اهتمامه ، وجد فى صرف الشوائب عن جمامه وجعل رأيه فيه سيرة وانعل نظره له جده وتشميره ، ووجه أموالا لرم خلله وحسم علله ، واقامة ميله ، وانتعاش رجله وخيله ، ثم خاف أن ينتهبها العمال وتتعذر تلك الآمال فقلده طوقها ، وحمله أوقها ، ووجهه لبناء الاقطار ، ونبهه لقضاء تلك الاوطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم مصالحها نظم اللآل »(٧٧) .

(هـ) ديوان الرسائل والمكاتبات

كان من الطبيعى أن يكون لدولة المرابطين مترامية الاطراف ديوان

---

(٧٢) عن اسحق بن ينتان انظر : مجهول ، الحلل ، ص ٦١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٤٤ ، العبادى ، دراسات ص ١٥٤ .

(٧٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

للرسائل أو المكاتبات ، يكون همزة الموصل بين أمير المسلمين وعماله وولاته على مختلف أقاليم ومدن المغرب والاندلس من جهة ، وبينه وبين مختلف القوى المحيطة بدولته من ناحية أخرى .

ومن الملاحظ أن ديوان الرسائل والمكاتبات على عصر على بن يوسف كان يزخر بطبقة من كبار كتاب الاندلس وأدبائه وأعلام البلاغة فى ذلك العصر وربما كانت هناك عوامل وأسباب لهذه الظاهرة يمكن أن نجملها على النحو التالى :

أ ـ كانت أم على بن يوسف أم ولد روميه أندلسية ، كان لها أثر كبير فى ازالة جفوة البداوة من طبيعته ؛ ثم أنه ولد بسبته فى سنة ٤٧٧هـ وقضى فيها احداثته ، وسبتة رغم كونها فى أرض المغرب الا أنها تعتبر قطعة من الاندلس وأحد معبريه ، ولا شك أن نشأته بهذه المدينة وتعلمه على أيدى مؤدبين أندلسيين كانا حافزين على اقباله على الثقافة الاندلسية ، ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نستنتج حرصه فيما بعد على أن يحوط نفسه بكبار العلماء والأدباء من أهل الاندلس . وكان على بن يوسف يقلد ملوك الطوائف فى الأبهة والترف ، فكان له باشبيلية معرش ينزل فيه كلما حل بهذه المدينة وصفه الفتح بن خاقان أبدع وصف(٧٤) ، وفى عهده تأنق الأمراء واستناموا الى حياة الترف ونعموا بسماع قصائد الشعر وطربوا لغناء المغنيين وشيدوا القصور المنمقة ، كما كان على بن يوسف يسمع الشعر الجيد ويطرب له ولذمة شعراء أندلسيون منهم أعمى تطيلة وأبو الحسن بن أضحى(٧٥) .

---

(٧٤) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٧١ .
(٧٥) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٢ .

ب ـ أن نقطة الارتكاز فى السياسة الخارجية لدولة المرابطين وبصفة خاصـــة فى عصر على بن يوسف ، كانت الاندلس ، ولم يكن أحد أعرف بدخائل النصارى وسياستهم من هؤلاء الكتاب الاندلسيين الذين عمـل أكثـرهم فى بلاط ملوك الطوائف ، وكـاتبوا النصـارى ، واطلعوا على الاسرار الخفية التى لم يكن فى ميسور المغاربة على أن يطلعوا عليهـا

جـ ـ أدى سقوط ملوك الطوائف الى تفرق أدباء الاندلس وهجرتهم نحو المغرب ودخلوا فى خدمة أمراء المرابطين ، وبدأ هؤلاء يغمرونهم بعطاياهم ويسبغون عليهم حمايتهم ويجزلون عليهم الخلع والاموال بعد أن خلعوا عنهم خشونتهم وأخذوا بحضـارة الاندلس وبذلك يكون على بن يوسف قد مهد السبيل لنشر الثقافة الاندلسية فى دولته .

د ـ كانت دولة المرابطين قد ارتبطت زمن على بن يوسف بعـلاقات سياسية مع جيرانهم الاسلامية فى المغرب ومع دول الشرق الاســلامى ، فكان أمير المسلمين فى حاجة الى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة ، وقد تمثل ذلك فى جماعات علماء الاندلس وكتابه ممن شـاركوا مشـاركة فعلية فى الحيـاة العلمية فى المغـرب والاندلس فى عصر على بن يوسف(٧٦) .

لقد بدأ استخدام كتاب الاندلس وفقهـائه فى خدمة دولة المرابطين على عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأولهم عبد الرحمن بن أسباط وكان أندلسيا من أهل المرية التحق بخدمة البلاط المرابطى فى سنة ٤٧٢هـ الاندلس(٧٧) ، فعمل يوسف بنصيحته ولم يعبر الى الاندلس حتى تسلم

---

(٧٦) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٠ .
(٧٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٣٢ ، وانظر أيضا عنان ، عصـر المرابطين ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(١٠٧٩م) وأسند اليه يوسف منصب الكتابة ، وهو الذى استشاره يوسف فى الامر عند ورود كتب المعتمد بن عباد اليه يستنجد به على نصارى اسبانيا ، فأشار عليه ابن أسباط بأن يطلب من ابن عباد أن يتنازل له ولقواته عن الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة له عند جوازه الى الجزيرة الخضراء ، وظل ابن اسباط فى خدمة يوسف بن تاشفين الى أن توفى فى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، فخلفه فى منصب الكتابة أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعى الاشبيلى المعروف بابن القصيرة .

ابن القصيرة

كان محمد بن سليمان الكلاعى الكاتب والمعروف باسم أبى بكر بن القصيرة من أعظم كتاب الاندلس زمن الطوائف وأحد وزراء المعتمد بن عباد ، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ثم لولده على بن يوسف ، وقد استمر فى الكتابة فى بلاط على بن يوسف الى أن توفى فى جمادى الثانى عام ٥٠٨هـ (١١١٤م)(٧٨) ، ولقد وصفه ابن خاقان فى القلائد بقوله : « غرة فى جبين الملك، ودرة لا تصلح الا لذلك السلك ، باهت به الايام وتاهت فى يمينه الاقلام ، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور وانسربت اليه امانى انسراب الماء الى الغور(٧٩) ، ويقول عنه ابن الصيرفى : « الوزير الكاتب الناظم الناثر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، والسابق الذى لا يشق غبارة ، ولا تخمد أبدا أنواره ،

---

(٧٨) راجع ترجمته فى : ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ ، وابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٢ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٤ ، وابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ص ٥١٧ ، وانظر أيضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٧٩) ابن خاقان، قلائد العقيان ، ص ١٠٤ .

اجتمع له براعة النثر ، وجزالة النظم ، رقيق النسيج ، حصيف المتن ، رقعته ماشيت فى العين واليد »[٨٠] • وقد وصلت الينا نماذج كثيرة من نثر ابن القصيرة أهمها بالنسبة لدراستنا نص المرسوم الصادر عن يوسف ابن تاشفين باسناد ولاية العهد الى ولده على ، فضلا عن رسائل مختلفة أوردها لنا صاحب قلائد العقيان ، وكلها تعبر عن جزالة لفظه وقوة التعبير ، ويرجع الى ابن القصيرة الفضل الاعظم فى تحويل بلاط على بن يوسف الى بلاط الاندلس ، فقد اجتذب الى المغرب صفوة أدباء الاندلس وفتح الباب على مصراعيه لخدمة أمير اسلمين ، فاحتشدوا فى بلاطه وتولوا خدمة ديوان الانشاء وأشهر هؤلاء الاعلام :

١ — بنو القبطرنة :

هم أبو بكر وأبو محمد وأبو الحسن بنو القبطرنة[٨١] من أعظم كتاب دولة بنى الافطس أصحاب بطليوس ، وأعظمهم حظوة لدى المنصور والمتوكل ابنى الافطس هو الوزير أبو بكر ، وقد كتب ثلاثتهم بعد سقوطها لأمير المسلمين على بن يوسف • يقول عنهم صاحب القلائد : « هم للمجد كالأثافى وما منهم الا موفور القوادم والخوافى ، ان ظهروا زهروا ، وان تجمعوا تضرعوا ، وان نطقوا صدقوا ، ماؤهم صفو ، وكل واحد منهم لصاحبه كفو ، أنارت بهم نجوم المعالى وشموسها لهم أرواحها ونفوسها »[٨٢] ، كما يصفهم صاحب نفح الطيب بقوله : « وكان بنو

(٨٠) المراكشى ، عن ابن الصيرفى فى المعجب ، ص ١٦٤ •

(٨١) لآ ترجمة بنى القبطرنة انظر : ابن الابار ، التكملة ترجمة رقم ١٧٤٣ ، ابن خاقان ، القلائد ص ١٤٨ — ١٥٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ابن دحية ، المطرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ابن الخطيب الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥٢٠ وما يليها ، المقرى ، ج ٢ ص ١٢٦ — ١٦٤ •

(٨٢) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٤٨ •

القيطرنة بالاندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة »[83] •

٢ ـ ابن عبـــدون :

عاش أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهرى اليابرى الاندلسى فى بلاط المتـوكل بن الافطس فى بطليوس ، وعنـدما طويت صفحة الدولة الافطسية فى عام ٤٨٧هـ بوفاة المتوكل بن الافطس وولديه ، التحق ابن عبدون بخدمة سير بن أبى بكر اللمتونى ، ثم كتب ليوسف بن تاشـفين ولولده على بن يوسف[84] ؛ وعاش فى البلاط المرابطى حتى آخر حياته ، حيث توفى فى عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م)[85] • وكان من كبار شعراء الاندلس واليه تنسب مرثيته لبنى الافطس المسماة بالعبدونية وهى القصيدة التى بدأها بقوله :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر · فما البكاء على الاشباح والصور ؟

وقد وصف صاحب المعجب هذه القصيدة بقوله : « انها أزرت على الشعر وزادت على السحر ، وفعلت فى الالباب فعل الخمر،فجبلت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشـير وتساوى فى تفصيلها وتقديمهـا بأقك وجرير »[86] ، وفضـلا عن تلك القصيدة ، فلابن عبدون أيضا رسالته التى كتبها عن الامير سير بن أبى بـكر اللمتونى الى أمير المسلمين على بن يوسف يبشره فيها بفتح مدينة

---

(٨٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ·
(٨٤) المراكشى ، المعجب ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ١٦٤ ·
(٨٥) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ١١٨ ·
(٨٦) المراكشى ، المعجب ، ص ٥٧٥ ، ٧٦ ·

شـنترين الحصينة[٨٧] ؛ وله أيضا رسالته التى كتبها الى ابى عبد الله محمد بن أبى الخصال يخطب مودته[٨٨] .

٣ ـ ابن الجـد :

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى ، من أسرة بنى الجد من أعيان مدينة لبلة واشبيلية[٨٩] ، التحق فى بداية أمره بخـدمة دولة ابن عباد[٩٠] ؛ ولما ذهبت دولتهم تولى خطة الشورى ببلده لبلة[٩١] ، ثم استدعاه على بن يوسف ليتولى الكتابة فى ديوان رسائله[٩٢] ، واستمر يـؤدى دوره فى بـلاط أمير المسـلمين الى أن توفى فى عـام ٥١٥هـ (١١٢١م)[٩٣] .

وقد نقل ابن خاقان عددا من الرسائل التى كتبها ابن الجد عن أمير المسلمين على بن يوسف وكلها تسلط مزيدا من الضوء على تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين ، نذكر منها رسالته الى القائد أبى محمد عبد الله بن فاطمة عامله على اشبيلية ، وأخرى عنه الى أهل غرناطة ينعى فيها عليهم اختلافهم وتنازعهم ومطالبتهم ببذل الطاعة لواليهم ؛ وثالثة فى تولية أبو زكريا يحيى بن أبى بكر المعروف بابن الصحراوية على سبتة وفاس[٩٤] .

---

(٨٧) المراكشى ، نفسه ، ص ١٦٤ ـ ١٦٨ .
(٨٨) المراكشى ، نفسه ، ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .
(٨٩) فى ترجمة ابن الجد انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص٥٧٤ ، ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٠٩ ، ابن سعيد ، المغـرب ، ج ١ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، عبد الواحد المراكشى ، ص ١٧٣ ، ابن دحية ، المطرب ، ص ١٩٠ .
(٩٠) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٤١ .
(٩١) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .
(٩٢) مكى وثائق تاريخية جديدة ، ص ١١٦ ، عنان نفسه ، ص ٤٤١ .
(٩٣) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٧٤ ، ابن دحيـة ، المطرب ، ص ١٩٠ .
(٩٤) ابن خاقان ، القلائد ، ص ١١٢ ـ ١١٤ .

٤ ــ ابن أبى الخصـــال :

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقى الشقورى المعــروف بابن أبى الخصال الغافقى ، وكان من أهل شقورة ، برز فى الفقه وبرع فى الكتابة والشعر حتى أصبح من أبرز أعلام النثر الاندلسى فى عصر المرابطين ، يصفه صاحب الاحاطة بأنه : « الشيخ الأجل ، ذو الوزارتين ، الســـيد الكامل ، الشهير ، الاثير ، الاديب اللغوى السرى ، الكاتب البليغ ، معجزة زمانه وسابق أقرانه ، ذو المحاسن الجمة ، الجليلة الباهرة ، والادوات الرفيعة الزكية الظاهرة الكاملة ، المجمع على تناهى نباهته ، وحمد خصاله فصاحته ، من لا يشق غباره ، ولا تلحق آثاره ، معجزة زمانه فى صناعة النثر والنظم »(٩٥) . وكان أبو عبد الله بن أبى الخصال هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كتاب دولة المرابطين الى قلب على بن يوسف وأدناهم مكانة لديه(٩٦) ، غير أن أبا عبد الله على ما يظهر لم يكن مخلصا فى خدمته له ، اذ أن أمير المسلمين قد أمره أن يكتب عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتسببوا فى هزيمة قبيحة للمسلمين على يدى ابن رذمير ، وكان أمير المسلمين لا يطلع عادة لثقته فى كتابة على نص الرسائل التى كانت تصدر عن ديوانه ، فكان يكتفى بتوجيههم للنقـــاط الاساسية التى يتعين على الكتاب أن يكتبوا فيها ، فحدث أن عهد على بن يوســـف الى كاتبه عبد الله بن أبى الخصال بكتابة رسالة توبيخ الى جنـــد بلنسية ، فأهتبلها فرصة لاظهار مكنون حقده على المرابطين مما تسبب فى غضب الامير منه ، فكان من فصول تلك الرسالة قوله : « أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، ألم يزيقكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط

---

(٩٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ج ٢ ، ص ٤١٦ .

(٩٦) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٣ .

الخيول ضأنا لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم »[٩٧] . وقد كانت هذه الرسالة سببا فى الجفوة التى قامت بينه وبين الامير ، فأعفاه من منصبه ، وعاد الى قرطبة حيث توفى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٦م)[٩٨] .

٥ ـ ابن الصيرفى :

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطى ، كان من أعلام الكتاب فى ديوان على بن يوسف وقد ألف فى تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين كتابة الموسوم «بالانوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية» ، كما ألف كتابا آخر عنوانه « قصص الانبياء وسياسة الرؤساء »[٩٩] ، لم يصلا الينا منهما سوى شذور من الانوار الجلية نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة الفونسو المحارب للاندلس[١٠٠] ، وقد توفى ابن الصيرفى فى غرناطة فى عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م)[١٠١] .

٦ ـ ابن عطية :

هو أحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطية القضاعى ، أصله الأول من طرطوشة ، ثم من دانية ، كتب عن على بن يوسف وعن ابنه تاشفين ، ثم عن أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين ، وكان أحظى كتابهم لديهم الى أن

---

(٩٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٦ ، وقد نشر الدكتور حسين مؤنس نص هذه الرسالة فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥م ، ص ١١٦ ـ ١١٨ .

(٩٨) المراكشى ، نفس المصدر والصفحة .

(٩٩) عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٤٤ .

(١٠٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٣ .

(١٠١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٢ .

سقطت دولتهم ، فاستتر وأخفى نفسه ، الى أن ظهر من جديد زمن الخليفة الموحدى عبد المؤمن فقلده وزارته الى أن نكبه عبد المؤمن بن على(١٠٢) .

وهناك غير هؤلاء الكثير من الكتاب والادباء الذين عملوا فى خدمة دولة المرابطين زمن أمير المسلمين على بن يوسف منهم على بن عبد العزيز بن الامام الانصارى(١٠٣) ، وأبو نصر الفتح بن خاقان وغيرهم(١٠٤) .

---

(١٠٢) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ .
(١٠٣) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٢ .
(١٠٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٤٥٠ ، بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٢٩٦ .

ثانيا : النظـام القضـائى فى عصر على بن يوسف

(أ) نظرة عامة على النظام القضائى فى عصر على بن يوسف •

(ب) أهم خطـوط القضـاء الشرعى •

(جـ) القضـاء العسـكرى •

(د) قضـاء الذميين فى الاندلس •

تعتبر العدالة ونصفة المظلومين من الاسس الهامة التى دعا اليها الاسلام ، فقد أمر تعالى بتحرى العدالة فى الاحكام ؛ من ذلك قوله تعالى فى كتابه العزيز : « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين »(١) ، وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(٢) ٠

ونستدل من هذه الآيات الكريمة على أهمية القضاء وخطورته والمسئولية الملقاة على كاهل القضاة ؛ وقد اهتم المرابطون بخطة القضاة اهتماما خاصا ، اذ كانوا لا يقطعون فى أمر دون استفتاء الفقهاء والقضاة ، ولهذا تمتع القضاة بمكانة كبيرة فى المجتمع المرابطى ٠

وكانت للقضاة فى دولة على بن يوسف اختصاصات واسعة ومهام عديدة ؛ يحددها ابن خلدون فى قوله : « واستقر منصب القضاء آخر الامر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنة وفى وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على رأى من رآه والنظر فى مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل اليهم الوثوق بهم ، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته »(٣) ، وكان له الاشراف على خطة الشورى والفتيا(٤) والاشراف

---

(١) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية رقم ٤٢ ٠

(٢) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية رقم ٤٤ ٠

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٥ ٠

(٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ ٠

على بيت المال وموارده ، واختيار القائمين عليه وأوجه أنفاقه[5] • وفى رسالة موجهة من أمير المسلمين على بن يوسف الى الوحيدى قاضى مالقة وذلك فى سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م) يعرف فيها القضاء بأنه « لرفع المشكلات وتمييز الحقائق من المتشابهات والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات[6] •

(أ) نظرة عامة عن النظام القضائى فى عصر على بن يوسف :

كان تعيين القضاة يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين ، يوصى فيه القاضى بأن يكون عادلا حازما ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ويتمثل ذلك فى المرسوم الذى أصدره على بن يوسف فى أوائل رمضان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) بتولية القاضى موسى بن حماد قضاء مدينة غرناطة وقد جاء فيه : « وبعد ، فتقلد معانا مسددا ما قلدناك وانهض نهوض مستقل بما حملناك ، وتلق ذلك بانشراح من صدرك ، وانبساط من نفسك وفكرك ، وقم فى الخطبة مقام مثلك ممن استحكمت سنه ورجح علمه ، وكفه عن التهافت وروعه وعلمه • وليس هذه بأول ولايتك لها فنبتدىء بوصيتك ونعيد ، ونأخذ بالقيام بحقها العهد الموفق السديد ، بل قد سلفت فيها أيامك وشكر فيها مقامك ، واستمرت على سنن الهدى أحكامك ، فذلك الشرط عليك مكتوب ، وأنت بمثله من اقامة الحق مطلوب ، وأنا ما نعلمه من جيل نظرك واعتدال سيرك ، لم نر أن نقفل توصيتك بحكام الانظار القاصية عليك ، والقريبة منك ، فلا تنصر فيها الا من كثر الثناء عليه وأشير بالثقة اليه ، ولتكن رقيبا على أعمالهم ، وسائلا عن أحوالهم ، فمن بطىء

---

(٥) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص ١٠ ، ص ١١ •

(٦) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٧١ ؛ عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، ص ٤٣١ •

به سعيه ، وساء فيما تولاه نظره ورأيه ، أظهـرت سخطته ، وأعلنت فى الناس جرحته ، فذلك يعدل جانب سواه ويشربه النصيحة فيما يتولاه » ، ولدينا نص الرسالة الموجهة من على بن يوسف الى الوحيدى أبو محمـد عبـد الله بن أحمـد القيسى المالقى تتضمن واجبـات القضاء وتحـدد اختصاص السلطة القضائية وعلاقتها بسائر السلطات(٧) . وكان تولية القاضى فى منصبه تتم بناء على ترشيح أهل البلاد ، أى أن اختيار القاضى كان يتوقف على رغبة أهل البلد وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية ونستدل على ذلك من الرسالة الثامنة عشر من الرسائل التى نشرها الدكتور محمود على مكى(٨) . كما كان عزل القاضى أيضا بمرسوم من أمير المسلمين ، وكان هذا المرسـوم يرسـل الى أهل المدينـة التى عزل قاضيها ليطلعوا على الاسـباب التى أملت على أمير المسلمين عزله ، وقد أشار ابن عذارى الى سطور من المرسـوم الذى أرسله على بن يوسف الى أهل مدينة فاس سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) يبين فيه الاسباب التى أدت الى عزله لقاضيهم ابن الملجوم عن قضاء مدينـة فاس جاء فيه : « أبقاكم الله وأكرمكم بتقـواه ويسركم لما يرضاه وقد أنهى الينا أن الجهول ابن الملجوم ، أجهل بأحكام القضاء من العلجوم ، وأنه أظهر فيكم أحكاما يترحم من مثلها على سدوم ، فقد وليناه خطة الملوم ونبـذناه فى العـراء وهو مذموم ، وجعلنـا شهب العـزلة لشياطينه كالرجوم »(١٠) .

كان القضاة يحصلون على رواتب ثابتة من بيت المال ، فقد كان من

---

(٧) المالقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٩٨ .
(٨) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٤٠ .
(٩) مكى ، نفسه ، ص ١٦٤ .
(١٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

الطبيعى للمحافظة على استقلال القضاء ، والحفاظ على سمعة القضاة ، تقدير رواتب شهرية لهم[11] • وكان القضاة يتخذون الكتـاب ، وممن كتب للقضاة ابراهيم بن جعفر بن أحمد اللمتونى ، يعرف بابن الفاسى وقد كتب القاضى أبى الاصبغ بن سـهل طوال مدة قضـائه بالاندلس والمغرب[12] ، وأبو عبد الله محمد بن على بن عياش الذى كتب للقاضى أبى الحسن بن أضحى[13] ، وأبو عامر محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن أمية بن مطرف الجمحى وقد كتب لأبى الحسن بن عبد العزيز قاضى بلنسية[14] ، كما كان للقضاة حجاب يقفون على أبوابهم ليحجزوا بين الناس وبين مكان القضاة حفاظا على هيبة المجلس القضائى ووقاره[15] •

(ب) أهم خطط القضاء الشرعى فى الدولة :

(أ) قضـاء الجماعة :

يعتبر منصب قاضى الجمـاعة من أرفع المنـاصب القضـائية فى الاندلس ، كان صاحبه يشرف على القضاء فى جميع أنحاء الاندلس ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه الا كل من يثبت كفـاية عالية فى أمور القضاء ، وكان قاضى الجماعة فى الاندلس يتمتع بسلطات واسعة ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى الذى وجهه الامير يوسف بن تاشفين الى اتباع الحق فى الاحكام دون أن يعرف فى الله لومة لائم فكتب له « ولا تبالى برغم

---

(١١) المالقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٠٤ ، علال الفاس ، الخطط الشرعية (القضاء) ، مجلة البينة ، السنة الاولى ، العدد ٩ ، نوفمبر ١٩٦٢م، ص ١٠٩ •

(١٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٠١ •

(١٣) ابن الابار ، التكملة ، ج ٢ ص ٤٧٣ •

(١٤) ابن الابار ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ •

(١٥) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٧٠ •

راغم و تشفق من ملامة لائم ، فآس بين الناس فى عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ...... »[16] . ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة فى الاندلس فى عصر على بن يوسف أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد المالكى[17] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف ابراهيم التجيبى المعروف بابن الحاج[18] .

وكانت رئاسة القضاء فى المغرب تسند الى قاضى الجماعة بمراكش ، الذى كان يسمى بقاضى قضاة المغرب[19] أو بقاضى الحضرة[20] ، ويقول الدكتور حسن محمود أن هذا القاضى كان أقرب الفقهاء الى قلب أمير المسلمين ، وأدناهم منه مجلسا ، فقد كان عضوا بمجلس الشورى ، وكان أمير المسلمين يستفتيه فى كل ما يعرض له من شئون[21] . ومن أشهر من تولى هذا المنصب : أبو محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم بن منصور اللخمى[22] ، وأبو الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن أبى حقون[23] ، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله[24] .

---

(١٦) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، مخطوط بغداد ، القسم الثانى ، ص ١٠٦ .

(١٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، الضبى ، بغية الملتمس ص ٥١ ، المالقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٩٨ .

(١٨) ابن الابار ، المعجم فى أصحاب القاضى الامام ابى على الصدفى ، ص١١٨ ، ص١١٩ .

(١٩) ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ٩١ .

(٢٠) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٦٧ .

(٢١) حسن أحمد ، نفسه ، ص ٣٦٧ .

(٢٢) ابن الابار ، المعجم ، ص ٢١٤ .

(٢٣) ابن الابار ، نفسه ، ص ٣٠٠ .

(٢٤) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

ونتفق مع رأى الدكتور حسن محمود فى أن المرابطين قطعوا فى سبيل تنظيم القضاء شوطا أبعد من مجرد تقسيم قضاء الاندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء فى كل منهما لقاضى قضاة ، أحدهما يختص بالاندلس والآخر يختص بالمغرب ، بل ان المرابطين اتخذوا فقهيا له السلطة العليا على قضاء المغرب والاندلس على السواء(٢٥) ، ومن المرجح أن زعامة القضاء فى العدوتين كانت أحيانا من نصيب قاضى مراكش أو قاضى سبتة أو طنجة ، وأحيانا أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة(٢٦) .

(ب) قاضى قضاة الشرق :

كانت بلاد الاندلس مقسمة جغرافيا زمن المرابطين الى ثلاثة أقاليم رئيسية هى : الشرق والوسطة والمغرب ، وكان لكل اقليم من هذه الاقاليم الثلاثة قاضى قضاة يشرف على القضاء فى الاقاليم التابع له(٢٧) . وقد أشار المؤرخون الى منصب قاضى قضاة الشرق وهو المختص بالاشراف على قضاء شرق الاندلس ، ولدينا رسالة وجهها على بن يوسف الى أحد عماله على الاندلس ، يحثه فيها على حماية قاضى قضاة الشرق ، كما تحمل هذه الرسالة انذارا للمعترضين على قاضى قضاة الشرق بتوقيع أشد العقاب عليهم(٢٨) . ومن أشهر من تولى هذا المنصب : ابراهيم بن محمد ابن ابراهيم بن عبد الله بن عصام المعروف بابن منتيل(٢٩) ، وأبو بكر محمد بن ابراهيم بن أحمد بن أسود الغسانى(٣٠) ، وأحمد ن محمد بن

---

(٢٥) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٦٧ .
(٢٦) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ٣٦٨ .
(٢٧) مؤنس ، سبع وثائق جديدة ، ص ٧٥ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ٧٥ .
(٢٨) مكى ، نفسه ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .
(٢٩) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦
(٣٠) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٣٠ ، ١٣١ مؤنس ، سبع وثائق جديدة ص ٧٥ .

زيادة الله الثقفي ويعرف بابن الحلال(٣١) .

(جـ) خطـة الاشراف :

تعتبر خطة الاشراف من خطط القضاء المعروفة في عهد الامير علـى بن يوسف ، وكانت تختص بالفصل في المنازعات بين الاشراف ويبدو أن المقصود بهم هم قبيلة لمتونة وكبار رجال الدولة والاسرة الحاكمة ، وقد أورد الفتح بن خاقان اسم واحد ممن تولى هذه الخطة هو الوزير المشرف أبو بكر بن رحيم ، فقد أرسل اليه ابن خاقان يهنئـه على تولية خطـة الاشراف باشبيلية سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) بقوله :

اذا ما شرف الاشراف قـوما	فان بني رحيـم شرفوه
ومن يعرف به لهم قديمـا	وان رغمت أنـوف عـرفوه
كفـاه للملوك على سـبيل	ودين نصيحة ما حـرفوه
أبو بـكر له ولهم كفيـل	بـكل كفـاية اذ صرفوه
وما الاشراف الا عبـدقن	لهم فمتى تولى استنصرفوه(٣٢)

(د) خطة الشـورى :

هي احدى خطط القضاء في عصر على بن يوسـف ، ومن المرجح أن صاحبها كان فقهيا يشاوره القاضي قبل أن يصدر الاحكام ، وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته ، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية ، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة : اثنان يشتركان في مجلس القاضي ، واثنـان يقعدان في المسجد الجامع(٣٣) .

---

(٣١) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٦٤ ، المعجم ، ص ٣٩ .
(٣٢) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٨٠ .
(٣٣) ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ، ص ٩ ، حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

(هـ) النظر فى المظالم :

كان النظر فى المظالم فى عصر على بن يوسف من اختصاصات ولى العهد وقد أورد لنا ابن عذارى نصا يشير الى تولية الامير سير بن على بن يوسف ولى عهد الدولة خطة النظر فى المظالم نصه ما يلى : « واستقل بالأمر ونظر فى سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيوش والاحكام والولايات والعزل ورد المظالم »(٣٤) ، كما أشار صاحب الاحاطة الى قيام الامير تاشفين بن على ابن يوسف خلال فترة توليه ولاية عهد المرابطين بالنظر فى المظالم : « وأقام المساجد فى الثغور ، وبنى لنفسه مسجدا بالقصر ، وواصل الجلوس للنظر فى الظلامات ، وقراءة الرقاع ورد الجواب »(٣٥) ، ولكن يبدو أن هذه الخطة قد أضيفت الى اختصاصات الوزير وذلك فى أخريات عصر على بن يوسف ، عندما ازدادت مشاكل الدولة فى الداخل بسبب الصراع مع الموحدين ، وفى الخارج بسبب الحروب مع نصارى الاندلس وانشغال الامير تاشفين ولى العهد بالدفاع عن الدولة ، يؤكد ذلك ابن عذارى فى قوله : « واستوزر على بن يوسف فى آخر أيامه اسحق بن ينتان بن عمر بن ينتان وما بلغ من عمره ثمانية عشر عاما ، وكان يتوقد ذكاء وعقلا وفهما فأعجب به اعجابا كثيرا وجعل اليه النظر فى المظالم والشكايا ، فاتبع الناس فى أمورهم وكافة شئوونهم »(٣٦) .

أما القضاء المدنى فقد ظل على حالة فى الاندلس والمغرب دون تغيير ، وكان يدخل فيه نظام الحسبة وما يرتبط به من مهام وكذلك نظام الشرطة .

---

(٣٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٨ .
(٣٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٤٥٠ .
(٣٦) ابن عذارى ، البيان ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(و) خطــة صــاحب الاحــكام :

هى خطة قضائية صغيرة كان يتولاها على حد قول الدكتور حسـين مؤنس فقيه من الناشئين فى سلك القضاء فى بلدة ما أو فى حى من أحيائها نيابة عن أحد كبار القضاة وبتفويض خاص منه يبيح له أن يصدر أحكامه باسمه فيما يعرض له من قضايا ، وهو ما يعرف فى المصطلح الحـديث بقضاء الدرجة الثانية ؛ كما وجد فى عصر المرابطين قضاء درجة ثالثة يتولاه فقيها يعرف بالمسدد لا يتجاوز دائرة اختصاصه القرية الصغيرة ولا يتصدر للحكم الا فى القضايا والمنازعات الصغيرة(٣٧) . ويتولى صاحب الاحكام بناء على عقد يعرف باسم الصك وقد نشر الدكتور مؤنس كتاب صك عن أحد الرؤساء(٣٨) .

(ج) القضاء العســكرى :

عرفت دولة على بن يوسف ما يمكن تسميته بالقضاء العســكرى ، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند فى مواضـع خاصـة بالمعسكرات ، كما كانوا يشتركون فى القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال ، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند ، وقد أشار صـاحب المعجم الى أحد القضاة الذين شـغلوا منصب القضـاء العسكرى وهو عبد الرحيم بن اسماعيل الذى عين قاضيا فى عسكر أمير المسلمين على بن يوسف بمدينة سلا(٣٩) .

(د) قضاء الذميين فى الاندلس :

أما بالنسـبة لأهل الذمة فى الاندلس ، فقـد كان رجال الدين من

---

(٣٧) مؤنس ، سبع وثائق جديدة ، ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٣٨) مؤنس ، نفسه ، ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٣٩) ابن الابار ، المعجم ، ص ٢٥٧ .

النصـــارى واليهود يتولون القضـــاء لهم ، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين ، أجاز الفقهاء تقليد الذمى القضاء لأهل الذمة ، وفى الاندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضيا يعرف بقاضى النصارى أو قاض العجم . أما اذا كانت الخصومة بين ذمى ومسلم فان قضاة المســلمين يتولون الفصل بينهما وفى هذا الصدد يشير اشباخ الى أن النصارى كانوا « يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطيــة ولهم أساقفتهم وقضاتهم »(٤٠) ، ولكن منذ أن تواطأ النصارى المعاهدون فى غرناطة مع الفونسو الأول المحــارب فاستدعوه اليهم ســنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بعد أن استثاروا طمعه وابتعثوا جشعه ، ومنذ أن افتضــح تدبيرهم فى اجتلابه ناكثين بذلك عهدهم للمسلمين أفتى القاضى أبو الوليد ابن رشد « بتغريبهم واجلائهم الى العدوة عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم »(٤١) .

---

(٤٠) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٨٢ .

(٤١) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ ، ص ٧٠ .

ثالثا : النظـام الحـربى فى عهـد على بن يوسـف

(أ) الجيش

(ب) الأسـطول

(أ) الجيش

قامت الدولة المرابطية على أساس دينى يعتمد على روح الجهاد ، وقد تجلت هذه الروح واضحة جلية فى معارك المغرب الاقصى التى خاضوها ، كما تجلت أيضا فى معركة الجهاد فى الاندلس .

كانت القيادة العليا للجيش المرابطى تعقد لأمير المسلمين ، أما فرق الجيش المختلفة فكان يتولى قيادتها قواد من الاسرة الحاكمة كى يضمن أمير المسلمين ولائهم واخلاصهم له(١) .

كان لكل من الاندلس والمغرب، قيادة عليا موحدة ، فكانت القيادة العليا للجيوش الاسلامية فى الاندلس تعقد للحاكم العام للاندلس الذى كان غالبا أحد أبناء أمير المسلمين أو أحد أخوته ، ولدينا رسالة أرسلها على بن يوسف الى ابنه أبى بكر القائم بولاية اشبيلية خلفا لعمه تميم ابن يوسف فى سنة ٥١٧هـ ؛ بتقليده قيادة الجيوش بجزيرة الاندلس ، حيث يقول فيها : « وقد رأينا أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة ..... عموما يشمل من كان هناك منها ، ومن وصل من هذه العدوة ... اليها »(٢) . ومن هنا فقد كان منصب الولاية على الاندلس منصبا سياسيا وحربيا فى نفس الوقت ، وهذا يوضح أن الاسس التى قام عليها دولة المرابطين كانت حربية الطابع ، وكان كل قادة الجيوش وولاة الاقاليم يدينون بالطاعة والولاء لأمير الاندلس . أما القيادة العليا للجيوش المرابطية فى المغرب فمن المرجح أنها كانت تخضع للاشراف المباشر لأمير

---

(١) حسن أحمد محمود قيام دولة المرابطين ، ص ٣٨٤ ، العبادى ، دراسات ، ص ١٥٢ .

(٢) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

المسلمين بسبب اقامته شبه المستمرة فى عاصمته مراكش المغربية ، أو كانت توضع تحت اشراف أحد كبار رجال الاسرة الحاكمة .

سارت الدولة على سياسة أحداث التنقلات بين قادة الفرق العسكرية ، وهى نفس السياسة التى اتبعتها الدولة فى شغل مناصب الولاية على مختلف مدن المغرب والاندلس ، فقد سارت الدولة على سياسة عدم بقاء الوالى على ولايته أكبر فترة ممكنة ، حتى لا يكون ذلك فرصة للانفراد بالولاية والخروج عن طاعة أمير المسلمين(٣) .

ولقد كان أمير المسلمين على بن يوسف خبيرا باختيار القادة الذين يعاونونه فى قيادة الجيش المختلفة ، واختيار القائد الناجح أمر يحتاج الى عبقرية ، فاكتشاف المواهب ليس أمرا هينا ، فهو يحتاج الى الفطنة واليقظة وحضور البديهة والتجربة وتقدير الواجب والحزم ، لذلك فما من قائد اختاره الا وظهرت عبقريته وقام بما كلف به خير قيام ، وأدى واجبه مخلصا لله ولأمير المسلمين ، ولقد ظهر من بين المرابطين قادة من أعظم القواد العسكريين نذكر منهم أبو محمد مزدلى ، سير بن أبى بكر اللتمونى ، أبو عبد الله محمد بن الحاج ، داود بن عائشة ، عبد الله بن فاطمة ، يحيى بن غانية وتاشفين بن على بن يوسف .

كان من الطبيعى أن يعقد أمير المسلمين أو نائبه مجلسا حربيا يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة ، لدراسة الخطط الحربية ، وتلقى الاوامر والتعليمات من أمير المسلمين(٤) .

---

(٣) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٨٤ .
(٤) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ .

عناصر جيوش المرابطين :

(أ) الملثمون أو المرابطون ، وكانوا هم النواة الأولى التى تكون منها الجيش المرابطى ، وقد قامت الدولة على أكتافهم ، وقد اشتهر هؤلاء اللمتونيون أو الملثمون بقوة بأسهم فى الحرب ولا يفرون أمام العدو مهما تفوق عليهم فى العدد ، ويرجع اليهم الفضل فى تلك الانتصارات الرائعة التى أحرزتها الدولة سواء فى المغرب الاقصى أو فى معركة الجهاد فى الاندلس •

(ب) العرب : وكانوا يشكلون فرقة من أهم فرق الجيش المرابطى ، وقد شاركوا فى كثير من حروب المرابطين فى الاندلس ، وتنتمى بعض العناصر العربية الى عرب الاندلس الذين استقروا فى المغرب فى عصر الادارسة فى حين يرجع البعض الآخر الى بنى هلال ممن تسربوا الى المغرب الاوسط خلال القرن الخامس الهجرى ، وقد شارك هؤلاء العرب فى معركة كنسويجره consuegra فيقول ابن الكردبوس : « فجرد — أى يوسف بن تاشفين — عسكرا جرارا من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب ، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج ، فألتقوا بكنشرة ، فكانت بينهم جولات وحملات الى أن زلزل الله أقدام المشركين ، وولوا مدبرين •• »(٥) كما شاركوا فى معركة اقليش فيقول ابن القطان : « واستشهد فى هذه الوقيعة — أى اقليش — الامام الجزولى ، وكان رجل صدق ، وجماعة من الاعيان والعربان •• »(٦) وسيشارك هؤلاء العرب فى الجهاد فى الاندلس على الاخص فى عصر الموحدين •

---

(٥) الاكتفاء ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ •

(٦) نظم الجمان ، ص ٩ ، ص ١٠ ، وانظر أيضا ، مؤنس ، الثغر الاعلى الاندلسى ، حاشية (٢) ، ص ١٢٩ •

(جـ) الحرس الخاص : كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط فى قبـولهم أن يكونوا من ذوى القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة يقول اشباخ « جمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق فى اقليم غانا ، عددا كبـيرا من العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل ودربهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص الاسود من ألفى رجل وأنشأ على مثال هذا النمط حرسا خاصا من الاندلسيين يتألف من فتيـان من النصارى المعاهدين ، وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته وينعم على من امتاز منهم بالاخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثيـاب والسلاح والعبيد »(٧) • ولم يلبث هذا الحرس الخاص أن أصبح ركنا أساسيا من أركان الجيش المرابطى ، ولاسيما أن عليا بن يوسف ضم اليه الكثير من أسرى الحروب مع المسيحيين ، كما أنه اشترى الكثيرين منهم من شـواطىء جيليقيـة وقطـلونية وايطـاليا والامبراطورية البيزنطية(٨) ، وقد شارك هذا الحرس الخاص فى حراسة معاقل المغرب بل حتى فى حروب الدولة ضد الموحدين ، وكان من أبرز الجند النصرانى فى حرس على بن يوسف القائد القطونى الشهير الروبربير(٩) Reverter

(د) الحشـم : كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المرابطى ، وكانت تتكون من زناتة والمصامدة(١٠) ، وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية فى القتال •

فنـون القتـال :

يصف أبو بكر الطرطوشى فن القتـال فى الاندلس فى عصره ، ومن

---

(٧) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ •

(٨) Dozy, Histoire., Vol, III, p. 164.

(٩) عن الروبرتير انظر الفصل الخاص بالعلاقات بين المرابطين والموحدين •

(١٠) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٢١ ، ٢٢ •

المعروف أن الطرطوشى قد عاصر الفترة الأولى من دولة المرابطين وبصفة خاصة عصر يوسف بن تاشفين ، ولذا فان فى وصفه لفن القتال فى الاندلس فى عصره ، يتضمن فن القتال فى عصر المرابطين ، ولاسيما أن المرابطين بعد أن افتتحوا الاندلس نقلوا الكثير من طرق القتال التى كان يعرفها أهل الاندلس فيقول الطرطوشى : « فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو تدبير نفعله فى لقاء عدونا ، أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة ، فيصفوا صفوفهم ، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الارض ، وصدورهم شارعة الى عدوهم وهم جاثمون فى الارض ؛ وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة ، فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فاذا قرب العدو ، رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمنة ويسرة ، فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله »(١١) .

ولكن لم يلبث أن تطور هذا النظام ، فأصبح ترتيب المعركة يقوم على أساس نظام خماسى أى المقدمة والمؤخرة ، والميسرة والميمنة والقلب . فكانت المقدمة تتألف من الجند المشاة ، أما الجناحان وهما يمثلان الميمنة والميسرة ، فقد كانتا تتألفان من وحدات من الفرسان الخفيفة وحملة النبال ، أما القلب فقد كان يتألف من وحدات من الفرسان الثقيلة ، أما المؤخرة أو الساق ، فقد كانت توجد بها القوة الاحتياطية ، وكان يقودها عادة أمير المسلمين اذا كان مصاحبا للجيش ؛ وكان لكل قسم من هذه الاقسام الخمسة قائده الخاص به(١٢) . وكان الجند ينظمون وفقا للاقاليم

---

(١١) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٧٩ .
(١٢) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٧٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤١٢ .

والمدن ، فكانت فرق الحشم فى المقدمة ، وفى الجناحين أهل الثغور ، وفى القلب القائد العام للجيش وجموع المرابطين ، وفى الساقة أهل الاندلس ، كما كان لكل فرقة أعلامها الخاصة بها فأهل الاندلس يحملون أعلام اشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها وهى الاعلام الحمراء ذات الصور ، أما أعلام المرابطين فكانت مزخرفة بالآيات القرآنية ، أما فرق الحشم فكانت أعلامها مزركشة ملونة(١٣) • كانت العادة أن تتقدم فرق الحشم القتال ، ثم تتلوها بقية الفرق الأخرى فى دقة ونظام كلما أنهكت فرقة تقدمت اليها فرقة أخرى ، أما فرقة لمتونة فهى لا تخوض المعركة الا فى مرحلتها الاخيرة ، لخوف المرابطين من تفرق الفرق الأخرى عنهم وتتركهم لسيوف الاعداء ، فكان طبيعيا أن يكونوا هم فى مؤخرة الفرق العسكرية كى يجنوا ثمار النصر فى النهاية(١٤) ، كما أورد لنا صاحب الحلل الموشية قصيدة شعرية تضمنت ألوانا من فنون الحرب والقتال على عهد المرابطين ، وقد أهديت هذه القصيدة الى الامير تاشفين بن على بن يوسف وهى من نظم كاتبه المؤرخ ابن الصيرفى ، نكتفى هنا الاشارة الى بعض أبياتها(١٥) • نستخلص من هذه الابيات بعض فنون الحرب والقتال التى نصح ابن الصيرفى تاشفين باتباعها وهى :

---

(١٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج١ ، ص٤٥٢ ، ص٤٥٣ •

(١٤) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٨٨٩ •

(١٥)

أهديك من أدب السياسة ما به	كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأنني أدرى بها ولكنها	ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
خندق عليك اذا ضربت محله	سيان تتبع ظافرا أو تتبع
حارب بمن يخشى عقابك بالذى	يخشى وهو فى جود كفك يطمع
قبل التهارش عبء جيشك مفسحا	حيث التمكن والمجال الأوسع
اياك تعبئة الجيوش مضيقا	والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها ولكن فى قلبها	واجعل أمامك منهم من يشجع
وأحذر كمين الروم عند لقائها	وامض كمينك خلفها اذ تدفع
لا تبقين النهر خلفك عندما	تلقى العدو فشره متوقع
وأصدمه أول وهلة لا ترتدع	بدءا تقدم فلنكوص يضعضع =

١ ــ ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أى خطر خارجى •

٢ ــ ضرورة تعبة الجيوش وتنظيمها قبل المعــركة بوقت كاف لكى تدخل هذه الجيوش الى المعركة وهى على أهبــة الاســتعداد ، وحتى لا يأخذها العدو على غرة •

٣ ــ ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية فى جناحى الجيش وفى المقدمة ، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من القلب مع جنده •

٤ ــ ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو •

٥ ــ عدم القتال وظهورهم الى الماء ، لأن فى ذلك هلكة لجيوشهم •

٦ ــ ضرورة احداث عنصر المفاجأة فى بداية المعركة،عن طريق الصدام مع العدو ، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر •

كان الجيش يســير الى المعــركة تصحبه دواب محملة بالأقوات والخيام ، وتكون فى المؤخرة ووراءها قطعان الماشية يقودها الرعاة[١٦] •

كانت أحيانا تحدث قبل المعــركة مبارزات فردية بين بعض أبطــال الجيش وهى عادة قديمة عند العرب الغرض منها تقوية روح الجنــود المعنوية ؛ لأن منظر الماء يذ يرحماستهم ، ولعل هذا كان واضحا فى معركة اقليش فقد بدأ القتال عقب مبارزة عنيفة بين أحد أبطال المسلمين وأحد

= نشر هذه القصيدة كاملة صاحب الحلل الموشية ص ٩٢ ــ ٩٦ ، وانظر أيضا أحمد مختار العبادى ، دراسات حول كتــــاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ •

(١٦) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٨٠

أبطال النصرانية ، انتصر فيها المسلم على النصرانى ، فكان ذلك ايذانا بنصر المرابطين فى هذه الموقعة[١٧] .

كان المرابطون على الرغم من بسالتهم فى المعارك الحربية قليلى الخبرة بفن الحصار ويرجع اشباخ ذلك « الى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز الى الفرسان ، وهم أقل براعة فى فنون الحصار »[١٨] ، الا أن فشل يوسف ابن تاشفين فى حصار حصن لييط كان حافزا للمرابطين على اتقان فن الحصار ، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنترين الحصينة ، وتمكنهم من التغلب عليها[١٩] ، كما ظهرت براعتهم فى هذا الفن أثناء الحصار الذى فرضته الجيوش الاسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من الفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للاندلس التى كان يهدف من ورائها تلبية دعوة النصارى المعاهدين فى مدينة غرناطة الى نصرتهم ، ويصف ابن الخطيب حصار المرابطين لغرناطة بقوله : « وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العدوة والاندلس بغرناطة ، حتى صارت كالدائرة وهى فى وسطها كالنقطة »[٢٠] . وكما نبغ المرابطون فى الحصار ، فقد تفوقوا أيضا فى فن التخلص من الحصار ، نستدل على ذلك من نجاحهم فى التخلص من الحصار الذى أحكمه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤هـ ودام ما يقرب من أربعين يوما ، ثم تمكن المرابطون من التخلص منه وأوقعوا الهزيمة بالموحدين عند البحيرة[٢١] .

---

(١٧) أحمد مختار العبادى ، صور لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والاندلس ، مجلة البينة ، السنة الاولى ، ع ٩ ، يناير ١٩٦٣م ، ص٨٨، ٩٠ .
(١٨) اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٤٨٠ .
(١٩) المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٦ .
(٢٠) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ .
(٢١) راجع الفصل الخاص بالصراع بين المرابطين والموحدين .

أما عن أسلحة الجيش المرابطى ، فلم تكن تخرج عن الاسلحة التى كانت شائعة فى ذلك العصر مثل النشاب والسهام والرماح والسيوف والدروع والبيضات والرعادات والمزاريق[٢٢] ودرق اللمط[٢٣] والأطاس[٢٤] .

... عن رواتب الجيش ، فقد كان الجيش المرابطى شأنه شأن أى جيش آخر ، يتكون من قسمين ؛ القسم الأول ويشمل الجند غير النظاميين ، وهؤلاء لم تكن لهم رواتب ثابتة تصرف من ديوان الجيش ، بل اتبعوا ما يعرف باسم الاقطاع العسكرى حيث كان لكل جند أرضه الزراعية ، التى يتولى زراعتها ، ويقوم باستغلالها ، ويشترى من ريعها كل احتياجاته من السلاح ، وكان يستدعى وقت الحرب للمشاركة فى القتال ثم يعود مرة أخرى الى أرضه ؛ ويعبر الطرطوشى عن ذلك بقوله : « وسمعت بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو فى ضعف وانتقاض ، لما كانت الارض مقطعة فى أيدى الاجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم ، كما يربى التاجر تجارته ، وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى أن كان الامر فى آخر أيام ابن أبى عامر فرد عطايا الجند مشاهرة ، بقبض الاموال على القطع وقدم على الارض جباه يجبونها ، فاكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد وقوى العدو على

---

(٢٢) المزاريق رماح طويلة يحملها أصحاب الصفوف الامامية عند القتال .

(٢٣) درق اللمط نسبة الى حيوان يسمى باللمط يعمل من جلده الدرق .

(٢٤) الاطاس خنجر معقوف يستخدم ضد الاصطدام المباشر ، كما حدث فى معركة الزلاقة ، حيث هجم أحد غلمان يوسف بن تاشفين على الفونسو السادس وطعنه بهذا الاطاس طعنة غير قاتلة أصابته فى فخذه ، وكان الفونسو يظن أنه منجل مما يدل على ن القشتاليين لم يكن يعرفون هذا السلاح .

بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور الى أن دخلها المتلثمون ، فردوا الاقطاعات كما كانت فى الزمان القديم »(٣٥) • وهذا يؤكد على أن الدولة المرابطية اتبعت نظام الاقطاع العسكرى • أما بالنسبة للجند النظاميين ، وكانوا غالبا من النصارى الذين ازداد عددهم فى جيش على بن يوسف حتى أصبحوا يشكلون قسما رئيسيا منه ، فكان لابد من وجود ديوان للجند ، يتولى تسجيل أسمائهم ومقادير نفقاتهم وحقوقهم وصرف مرتباتهم ؛ فكانوا أشبه بالمرتزقة فى عصرنا الحالى •

كان يتقدم الجيش عادة ، عيونه وجواسيسه لمعرفة أخبار العدو وعدد جنوده وشجعانه ، كذلك كان يتقدمه أيضا جماعة من الادلاء لارشاده الى المسالك والطرقات الصحيحة بين الجبال الوعرة ، ولهذا كان يختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بأمانتهم واخلاصهم • ومن الطريف أن كلمة « دليل » قد انتقلت الى اللغة الاسبانية بلفظها ومعناها ؛ فصار الاسبان يطلقون على أدلائهم اسم Adalides

(ب) الأسطول

يرجع الفضل فى انشاء البحرية المرابطية الى يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين ، وعلى الرغم من بداوة المرابطين وقلة دربتهم وانعدام خبراتهم البحرية بحكم انبثاق دولتهم داخل الصحراء ؛ فقد أدركوا لأول وهلة أهمية القوة البحرية وذلك منذ شرعوا فى فتوحاتهم فى المغرب الاقصى ، واستطاعوا فى أمد قصير فرض سيادتهم

---

(٣٥) الطرطوش ، سراج الملوك ، ص ١٢٣ •

على المغرب الاقصى بأكمله وأن يتقدموا الى السواحل الشمالية وبسطوا سلطانهم عليها باستثناء بعض الثغور الشمالية المطلة على البحر مثل سبتة وطنجة وكانتا خاضعتين لامارة بحرية قوية ، هى امارة سقوت البرغواطى ، وكان سقوت هذا من موالى بنى حمود وكانوا قد أسندوا اليه ولاية سبتة وطنجة بعد ما أثبت اخلاصه وولائه لهم ، ولكنه لم يلبث أن خلع طاعتهم ، وأعلن استقلاله عنهم ، واطاعته قبائل غمارة ، فأسس امارة قوية استمرت حتى قيام دولة المرابطين(٢٦) .

وكان من الطبيعى أن يحدث الصدام بين المرابطين والبرغواطيين لأن البرغواطيين كانوا فى الواقع بمثابة شوكة فى ظهر الجيش المرابطى ، فعلى الرغم من سيطرة المرابطين على منطقة فاس ، الا أن هذه الامارة البرغواطية بقيت تسيطر على اقليم الساحل وتتحكم فى المضايق وبالتالى فى التجارة الاندلسية المغربية ، فضلا عن اشتغالها باعمال القرصنة فى البحر(٢٧) ، وكان لزاما على المرابطين الذين يسيطرون على المغرب الاقصى ويستهدفون جهاد الخارجين عن الدين من قبائل برغواطة وغمارة الزناتية أن يبسطوا سلطانهم على الساحل الشمالى بمرافقه الهامة ومجازية طنجة وسبتة ، ولم يكن فى الامكان تحقيق ذلك الا باصطناع سياسة بحرية عاجلا كان ذلك أم آجلا ، كل هذه الاسباب مجتمعة أملت على المرابطين أن يخفوا للقضاء على بقايا الزناتيين ثم يتجهوا بعد ذلك لفتح سبتة وطنجة .

---

(٢٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، أحمد مختار العبادى ، دراسات ، ص ٣١٨ .

Bermejo (Joaquin Vallve) : Suqut Al Bargawati rey de Ceuta, Al Andalus, Vol, XXVIII, Madrid, 1963, Fasc,1, pp. 195 - 198.

(٢٧) أحمد مختار العبادى ، الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

أعـد يوسـف بن تاشفين جيشا قوامه اثنى عشر ألف فارس من المرابطين ، وعشرين ألفا من سار قبائل المغرب ، قدم عليه قائده صـالح بن عمران ، فلما اقترب المرابطون من أحواز طنجة ، خرج اليهم سقوت البرغواطى ، وكان شيخا كبيرا قد تجاوز ستة وثمانين عاما وأقسم سقوت على لقاء المرابطين وقال : « والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حى أبدا » ، فلتقى الجمعان بأحواز وادى منى من أحواز طنجة ، فاشتد القتال بينهما ، فقتل سقوت وهزم جيشه ، فسار المرابطون الى طنجة ودخلوها ،وكتب القائد صالح بن عمران الى يوسف بن تاشفين يخبره بفتح طنجة[٢٨] . أما سبتة فقد ظل يسيطر عليها الحاجب ضياء الدولة المعز بن سقوت ، ونظرا لأهمية موقع سبتة الاستراتيجى وما لديها من قوة بحرية ضارية ، فقد اضطر يوسف بن تاشفين الى تجهيز أسـطول بحرى يمكنه من الاستيلاء عليها ، غير أن هذا الاسطول لم يلبث أن تعرض للهزيمة وتمكن ضياء الدولة أن يستولى على قطعة منه وعندئذ التمس يوسف بن تاشفين العون من المعتمد بن عباد لاستنزال سبتة تمهيدا للعبور الى الاندلس والمشاركة فى مدافعه ووى النصرانية والجهاد[٢٩] . وكان المعتمد قد أنشأ سفينة ضخمة يصفها صاحب مفاخر البربر بقوله : « وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصـانع الملوك القاهرين ، بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر كأنها بنـاها على الماء صرحا ممردا ، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا »[٣٠] ، فلمـا تسامع يوسف بن تشفين بتلك السفينة الضخمة ، خاطب المعتمدين عباد فى ارسالها اليه لمساعدة المرابطين فى الاستيلاء على سبتة ، فبادر المعتمـد بارسالها اليه ، فتقدمت نحو سبتة : « فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة الى سـوء قرارها ، ليلة

---

(٢٨) ابن بى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، وانظر ايضا مجهـول ، مفاخر البربر ، ص ٥٥ .

(٢٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣٠) مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٥٦ .

الجمعة من صفر المؤرخ سنة ٤٧٦هـ ، فلجأ المعز بن سقوت الى البحـر ، فهم بركوبه فأعوزه الفرار ، ودفع صدره المقدار • وكر راجعا فدخل دارا تعرف بدار شنزير ، وبدرت جماعة من المرابطين ؛ فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابة ، وفر عنه أصحابه ، ولما أحس بالشر ، دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغنى أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهرا كبيرا ، ونشبا من نشب الملك خطيرا ، ووجد فى جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الادريسى ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضح الفجر ، فلقيه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منـه المال فقال له : « ألخازن أبيك كنا نجمع المال ؟ فجلله الحسام ، وحـكم فيه الجمام ، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه »[٣١] •

كان من الطبيعى أن يهتم يوسف بن تاشفين بأمر الاسطول فبدأ يهتم باقامة قوة بحرية كبيرة لاسيما أنه كان مقبل على فتح الاندلس وكان فى أشد الحاجة لهذه القوة البحرية لنقل جيوشه الى الاندلس وتوفير الحماية لها[٣٢] ، فاستعان يوسف بخبرة أهل الاندلس ؛ كما استعان بالمواد الخام التى تتوفر بكثرة فى الاندلس والتى تصلح لصناعة السفن كمعدن الحديد والاخشاب ، كما استعان أيضـا بدور صناعة السفن المنتشرة على طول السواحل الاندلسية وخاصة دور الصناعة فى طرطوشة ودانية وقصر أبى دانس وشلب التى كانت محـاطة بغـابات تصلح أخشـابها لصناعة السفن[٣٣] •

---

(٣١) مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، وانظر أيضا أحمد مختـار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٣١٩ •
(٣٢) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٢ •
(٣٣) العبادى ، المرجع السابق ، هامش (١) ، ص ٣٢١ •

ومهما يكن من شيء ، فان البذور البحرية الأولى التى غرسها يوسف بن تاشفين لم تلبث أن نبتت وأينعت واشتد عودها وأثمرت فى عهد ولده وخليفته على بن يوسف ، وبدأ أسطول المرابطين بفضل قادته الكبار وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون احراز انتصـــارات تجاوزت كل تقـــدير فى الحسبان •

اســـتيلاء المرابطين على جزر البليـــار

كانت جزر البليار خاضعة لمجاهد العامرى صاحب دانية ، وكان قد استقل بملكها سنة ٤٠٥هـ (١٠١٤م) ، وولى عليها ابن أخيه ، ثم ولى عليها مولاه الاغلب سنة ٤٢٨هـ (١٠٣٧م) ولما قتل مجاهد فى سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) خلفه ابنه على « الذى تلقب باقبال الدولة ، وظل الاغلب واليا على جزيرة ميورقة • وكان الاغلب هذا كثير الغزو فى البحر ، فاستأذن على بن مجاهد فى الغزو ، واستخلف على ميورقة صهره ســـليمان بن مشكيان نائبا عنه ، وظل سليمان خمس سنوات واليا على ميورقة ثم لم يلبث أن توفى ، فولى على بن مجاهد مكانه مبشرا بن سليمان الذى تسمى بناصر الدولة ، فأقام بها خمس سنوات تغلب خلالها المقتـــدر بن هود صاحب سرقسطة على دانية سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) ، وألقى القبض على على بن مجاهد ونقله الى سرقسطة حيث أقام سجينا الى أن توفى فى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١) ، فلما علم مبشر بن سليمان بوفاة على بن مجاهد ، أعلن استقلاله بميورقة[٣٤] •فلما جاز يوسف بن تاشفين الى الاندلس وأسقط

---

(٣٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، القلقشنـــــدى صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ • راجع فى تاريخ البليار •
Alvaro Campaner Y Fuertes, Bosquejo Historico de ia dominacion islamita en los Baleares, Palma de Mallorco, 1888; Alfred Bel : les Banou Ghanya, Paris, 1903.

ملوك الطوائف الذين أثبتوا ضعفهم وعجزهم وتخاذلهم ، لم يتعرض يوسف لمبشر بن سليمان ناصر الدولة ، ولعل يوسف اتبع فى علاقاته بالجزائر الشرقية نفس السياسة التى انتهجها مع بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ؛ اذ رأى أن كل من المقتدر بن هود أمير سرقسطة ومبشر ابن سليمان صاحب البليار تقوم دولتاهما حائلا بين امارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين ، ثم أنهما لم يحالفا النصارى المتاخمين لهما ضد جيوش المسلمين ، ولم يقفا من الدولة الاسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفه غيرهم من ملوك الطوائف ، بل ان مبشرا بن سليمان كان أكثر غيرة على مصالح المسلمين من بنى هود ، وأقدر على حماية ملكه من غارات النصارى ، فضلا عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية ، وهكذا ظل مبشر يحكم الجزائر الشرقية فى عهد يوسف بن تاشفين وفى السنوات الأولى من حكم على بن يوسف الى عام ٥٠٨هـ (١١١٤م)[٣٥] ، ففى هذا العام قام حلف مشترك من أساطيل جمهوريتى بيشة وجنوة ، وأمير برشلونة رامون بيرنجير الثالث Ramon Berenger III وأميرى أربونة ومونبيليه بفرنسا[٣٦] ، وقد خرج أسطول الدول المتحالفة فى نحو ثلاثمائة سفينة ، ازداد عددها بعد ذلك حتى غدت خمسمائة سفينة واتجهوا أولا صوب جزيرة يابسة ؛ فحاصروها حصارا شديدا وتمكنوا من الاستيلاء عليها على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبداها أهل الجزيرة[٣٧] ، ثم توجهوا الى جزيرة ميورقة ونزلوا فيها وضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التى تعرف الآن باسم بلما دى ميورقة Palma de Mallorco وقد أبلى مبشر بن سليمان بلاء حسنا فى الدفاع عن

---

(٣٥) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣٦) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٢ ؛ كاليليا سارنللى ، مجاهد العامرى ، قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط ، ص ١٩٠ ، عنان دول الطوائف ، ص ٢١١ ؛ العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣٧) ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

الجزيرة ولما أحس بعدم قدرته على مواصلة المقاومة لفترة طويلة ، أرسل الى أمير المسلمين على بن يوسف يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله بن ميمون ، وكان اذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه ، فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمرا ليلا من دار الصناعة عليه ، وقد حاولت بعض السفن المسيحية تعقبه، الا أن محاولتهم باءت بالفشل فوصل ابن ميمون الى المغرب ، والتقى بأمير اسلمين وأعطاه كتـاب مبشر بن سليمان اليه ، فأمر فى الحال باعداد ثلاثمائة سفينة لانقاذ ميورقة[٣٨] •

وقد حدث أثناء الحصار المسيحى لجزيرة ميورقة أن توفى مبشر فقام بالأمر بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون ، الذى واصل الدفاع عن الجزيرة ، الا أنه لم يسـتطع الصمود طويلا ، وحاول أن يفـر من الجزيرة فى مركب ليطلب النجدة أمام عنف الحصـار ولكنه وقع فى أسر النصارى ، ولم تلبث الجزيرة أن سقطت على أثر ذلك فى أيدى النصارى فى أواخر عام ٥٠٨ هـ (١١١٥م) بعد حصار دام عشرة شهور ، فقتلوا من وجدوه فى المدينة من المسلمين وعاثوا فيها تخريبا ونهبا[٣٩] •

كان لسقوط ميورقة فى أيدى النصارى ، أسوأ الأثر فى نفوس اسلمين، فتطلعت أفئدتهم الى أمير المسلمين لانقـاذها ، فأسرع على بن يوسف بارسال أسطوله وجعل على قيادته قائده ابن تافرطاس (أو تافر طاست) ،

---

(٣٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، مـكى ، وثائق تاريخيـة جـديدة ، ص ١٥٩ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٢١٢ ، العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٤ •

(٣٩) ابن خلدون ، نفس المصدر والصفحة ، ابن الكردبوس ا نفس المصدر ص ١٢٣ ، مكى ، نفس المرجع والصفحة ، عنان ، نفس المـرجع والصفحة ، العبادى ، نفس المرجع والصفحة •

فلما علم النصارى بخروج هذا الاسطول واقترابه من ميورقة ، قرروا الرحيل وترك الجزيرة ، بعد ما حملوا معهم السبى والغنام ، وأشعلوا النيران فى الجزيرة ، فلما وصل الاسطول الى الجزيرة فى عام ٥٠٩هـ وجدها خالية[٤٠] ، وفى الحال شرع ابن تافرطاس فى تعميرها ، وأعاد اليها الفارين من سكانها ، وكانت قد لجأت منهم الى الجبال جموع غفيرة[٤١] ، ومن ذلك التاريخ تدخل الجزائر الشرقية فى حظيرة الامبراطورية المرابطية الكبرى •

لم يقتصر نشاط الاسطول المرابطى فى عصر على بن يوسف على استنقاذ الجزائر الشرقية من أيدى النصارى ، بل تصدى لاطماع النورمنديين فى ممتلكات الدولة الزيرية بافريقية ، وقد تعرضت بالتفصيل لنشاط البحرية المرابطية ضد النورمنديين فى الفصل الخاص بالعلاقات بين المرابطين والزيريين ، كذلك نشط الاسطول المرابطى نشاطا كبيرا على سواحل أوربا الجنوبية فاغار على سواحل جليقية وقطلونية وايطاليا ، والامبراطورية البيزنطية[٤٢] •

قيادة الأسطول

من أشهر قادة الاسطول المرابطى أبو عبد الله بن ميمون ، وقد تولت

---

(٤٠) عن استيلاء المرابطين على جزيرة ميورقة انظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٨٨ ، مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٠ ، كليليا سارنللى ، مجاهد العامرى ، ص ١٩١ ، العبادى ، دراسات ص ٣٢٥ •

(٤١) ابن الكردبوس ، الاكتفا ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ •

(٤٢) Dozy, Histoire, vol., III, p. 164.

أسرة بنى ميمون قيادة الاساطيل المرابطيـة ، ثم انتقلوا الى قيـادة الاساطيل الموحدية عقب سقوط دولة المرابطين ، ومما يؤكد على تلك المكانة الكبيرة التى كانت تتمتع بهـا هذه الاسرة ، أنه عنـدما اضطربت الامور السياسية فى أواخر عهد المرابطين رأى أهل المرية تقديم القائد أبا عبد الله بن ميمون واليا عليهم ، غير أنه اعتذر بقوله : « انما أنا رجل منـكم ، ووظيفتى البحر وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى »(٤٣) • وقد أشـار ابن خلدون الى أهمية الدور الذى لعبته تلك الاسرة أثناء قيادتهم للاسـطول المرابطى فى الدفاع عن السواحل المغربية بقوله : « وكان الجانب الغـربى من هذا البحر لهذا العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة ؛ فكان قواد الاسطول به لعهد لمتونة بنى ميمون رؤساء جزيرة قادس ، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم ، وانتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا(٤٤) • ومما يدل على أهمية الدور الذى لعبه على بن عيسى بن ميمون فى قيادة الاساطيل المرابطية أن مدونة الفونسو السابع اهتمت به وسجلت نشاطه •

قواعـد أسـطول المرابطين

تعتبر المرية من أكبر قواعد الاسطول المرابطى فى الاندلس وكان بالمرية قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبى عبد الله محمد بن ميمون ، وكان هذا الاسطول على أهبة الاسـتعداد لتلبيـة أوامر أمير

---

(٤٣) المراكشى ، المعجب ، ص ٢١٠ ، وانظر ايضا العبـادى ، دراسات ، ص ٣٢١ ، ص ٣٢٢ •

(٤٤) حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٥ •

المسلمين ، فقد طلب تاشفين بن على بن يوسف عندما حاصره الموحدون بوهران من أبى عبد الله بن ميمون قائد أسطول المرية أن يجهز له عشر أجفان غزوية لتكون تحت تصرفه بوهران على أمل أن يركب منها البحر الى الاندلس اذا ما غلبه الموحدون »(٤٥) . كما كانت المرية تضم دارا لصناعة السفن(٤٦) ، وهناك أيضا مدينة دانية التى كانت من كبرى قواعد الاسطول المرابطى فى الاندلس ويعتقد الدكتور محمود على مكى أن دانية كانت تعتبر مقر قيادة الاسطول المرابطى فى الاندلس(٤٧) . ومن المرجح أيضا أن قواعد الاسطول المرابطى كانت تنتشر على طول سواحل المغرب والاندلس سواء فى طنجة ، وسبتة وبجاية وطريف واشبيلية والجزيرة الخضراء ، وجزر البليار . ومن الطبيعى أن هذه القواعد كانت تضم الكثير من البحريين للاشراف على اصلاح السفن وصيانتها ، وتزويدها بما تحتاج اليه من المؤن والعتاد .

أما عن حجم الاسطول المرابطى وعدد سفنه ، فليست لدينا أى تفاصيل كافية أو شافية ، سوى ما ذكره ابن خلدون بأن الاساطيل المرابطية بلغت مائة أسطول(٤٨) ، وهو بالتأكيد قول مبالغ فيه ، وأننى هنا أتفق مع الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى فى أن المقصود من كلام ابن خلدون هو عدد مجموعات السفن الحربية التى كانت موزعة على جميع قواعد المغرب والاندلس أو عدد وحدات الاسطول المرابطى الموزع على سواحل الاندلس والمغرب(٤٩) .

---

(٤٥) سالم ، المرية ، ص ٨٩ .

(٤٦) لطفى عبد البديع ، نص اندلسى جديد، قطعة من كتاب فرحة الانفس لابن غالب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الاول ، ج ٢ ، نوفمبر ، ١٩٥٥ م ، ص ٢٨٣ .

(٤٧) مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٦٣ .

(٤٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٧٨ .

(٤٩) العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٣ .

رابعـا : النظـام المالى فى عصر عـلى بن يوسف

(أ) السياسة الضريبية للدولة .

(ب) العمـــلات .

(أ) السياسة الضريبية للدولة :

اتبعت دولة المرابطين فى البداية — نظرا لنشأتها الدينية وتأثرها بتعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين — اتبعت حكم الشريعة الاسلامية فى جباية الضرائب ، فكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يلتزم بتحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض مثل الزكاة والاعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة وفى ذلك يقول صاحب روض القرطاس : « ولم يجد فى بلد من بلاده — أى يوسف بن تاشفين — ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا فى حاضرة ولا فى بادية الا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والعشر وجزيات أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين »(١) .

ولكن عندما اتسعت رقعة الدولة ، وتضاعفت جيوشها ومسئولياتها ولاسيما بعد افتتاح الاندلس واتساع عمليات الجهاد فى شبه الجزيرة لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة تلك المسئوليات الجديدة ، فاضطر يوسف بن تاشفين الى فرض ضرائب جديدة على أهل المغرب والاندلس تعرف بالمعونة المساهمة فى الجهاد ولعل دليلنا على ذلك ما رواه المقرى من أن يوسف بن تاشفين قد كتب الى أهل مدينة المرية يطالبهم بارسال هذه المعونة ، فرد عليه قاضى المدينة أبو عبد الله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمده بالمال على اعتبار أن هذه الضرائب غير شرعية أو قانونية ، وطلب القاضى من أمير المسلمين بأن يدخل المسجد الجامع بمدينة مراكش ويقسم أمام الملأ بأنه ليس عنده درهم ولا فى بيت مال المسلمين أسوة بما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام والفاروق عمر

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ ، وانظر ايضا ابن الخطيب الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٨١ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٣٠ .

ابن الخطاب ، ثم وعده القاضى فى النهاية بالنظـر فى معـاونته اذا ثبت ذلك(٢) • فلما تولى على بن يوسف لجأ الى فرض القبالات على مختلف السلع والصناعات ، وفى هذا الصدد يقول الادريسى « فكانت أكثر السلع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والمغازل ، فكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره »(٣) ؛ كما لجأ على بن يوسف الى فرض ضريبة جديدة على مدن الاندلس الهـامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب كان يخصص دخلها لاقامة أسـوار جديدة ، وترميم الاسوار القديمة وقد فرضت هذه الضريبـة فى أعقـاب غزوة الفونسو المحارب للاندلس سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م)(٤) ، وقد عهد على بن يوسف الى النصارى المقيمين سواء فى المغرب أو فى الاندلس بأعمـال الجباية(٥) •

أما عن الاملاك السلطانية — وهى الاملاك الخاصة بأمير المسلمين — فكان الامير يعهـد بتحصيلها الى شخص يسمى بالمستخلص ومن هؤلاء الذين تولوا هذه المسئولية مؤمل مولى باديس بن حبوس جابى مستخلص أمير المسـلمين يوسـف بن تاشفين ، وعبـد الرحمن بن محمـد بن عبد الله بن مالك المعافرى جابى مستخلص أمير المسلمين على بن يوسف

---

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ ، وانظر أيضا سـالم ، تاريخ مدينة المرية ، ص ٩٠ •

Dozy, Histoire., vol, III, pp. 161 - 162.

(٣) الادريسى ، المغـرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ٢٠٠ ، وانظر ايضا عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٢١ •

(٤) عن ضريبة التعتيب او التعطيب انظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، سالم ، المرية ، ص ٩٠ ، ٩١ •

(٥) عبد الله بن بلـكين ، التبيـان ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ •

على مدينتي غرناطة واشبيلية[٦] • وكان أمراء المرابطون يراقبون هؤلاء المستخلصين مراقبة دقيقة ويشددون النكير عليهم ويحاسبونهم حسابا عسيرا ، ويعاقبون المقصر عقابا شديدا ، فكانوا يحاسبونهم اذا ما اعتزلوا الخدمة ، ويعرضونهم لمصادرة الاموال والسجن اذا رأوا منهم تفريطا أو تقصيرا ، وكانوا يحاسبون ورثة المستخلص اذا مات ويثقلون عليهم ويصادرون تركة المتوفى اذا لزم الامر ، ولعل الخوف من هذا الحساب العسير هو الذى دفع مؤمل مستخلص أمير المسلمين عندما حضرته الوفاة ، أن أحضر ما كان عنده من مال المستخلص وأشهد الحاضرين على دفعه الى من استوثقه على حمله ، ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، وأرسل رجلا من رجاله الى أمير المسلمين يحمل كل ما يملكه مؤمل من مال خاص به ليخبر أمير المسلمين أن ذلك المال هو كل ما اكتسبه نظير خدمته فى دولة الامير ، ويطلب منه أن يقبل هذا المال تبرعا منه لبيت مال المسلمين وذلك خوفا أن يصيب ورثته مكروه اذا ما مات[٧] •

(ب) العملات :

كانت العملة الرئيسية للدولة المرابطية هى الدينار الذهبى الذى كان عماد الاقتصاد فى الدولة ، وقد ظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية[٨] ، وقد قلد الفونسو الثامن فى طيطلة هذه العملة المرابطية حيث ضرب دنانير عرفت

---

(٦) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، نفس الصفحة •

(٧) عبد الله بن بلكين ، المصدر السابق ، ص ٢١٣ ، حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤١١ •

(٨) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة احمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨٦ •

باسم الفونسو المرابط فى عام ١١٧٣م[٩] ، وفى هذا تأكيد على ما كانت تتمتع به العملة المرابطية فى ذلك الوقت من قوة ، كما أنها تدل على مدى قوة الاقتصاد المرابطى ، كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة بالدرهم الفضى ، ولتسهيل المعاملات التجارية ضربوا عملات بجانب الدينار والدرهم من فئة النصف درهم وثمنه $\frac{1}{16}$ منه ، وكانت هذه العملة الاخيرة تسمى خروبة (بالاسبانية Algorroba)[١٠] .

هذا وقد انتشرت دور سك العملة فى مختلف أجزاء الدولة سواء فى المغرب أو فى الاندلس مثل أغمات ؛ تلمسان ، سجلماسة ، فاس ، مراكش، نـول لمطة ، سـبتة ، سـلا ، مكناسـة ، نـول ، شريش ، طنجـة ؛ شاطبة ؛ مارتلة ، اشبيلية ، بلنسية ، الجزيرة الخضراء ، دانية ، غرناطة . قرطبة ، مالقة مرسية ، المرية ، سرقسطة[١١] .

---

(٩) Roland Oliver, the Cambridge History of Africa, Volume, 3, p. 336.
Codera, Decadencia., p. 220.

(١٠) راجع المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٧ .
Codera, Decadencia., p. 220.

(١١) Lavoix, Catalogue de minnaits Musulmanes de la Bibliothe que nationales., pp. 198 - 245; Antonio Preito Y Vives, los reyes de Taifos pp 241 - 243.

الفصل الثانى

بعض مظاهر الحضارة فى عصر على بن يوســف

أولا ــ الحيــاة الاجتماعية :

(أ) المجتمع المغربى الاندلسى .

(ب) العادات .

(جـ) أثر الاندلس فى تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين .

ثانيا ــ الحيــاة الاقتصــادية :

(أ) التجــارة .

(ب) الصــناعة .

(جـ) الزراعــة .

ثالثا ــ أمثلة من الآثار المعمارية فى المغرب والاندلس زمن على بن يوسف:

(أ) الآثار الدينية .

(ب) الآثار المدنية والمنشآت العامة .

(جـ) الآثار الحربيـــة .

رابعا ــ الحيــاة الأدبية والعلمية :

(أ) الحياة الأدبية .

١ ــ الشــعر والنثر .

٢ ــ الموشحات والأزجال .

(ب) الحيـاة العلمية .

١ ـ علوم الفقه والحديث .

٢ ـ علوم اللغة .

٣ ـ التاريخ والجغرافية .

٤ ـ التصـوف .

٥ ـ الطب .

٦ ـ الفلك والتنجيم والفلسفة .

أولا : الحيـــاة الاجتماعيـــة

(أ) المجتمع المغربى الاندلسى •

(ب) العـــادات •

(جـ) أثر الاندلس فى تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين •

(أ) المجتمـع المغـربى الاندلسى

١ ـــ مجتمع الخاصة :

(أ) الأمراء والقواد :

كان المرابطون (أو الملثمون أو اللمتونيون) يمثلون الطبقة الحاكمة صاحبة السيادة على المغرب والاندلس ، ولذا فقد اتخذوا من اللثـام شعارا يميزهم عن غيرهم من قبائل المغرب ، وفى هذا الصدد يقـول ابن عبدون « يجب أن لا يلثم الا صنهاجى أو لمتونى أو لمطى ، فان الحشـم والعبيد من لا يجب أن يلثمون على الناس ويهيبهونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام »[١] • ولعل هذه العبـارة التى أوردها ابن عبدون ـــ المعاصر للدولة المرابطية ـــ تؤكد ما كانت تتمتع به تلك الطبقـة الحاكمة من نفوذ وسيطرة على الناس ، مما جعل بعض العناصر الأخرى كالحشم والعبيد والاتباع يتشبهون بالمرابطين فيلبسون زيهم المميز وهو اللثام ، ويأتون الكثير من ألوان الفجور والتعدى والعيث بالأمن ارتكاب المعاصى تحت ستار هذا اللثام •

من الملاحظ أن المنـاصب الكبرى فى الدولة ، كمنـاصب حـكام الولايات ، وكذلك قادة الفرق العسكرية ، كانت وقفـا على أفراد البيت الحاكم كى يضمن أمير المسلمين ولاء حكام الولايات وقواد الجيش له •

ولقد انتهجت هذه الطبقة الحاكمة تعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين وظل هذا الوضع قائما طوال العصر المرابطى الأول أى ابان الفترة التى سبقت عبور المرابطين الى الاندلس ، الا أنه بضم المرابطين الاندلس الى

---

(١) ابن عبدون ، رسالة فى الحسبة ، ص٢٨ •

دولتهم فى المغرب ، بدأ تطور جديد يطرأ على هذه الطبقة الحاكمة لاسيما بعد أن بهرتهم مظاهر الابهة فى حضارة الاندلس ، فأخذوا بها واستغرقوا فيها ، ولعل هذا قد ظهر بوضوح منذ عصر على بن يوسف ، وقد كان هذا أمرا طبيعيا فعلى أندلسى النشأة ، وقد بلغ شغفه بالاندلس وحضارتها أن بلاطه المغربى كان يضم نخبة ممتازة من أئمة الفقهاء وكبار الشعراء والادباء والعلماء الاندلسيين ، حتى قال عنه صاحب المعجب أن بلاطه أصبح أشبه ببلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد(٢) ، كما كان أمير المسلمين يحرص اذا ما رحل الى الاندلس أن ينزل فى مدينة اشبيلية فى معرش غاية فى الحسن والجمال ، وقد وصفه صاحب القلائد بقوله : « خرجت باشبيلية مشيعا لأحد زعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا الى معرش أمير المسلمين أدام الله تأييده الذى ينزله عند حلوله اشبيلية وهو موضع مستبدع ؛ كأن الحسن فيه مودع ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام وروض كما وشت البرود يدراقم وزهر يحسد المسك رباه ويتمنى الصبح أن يسم به محياه »(٣) ، وهكذا عاش أمير اسلمين عيشة أقرب ما تكون الى ما كان يحياه من قبل ملوك الطوائف . وقد كان من الطبيعى أن يستطيب أمراء الدولة مثل هذه الحياة المترفة بعد أن يتذوقوها وساعد على ذلك أن أمراء المرابطين كانوا يتنقلون فى مناصبهم ما بين المغرب والاندلس، وكان الامير الذى يقضى بنقله من المغرب الى الاندلس يصحب بطانته ووزراءه وكتابه ، فبدأ أمراء الدولة يعيشون فى ولاياتهم عيشة مترفة ، فتأنقوا فى الملبس والمأكل واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنيين والندماء وبدأوا يحيون حياة لا تكاد تختلف عن الحياة

---

(٢) المراكشى ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ١٧١ ، وانظر ايضا حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٢ .

التى كان يحياها أهل الاندلس[٤] وأقرب مثال الى ذلك الامير أبو بكر ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تيفلويت صاحب سرقسطة على عهد على بن يوسف ، الذى اتخذ من العالم الفيلسوف ابن باجة كاتبا له فظل ابن باجة ملازما لابن تيفلويت حتى وفاة الاخير عام ٥١٠هـ وكان هذا الامير يقدر الشعراء والحكماء والادباء ومما يذكر فى هذا المجال ما رواه ابن الخطيب فى ترجمته لابن تيفلويت عندما قال أن ابن تيفلويت « أمر يوما أصحابه ومنهم ابن باجة بالتأهب والاستعداد للمسير ؛ فاستعد بن باجة للسير واتخذ الأقبية والاخبية واستفره الجياد من بغال الحمولة ، فكانت له منها سبعة صفر الالوان ، حمل عليها الثياب والفرش والمال ، فلما نزل الامير ابن تيفلويت ، مرت عليه البغال المذكورة فى أجمل الهيئات ، فقال لجلسائه لمن هذا البغال ، ومن يكن من رجالنا هذا ، فأصابوا العزة ؟ فقالوا هى للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة (يقصد ابن باجة) ، وليعلم مولانا الوزير الحكيم أن فى وسط كل حمل منها ألف دينار ذهبا سوى المتاع والعدة . فاستحسن الامير ذلك ، وقال أهذا حق ؟ قالوا نعم ، فدعا الخازن على المال ، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليكمل له ذلك اثنى عشر ألفا ؛ فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك ، ثم بحث عنه فى الحين وقال له يا حكيم ما هذا الاستعداد ، فقال له يا مولاى ، كل ذلك من هباتكم وأعطياتكم ، ولما علمت أن اظهار ذلك يسركم فسر بذلك » وقد رثاه ابن باجة بعد وفاته فى سنة ٥١٠هـ بقوله :

سلام والمام ووسمى مزنة   على الجدث الثانى الذى لا أزوره

---

(٤) حسن احمد محمود ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

أحق أبو بـكر تقضى لا ترى | ترى جمـاهير الوفود سـتورة
لئن أنست تلك اللحود بلحده | لقد أوحشت أقصاره وقصوره(٥)

(ب) الفقهـاء والقضـاة وعلماء الدين :

تمتع الفقهـاء والقضـاة وعلمـاء الدين بمكانة سامية فى المجتمع الاندلسى المغربى زمن المرابطين ، ولعل ذلك يرجع الى دورهم الكبـير فى قيام الدولة المرابطية أو الى التعاليم الراسخة التى وضعها الفقيـه المالكى عبد الله بن ياسين منشىء الدولة الروحى ومؤسسها ، وهكذا كان من الطبيعى أن يتمتع فقهاء المالكيـة بمنزلة كبـيرة فى بلاط يوسـف بن تاشـفين ، ثم فى بلاط ولده على بن يوسـف ، وأن ترتفع مكانتهم ويصبحون موضع المشـاورة من أولى الامر فى كل شـأن وأمر ، بحيث تحكموا فى ارادة الامير وغدوا يسيطرون عليه ويتحكمون فى تصرفاته ، مع ضيق أفقهم وجمود أفكارهم ، وقد استشرى نفوذ هؤلاء الفقهاء فى عهـد على بن يوسف ، الذى كان على حد قول صـاحب المعجب قد : « اشتد ايثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولى أحدا من قضائه ، كان فيمن يعهـد اليه ألا يقطع أمرا ولا يبت حكومة فى صغيرة من الامور و كبـيرة الا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الاندلس(٦) وهكذا أسرف الفقهاء فى تحكمهم واستبدادهم بالأمير ، فقصـدهم الشـعراء مادحين ، وتكدست لديهم الاموال ، فأقبلوا على الترف وتخلقوا بما تخلق به فى العـادة رجـال

---

(٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
(٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧١ .

الحاشية فى بلاط الملوك من الحقد والتنافس والانصراف الى التمتع بمباهج الحياة ، والاخذ بألوان البذخ والترف ، ومن أمثال هؤلاء الفقهاء القاضى الفقيه أحمد بن حمدين ، والقاضى أبى الحكم بن حسون بمالقة والقاضى ابن جزى بجيان والقاضى أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضى عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ومن أمثلة الاشعار التى قيلت فى مدح بعض الفقهاء البارزين فى المجال السياسى بالاندلس القصيدة التى مدح بها الشاعر أعمى تطيلة للفقيه القاضى أحمد بن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة وفيها يقول :

لأبى القاســم بن حمدين نفس	خلقت من مكــارم الاخــلاق
ويــدان براهما المجـد حتى	ســحتا بالآجــال والأرزاق
يا أبا القاسم دعاء امرىء وافا	ك ســبقا فى أول الســباق
خذ اليك الثناء لا بل أدل الشكر	عــرف المهب حــلو المساق
لك مجد لو كان للنجم شــملا	لم يرعه صرف الردى بفــراق[7]

وعلى الرغم من تلك المكانة العظيمة التى بلغها فقهاء المالكية فى عصر على بن يوسف ، فان هذا العصر شهد أيضا انتقاد الشعراء لهم وهجوهم اياهم ، فهذا أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى أحد شــعراء جيان يقول عنهم :

أهــل الرياء لبستموا ناموســكم	كالذئب أدلج فى الظـلام العاتم
فملكتمــو الدنيــا بمذهب مالك	وقســمتو الأموال بابن القاســم
وركبتمــوا شهب الدواب بأشهب	وبأصبغ صبغت لكم فى العالم[8]

(٧) الاعمى التطيلى ، الديوان ، ص ٨٧ .
(٨) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧١ .

ويبدو أن أبا جعفر أحمد المعروف بابن البنى كان شديد النقد لرجال الدين لركونهم الى جمع المال وتعلقهم بحب الدنيا فى ذلك الزمان ، فقد هجا أحمد بن حمدين قاضى قرطبة على عهد على بن يوسف هجاء مقذعا بقوله :

أدجال هذا أوان الخروج ... ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتفى ... وجدواه أنأى من الكوكب
اذا سئل العرف حك أسننة ... ليثبت دعواه فى تغلب

فيصف ابن البنى هنا ابن حمدين بشدة البخل ، وباستماتته فى وظيفته التى تدر عليه ربحا طائلا ، ويبدو أن ابن حمدين كان يهدد بالاستقالة من منصبه كقاضى للجماعة بقرطبة ، لذلك يقول الشاعر أن من علامات الساعة أن يطلب ابن حمدين الاستقالة فهو يطلب ذلك طلبا كاذبا ، فالصعود الى الكواكب أيسر عليه من أن يصدق فى تقديم الاستقالة ويتنازل عن عمله المربح وهو من الشح بحيث لا يستجيب لسائل أو محروم .

ومادمنا مقرين بأن الأدب يكشف عن أخلاق العصر الذى قيل فيه ، فاننا نستنتج مما سبق أن فقهاء عصر على بن يوسف قد انحرفوا عن جادة الاعتدال ، وأن ذلك بلا شك من المثالب الاجتماعية لعصر على بن يوسف ، فقد كان الفقهاء يتدخلون فى كل أمور الدولة ، وكان عليا يستفتيهم فى كل أموره ، فحين فكر على فى تسوير مراكش استفتى فقهاء الدولة ومنهم ابن رشد الاندلسى الذى أفتى بصحة هذه الفتوى ،

---

(٩) المراكشى ، المصدر السابق ، ١٧٢ .

كما أفتى ابن رشد بابعاد المعاهدين فى الاندلس وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب ، كما أفتى الفقهاء وعلى رأسهم ابن حمدين باحراق كتاب احياء علوم الدين للعالم الفقيه أبى حامد الغزالى سنة ٥٠٣هـ .

٢ ـ مكانة المرأة :

تمتعت المرأة فى عصر المرابطين بمكانة رفيعة فى المجتمع المغربى الاندلسى ؛ فكانت أكثر ظهورا فى مجال الحياة العامة ، وأعظم نفوذا وأشد حرية ، وربما يرجع ذلك الى أن المرابطين قد نشأوا فى الصحراء ، والمرأة الصحراوية كانت دائما الركن الركين فى اقامة بناء الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فهى التى ترعى الابل والغنم ، وهى التى تطهو الطعام وتربى الأولاد وتحيك الثياب ، أما الرجل فأهم أعماله حماية الاسرة والذود عن القبيلة . وقد أشار المؤرخون الى أنه كان لبعض نساء المرابطين رأى مسموع فى سياسة الدولة العليا ، منهن السيدة زينب النفزاوية زوج أمير المسلمين يوسف بن تاشفين التى تمتعت بمكانة مرموقة فى الدولة ، وكانت أشبه بالمستشار السياسى لأمير المسلمين ، فقد استمع يوسف الى نصيحتها التى أشارت بها عليه فى معاملة الامير أبى بكر بن عمر بعد عودته من الصحراء ، فقد قالت له : « يا يوسف ان ابن عمك رجل متورع فى سفك الدماء ، فاذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع ، وأظهر له غلظة ولاطفه مع ذلك بالاموال والخلع والثياب والطعام والترف واستكثر من ذلك فانه ببلاد الصحراء ؛ وكل شىء عندهم من هنا مستطرف »[١٠] ونفذ

---

(١٠) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

يوسف نصيحتها ففاز بملك المغرب الاقصى الذى كان النواة الأولى لتلك الامبراطورية الضخمة التى أسسها المرابطون فى المغرب والاندلس ،
ومما يروى عن زينب زوج يوسف بن تاشفين وعما كانت تتمتع به من قوة وسلطان فى دولة زوجها أن أحد الأدباء الشعراء واسمه زرهون ويعرف بابن خلون قد مدح الحرة حواء زوج الامير سير بن أبى بكر اللمتونى وفضلها على سائر النساء بالجمال والكمال ، فلما علمت زينب بذلك ، أمرت بعزله عن القضاء — وقد كان قاضيا على احدى مدن المغرب أنذاك — فوصل زرهون الى أغمات واستأذن زرهون على زينب ، فدخل البواب، وأعلمها به : فقالت له قل له امضى الى التى مدحتها تردك الى القضاء ، فبقى على بابها أياما حتى نفذت نفقته ، فأتى الى خادمها ، فقال له أن مولاتك قد صرفتنى ونقمت على على مدحى لامرأة سير ولو علمت أن ذلك يغضبها ما قلته ، وقد نفذت نفقتى واردت بيع هذا المهر وعز على أن يصير فى يد من لا يستحقه وأنا أحب أن تعطينى مثقالين أتزود بهما الى أهلى وخذ المهر ، فأنت أحق به ، فسر الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر ودخل على مولاته زينب وهو فرحان فقالت له ما شأنك ، فأخبرها الخبر ، فرقت للقاضى زرهون ، وندمت على ما فعلت به وقالت للخادم اذهب ، فاتنى به الساعة ، فأحضره اليها فقالت تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء ، وخرجت فى وصفك بها عن الحد وزعمت أن ليس فى الارض أجمل منها وما هذه منزلة القضاة ولا يليق بك أن تنزل فى هذه المنزلة ، فقال زرهون ارتجالا :

أنت بالشمس لاحقة وهى بارض لاصقة
فمتى ما مدحتها فهى من سير طالقة

فقالت له يا قاضى طلقهـا منه ، قال نعم ثلثه ثلثه ، فضحكت حتى افتضحت وقالت له والله لا سم لها قفا أبدا ، وكتبت الى يوسف بن تاشفين برد زرهون الى القضاء فرده[11] .

ومن هؤلاء النسوة السيدة قمر زوج أمير المسلمين على بن يوسف التى أشارت على زوجها أن يولى ابنها الامير سير ولاية عهد أبيه وقيل أنه قد تملكها الغيرة على ابنها سير من أخيه الامير تاشفين ، لتلك المكانة الكبيرة التى بلغهـا بسبب تلك الانتصـارات العظيمـة التى أحرزها على قوى النصرانية فى الاندلس ؛ فأوعزت قمر الى زوجها أمير المسلمين بعـزل ابنه تاشفين عن ولاية الاندلس ، فرضخ أمير المسلمين لها ، وبعث فى استدعاء ولده تاشفين من الاندلس حيث أصبح تحت أمره ابنها سير ، الى أن توفى الاخير ، فتدخلت قمر مرة أخرى فى اختيار ولى العهـد ، وعرضت على على بن يوسف أن يولى ابنه اسحاق ولاية عهده ، وكان اسحاق هذا فى منزلة ابنها فقد أشرفت على تربيته بعد وفاة أمه ، وكاد أمير المسلمين ينزل على رغبتها لولا أن المرابطين قد أجمعوا على اختيار تاشفين لولاية العهد[12] .

وقد اشتهرت بعض الاميرات المرابطيات بحب الادب والشعر مثل الاميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين ، وقد وصفها صاحب جذوة الاقتباس بقوله : « وكانت كاملة الحسن راجحة العقل مشهورة بالادب والكرم ، وكانت تسكن فى مدينة فاس ، وقد رآها يوما كاتب لها قد أمرت بمحاسبته

---

(١١) النويرى (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم البكرى التميمى) : نهاية الارب فى فنون الادب ، الجزء الثانى والعشرون مخطوط مصور عن دار الكتب المصرية رقم ٥٩٥ لوحة ١٨٣ ب ، ١٨٤ أ .

١٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

وبرزت لذلك ، فلما ظهرت اليه ظنت أنه بهت بها ، فأومأت اليه وانشدته :

هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا)(١٣)

كما قصد الشعراء الاميرات المرابطيات يستشفعن بهن ، فهذا شاعر الاندلس الكبير ابن خفاجة الذى كتب الى الاميرة الحرة مريم بنت ابراهيم يستشفع بها عند زوجها الامير أبى الطاهر تميم أخى أمير المسلمين على بن يوسف فيقول :

وكفى احتماء مكانة وصيانة أنى علقت بذمة من مريم
ذات الأمانة والديانة والتقى والخلق الأشراف والطريق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنهى والبيت الأرفع والنصاب الأكرم(١٤)

ومن النساء اللائى كانت لهن مكانة مرموقة فى المجتمع المرابطى الحرة حواء زوج الامير سير أبى بكر اللتمونى وفيها يقول الاعمى التطيلى :

حواء يا خير من يسعى على قدم ولست عبدك ان لم أقض ما يجب
اليك أهديت مما حاكه خلدى فخرا يجد وتبلى هذه الحقب
وأفتك سود خطوط كلما احتضرت ألقت مقالدها الأشعار والخطب
قد عم برك أهل الارض قاطبة فكيف أخرج عنه جارك الجنب(١٥)

وقد كانت مكانة المرأة المرابطية من السمو بحيث أن الرجل كان

---

(١٣) ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(١٤) ابن خفاجة ، الديوان ، ص ٩٧ .
(١٥) الاعمى التطيلى ، الديوان ، ص ١٨ .

ينسب الى أمه وليس الى أبيه ، فهناك بعض كبار القادة المرابطين الذين لعبوا دورا عظيما فى أحداث المغرب والاندلس يحملون أسماء أمهاتهم مثل ابن عائشة ، وابن فاطمة ، وابن غانية ، وابن تاعيشت وابن الصحراوية وغيرهم ، بل أن هناك ظاهرة ملفتة للنظر وهى وجود قصائد لرثاء بعض النساء المرابطيات ، فمن يقرأ ديوان الاعمى التطيلى ، يلحظ أن هذا الديوان يحتوى على كثير من قصائد الرثاء الخاصة بالنساء . ومما يلفت النظر أيضا أن النساء المرابطيات كن يخرجن سافرات فى الاسواق والميادين فى حين يتلثم الرجال ، ولعل ما يؤكد ذلك هو حادث الاميرة الصورة أخت أمير المسلمين على بن يوسف مع المهدى بن تومرت الموحدى ، فقد خرجت الصورة فى موكبها ومعها عدد من الجوارى الحسان وهن جميعا سافرات ، ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن وأمرهن بستر وجوهن وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الاميرة عن دابتها ، ولعل سفور النساء المرابطيات من المآخذ التى أخذها المهدى بن تومرت فى حملته على المرابطين ، وجعلعها من عوامل ضعف الدولة وانتشار الفساد فيها .

٣ ـ أوضاع أهل الذمة :

أما عن أهل الذمة فى المغرب والاندلس من النصارى المعاهدين واليهود ، فقد كانوا يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع المغربى الاندلسى ، فالنصارى المعاهدين لقوا معاملة كريمة فى ظل حكومات الطوائف ، بل أن ملوك الطوائف عملوا على حمايتهم وكسب مودتهم واستخدموهم فى أخص مهامهم السياسية والعسكرية ، ولكن وعلى الرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح الذى كان يتبعه نحوهم ملوك الطوائف ، الا أنهم لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، بل

لبثوا دائما ينتهزون الفرصة للايقاع بهم ، ومما لأه الملوك النصـــارى ، ومعونتهم بكل وســيلة على محاربتهم ، وتسهيل مهمتهم فى غزو أراضى المسلمين والتنكيل بهم ، كما كان اليهود يتمتعون كذلك بمكانة كبــيرة فى بعض دويلات الطوائف لاســيما دولة حبوس بن ماكسن بغرناطة ، فقد استوزر حبوس الوزير اليهودى اسماعيل بن نغــرالة ، كما اســتوزر باديس بن حبوس اليهودى يوسف بن نغرالة(١٦) . ولعل هذا يظهر لنا تلك المكانة العظيمة التى تمتع بها أهل الذمة فى ظل حكومات الطوائف ، ومن هنا كان طبيعيا بعد أن قامت دولة المرابطين فى المغرب والاندلس أن تضع حدا لهذا النفوذ الكبير الذى تمتع به أهل الذمة على عهد أسلافهم ملوك الطوائف ، الا أن الدولة لم تخرج فى تعاملها معهم عن أحكام السنة النبوية التى استنها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى تخييرهم بين الاسلام أو دفع الجزية السنوية لبيت مال المسلمين ، وقد ارتضى الكثير من النصارى دفع الجزية للمسلمين مع تمتعهم بالحرية الكاملة فى ممارسة شعارهم الدينية .

وعلى عهد أمير المسلمين على بن يوسف ورغم روح التسامح التى سار عليها هذا الامير ، الا أن نصارى الاندلس المعاهدين ، ظلوا يحملون روح الحقد والكراهية لهؤء السادة الجدد ولعــل موقفهم المخــزى من دعوة الفونسو المحار بملك أرغون ومساعدته فى حملته الكبرى على الاندلس فى عــام ٥١٩هـ لأكبر دليــل على أن نصــارى الاندلس كانوا يدبرون المؤامرات التخلص من السيادة الاسلامية على الاندلس ، ولقد ترتب على هذا العمل المخزى أن قام أمير المسلمين بنقل الكثير من نصارى الاندلس

---

(١٦) عنان ، دول الطوائف ، ص ١٣٣ .

الى المغــرب ، وعلى الرغم من موقفهم هذا الا أن عليــا بن يوسف قد استعان بهم للعمل فى بلاطه ، كما أنشأ منهم فرقة خاصة فى الجيش وعهد اليهم أيضا بتحصيل الضرائب فى المغرب(١٧) •

أما بالنسبة لليهود فقد طبق عليهم ما طبق على النصــارى المعاهدين فى تخييرهم بين الاسلام أو الجزية ، وقد ارتضى الكثــيرين منهم دفع الجزية لبيت مال المسلمين • ويشير أشباخ الى أن يوسف بن تاشفين كان شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الاسلام(١٨) : فقد روى أن أحد فقهاء قرطبة وجد مجلدا من تأليف ابن مسرة القرطبى ، وكان يوجد فى هذا المجلد حديث منسوب الى الرسول عليــه الصــلاة والسلام بأن اليهود ألزمت نفسها اذا مرت خمسة قرون من مبعث رسول الله ولم يظهر مسيحهم المنتظر فأنهم سوف يعتنقون الاسلام ، فرفع هذا الفقيه القرطبى الأمر الى أمير المسلمين يوسف بن تاشــفين ، فاجتــاز فاجتـــاز يوســف عــلى مدينــة اليســانة وهى مدينة اليهود فى الاندلس ؛ ليطالبهم بالوفاء بالوعد الذى وعد به أجدادهم من قبل ، الا أنهم بذلوا الكثير من الاموال لأمير المسلمين حتى لا يكرههم على الوفاء بوعدهم القديم(١٩) • واذا كان هذا ينطبق على عصر يوسف ن تاشفين ، فان هذا لا ينطبق على عصر على بن يوسف الذى كان عصر تسامح مع

---

(١٧) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٤٨٢ •

(١٨) اشباخ ، نفسه ، ص ٤٨٢ •

(١٩) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٥٨ •

وانظر ايضا :

Dozy, Histoire de Musulmane d'Espagne, vol, III, p. 158, 159; J A. Conde, History of the dominion Arabes in Spain, vol, II, Lindin, 1909, p. 326.

أهل الذمة بدليل أن المؤرخ أشباخ لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة ويقول : « ولم يتمتع اليهود بنوع من التسامح الا فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين »[٣٠] .

وكان اليهود - كما هى عادتهم يتجمعون فى أماكن أو مدن خاصة بهم ، فكانوا يتركزون فى الاندلس كما سبق أن أشرنا فى مدينة اليسانة ، أما يهود المغرب فقد كانوا يقيمون فى مدن خاصة بهم مثل مدينة فاس[٢١] ومدينة أغمات وريكة[٢٢] ، وكان أمير المسلمين على بن يوسف لا يسمح لهم بدخول مدينة مراكش الا نهارا لقضاء حاجاتهم ثم ينصرفون عنها عشية ، فاذا عثر على أحدهم أستبيح دمه وماله ، ولذا كان اليهود يرفضون المبيت فى مراكش خوفا على أموالهم وأنفسهم .

٤ - مجتمع العامة :

يتكون مجتمع العامة من التجار والصناع والحرفيين والمزارعين ؛ فقد كان لحالة الاستقرار السياسى والاقتصادى الذى شهدته الدولة المرابطية فى عصر يوسف بن تاشفين والنصف الأول من عصر ولده على بن يوسف أكبر الأثر فى ظهور أهمية التجار ، فقد كان لالغاء الدولة الضرائب الفادحة على التجارة والمتاجر أكبر الأثر فى تشجيع التجار ، اذ أصبح فى مقدور التاجر أن ينمى ثروته طالما يؤدى عليه من ضرائب شرعية للدولة ؛ فازدادت ثروات هؤلاء التجار وشاركوا فى الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها . وكذلك الحال بالنسبة للصناع والحرفيين ، فقد فتحت الدولة أبواب المغرب أمام صناع الاندلس ، فأصبحوا يشكلون جانبا كبيرا فى

---

(٢٠) اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .
(٢١) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص١١٥ .
(٢٢) الادريسى ، المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص٦٩ .

الدولة ، حيث كان الصناع والمهندسين والحرفيين يأتون الى المغرب يعرضون على أمير المسلمين وأمراء وعمال الدولة خبراتهم ومهاراتهم ، وقد بدأ استخدام الصناع المهرة فى عهد يوسف بن تاشفين اذ يشير الادريسى الى احضار يوسف بن تاشفين المهندس الاندلسى عبد الله بن يونس الى مراكش سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) ولم يكن بمراكش الا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين يوسف ، لأن الماء فيها ليس بعيد الغور فاستخدم هذا المهندس الاندلسى السواقى بعد أن قام بحفر آبار مربعة كبيرة من أعلى الى أسفل ، فكثرت البساتين ، وقد أكرمه الامير يوسف طوال مدة اقامته بمراكش(٢٣) ، كما يشير الادريسى الى احضار على بن يوسف لصناع من الاندلس لتشييد قنطرة على نهر تانسيفت الذى تقع عليه مراكش(٢٤) ، كذلك يذكر الاستاذ تراس أن حصن تاسغيموت الذى أقامه الامير على بن يوسف سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م قد تم بناؤه تحت اشراف مهندس أندلسى هاجر الى مراكش اسمه الفلكى ، وان كان البيذق يذكر أن الذى بناه هو ميمون بن ياسين(٢٥) .

وهكذا نرى أن الصناع والحرفيين أصبحوا يشكلون جانبا كبيرا فى المجتمع المغربى الاندلسى وأصبحوا موضع احترام وتقدير أمير المسلمين وأمراء الدولة ، فكان من الطبيعى أن يشاركوا فى الحياة الاجتماعية سواء فى المغرب أو فى الاندلس .

وكما ازدهرت مكانة التجار والصناع والحرفيين ، فقد ازدهرت أيضا مكانة المزارعين وازداد اقبالهم على زراعة أراضيهم بسبب تلك السياسة الضريبية الحكيمة التى سارت عليها الدولة .

---

(٢٣) الادر ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٦٧، ٦٨ .

(٢٤) الادريسى ، نفسه ، ص٦٩ .

(٢٥) سالم ، المغرب ، ص ٧٤٨ .

(ب) العادات

١ ـ الاقبال على الرقص والطرب وسماع الموسيقى فى الاندلس والمغرب:

لم يستطع المرابطون وعلى الرغم من نشأتهم فى الصحراء وتأثرهم بتعاليم الامام الفقيه عبد الله بن ياسين ، مقاومة مباهج الحضارة الاندلسية بكل مظاهرها ومفاتنها ولاسيما فن الغناء والموسيقى والطرب ، واذا كان ذلك قد ظهر واضحا جليا فى عصر على بن يوسف ، الا أن البوادر الأولى قد ظهرت فى عصر يوسف بن تاشفين نفسه ، اذ يؤكد الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمود على أن يوسف كان يسمع الغناء ويطرب له رغم ما ردده دوزى من جهله بلسان العرب ، اذ أهدى يوسف المعتمد بن عباد جارية حسنة الصوت جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها(٢٦) • الا أن عصر على بن يوسف كان عصر انغماس بمباهج الحضارة الاندلسية ، فقد شغف بمجالس الطرب والموسيقى وتجلى ذلك فى مجلس طرب حضره أمير المسلمين على بن يوسف اذ قال الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافرى فى هذا المجلس :

لا تلمنى اذا طربت لشجو ... يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حق علينا ... انما الحق أن تشق القلوب(٢٧)

وقد كانت مجالس الأنس والطرب والموسيقى من الامور المألوفة فى حياة أمراء الاندلس ، فقد كان هؤلاء الامراء يعقدون مجالس الطرب فى قصورهم ومنياتهم ، ويصف ابن خفاجة البلنسى مجلسا من تلك المجالس فى بلنسية فيقول :

---

(٢٦) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص٤٤٢ •

(٢٧) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، سالم ، قرطبة ، ج٢ ، ص١١١ •

فكم يوم لهـو قد أردنا بأقفـه   نجـوم كؤس بين أقمـار ندمان
وللقضيب والاطيار ملهى بجـزعه   فما شئت من رقص على رجع ألحان (٢٨)

وقد سار أمراء المرابطين على درب أمراء الاندلس فى شغفهم بمجالس الطرب والموسيقي ومثالنا على ذلك الامير أبو بكر ابراهيـم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تيفلويت والى سرقسطة فى عصر على بن يوسف ، وكان ابن تيفلويت قد اتخذ من الفيلسوف ابن باجة كاتبا له ، فيروى أن ابن باجة حضر مجلسا من مجالس الطرب لمخدومه ، وألقى موشحته التى أولهـا :

جرر الذيل أيمـا جـر   وصل الشكر منك بالشـكر

فطرب ابن تيفلويت لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصـر   لأمير العـلا أبى بـكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح وأطرباه .. وشـق ثيابه ، وقال « ما أحسن ما بدأت وما ختمت » وحلف بالايمـان المغلظة لا يمشى ابن باجه الى داره الا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه (٢٩) .

---

(٢٧) سالم ، صور من المجتمع الاندلسى فى عصر الخلافة الاموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفـورة فى علب العـاج ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد ١٩ ، ٧٦ - ١٩٧٨ م ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ابن خلدون ، المقـدمة ، ص ٤٣٧ ، المقرى ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، حسن احمد محمـود قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٣ ، سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ج ٢ ، ص١١٢ .

ويرى أستاذى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن من الذين برعوا فى فن الغناء والموسيقى فى عصر على بن يوسف الاديب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى الاشبيلى ، كما أنه هو الذى لحن الاغانى فى عهد الامير الصنهاجى يحيى بن المعز بن باديس (٣٠) .

٢ ـ الاقبال على سماع الشيوخ والفقهاء فى الاربطة والزوايا :

بدأت حركة المرابطين تأخذ شكلها الايجابى حينما عمد عبد الله بن ياسين الى بناء رباط يأوى اليه وصحبه ، يبتعدون عن الناس ، يتقربون الى الله ، يتزهدون ويجاهدون ، فالجهاد فى سبيل الله من أخص صفات المرابطة تحقيقا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٣١) . وقد بدأت حركة المرابطة على سواحل المغرب منذ الفتح الاسلامى لحمايتها من غارات البيزنطيين من ناحية وللتفرغ للعبادة والتزهد من ناحية أخرى . ولكن لم تلبث هذه الاربطة أن تحولت عن غاية الجهاد الى غاية أخرى لا تقل عنه وهى نشر تعاليم الاسلام واللغة ولاسيما فى المناطق الداخلية من المغرب التى كان لا زال تأثير الاسلام ولغته العربية فيها تأثيرا بسيطا ، ومن أجل ذلك انتشرت الاربطة والزوايا فى مختلف أجزاء المغرب ، ومن يتبع خط سير عودة المهدى بن تومرت منذ عودته من المشرق ونزوله فى مدينة بجاية حتى عودته الى موطن أهله وعشيرته فى جبل ايجليز ، ليرى وجود هذه الاربطة والزوايا . وكان ابن تومرت يمكث فى بعضها لتدريس معالم مذهبه الجديد القائم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل أن المهدى لقى خليفته عبد المؤمن بن على سراج الموحدين فى احدى هذه الاربطة وهى رباط ملالة (٣٢) .

---

(٣٠) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ص ١١٢ .
(٣١) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .
(٣٢) انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٨١ .

٣ ـ المشاركة في الجهاد (لغلبة الروح الدينية) في الاندلس :

توسعت دولة المرابطين فى مبدأ الجهاد وأعادت الى الاذهان صورة الدولة الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها القصيرة وسخرت كل مواردها لهذا العمل الفذ ، وجعلت من البلاد معسكرا ضخما تدوى فيه طبول الجهاد • وقد فرض ابن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين ودعاهم اليه وحضهم على التزامه فى قوله « يا معشر المرابطين انكم جمع كثير ، وأنتم وجوه قبائلكم ، ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى الصراط المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده »(٣٣) • وقد سار الامراء المرابطون على سياسة تشجيع الجهاد سواء فى المغرب أو فى الاندلس أدل على ذلك من عبرو يوسف بن تاشفين الى الاندلس استجابة لنداء ملوك وأمراء الاندلس ، ثم جاء من بعده ولده على الذى سار على نهج والده فى الجهاد ، فقد وضع منذ اعتلائه العرش برنامجا للجهاد فى الاندلس أشرف عليه بنفسه وتمثل ذلك فى عبوره أربعة مرات الى الاندلس خلال فترة امارته •

ولم يقتصر أمر الجهاد على مجرد اهتمام الدولة به ، بل شارك فى الجهاد مختلف طوائف الشعب وعلى رأسهم الفقهاء والقضاة ورجال الدين ونالوا شرف الشهادة فى سبيل الله ، وقد أشار ابن القطان الى بعض من استشهد من الفقهاء فى معركة اقليش وعلى رأسهم الامام الجزولى الذى يصفه ابن القطان بأنه « رجل صدق »(٣٤) ، كذلك شارك الفقهاء فى معركة كتندة واستشهد منهم القاضى الفقيه أبو على الصدفى ، والقاضى أبو

---

(٣٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ •
(٣٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، ١٠ •

عبد الله بن الفراء قاضى المرية[٣٥] ، ولم يقتصر الامر على مشاركة الفقهاء فى الجهاد بل شارك فيه العرب الذين استقروا فى الاندلس[٣٦] ، كما شارك فيه الكثير من المتطوعة وقد أشار المؤرخون الى استشهاد ما يقرب من عشرين ألفا فى معركة كتندة[٣٧] •

(جـ) أثر الاندلس فى تخفيف حدة الخشونة عند المرابطين

١ ــ تقبل المرابطين لمظاهر الحضارة الاسلامية ومظاهرة (السكنى ، الملابس ، المأكولات) :

بدأ المرابطون ينغمسون فى التمتع بكل مباهج الحضارة الاندلسية فعاشوا أقرب ما يكونون بملوك الطوائف ، وتجلى ذلك بوضوح فى بناء القصور والمنيات فضلا عن التأنق فى المأكل والملبس • فقد شاع بناء القصور والمنيات سواء فى الاندلس أو فى المغرب فى عصر على بن يوسف ، وليس أدل على ذلك من القصر الذى بناه أمير المسلمين على بن يوسف فى مدينة أشبيلية ، حيث كان ينزل فيه عند زيارته للمدينة ، وقد أبدع الاديب الأندلسى الكبير الفتح بن خاقان فى وصف هذا القصر الرائع الجمال[٣٨] ، كما أقام أمير المسلمين قصرا آخر فى مدينة مرسية وهو قصر منتقوط[٣٩] • وقد حذا الامراء حذو أمير المسلمين فعاشوا فى ولايتهم عيشة مترفة ، كما تأنقوا فى المأكل والملبس وتشييد القصور مثال ذلك

---

(٣٥) عن معكة كتندة انظر : ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج١ ، ص٣٠٨ ، سالم المغرب ، ج٢ ، ص ٧٣٦ •

(٣٦) ابن القطان ، نفسه ، ص ١٠ •

(٣٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ •

(٣٨) ابن خاقان ، نظم الجمان ، ص ١٧١ ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٢ •

(٣٣) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى اسبانيا ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ •

القصر الذى أقامه فى قرطبة واليها الامير المرابطى الزبير بن عمر الملثم ، والذى كان يعرف بمنية الزبير ، وقد غرس الزبير فى بستانها أشجارا من اللوز ، وفى هذا البستان يقول الشاعر الاندلسى أبو بكر بن بقى :

سقى الله بستان الزبير ودام فى — ذراه مسيل النهر ما غنت الورق
فكائن لنا من نعمة فى جنابه — كبزته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهى على كل موضع — أما ظله ضاف أماما دافق
أهيم به فى حالة القرب والنوى — وحق له منى التذكر والعشق(٤٠)

كذلك أشار الادريسى الى كثرة قصور الامراء والقواد فى مراكش حاضرة الدولة بقوله : « وكان بها — أى مراكش — اعداد قصور لكثير من الامراء والقواد وخدم الدولة »(٤١) .

٢ــ الفنون الزخرفية الاندلسية المغربية وتطورها زمن على بن يوسف :

عنى المرابطين فى جميع منشآتهم الدينية والمدنية بالعناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال والزخارف الطبيعية ، غير أن فتح المرابطين للاندلس قد أتاح الفرصة للمؤثرات الاندلسية ولا سيما ، الفنون الزخرفية لتدخل فى تشكيل عناصر العمارة المرابطية ، فقد تأثر المرابطون بالفنون الزخرفية الاندلسية بقصر الجعفرية بسرقسطة وبغيرها من الفنون الموجودة فى مختلف أنحاء الاندلس ، فقد شغف على بن يوسف بالزخارف النباتية وأدخلها فى زخرفة المسجد الجامع بتلمسان ، والزيادات

(٤٠) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٨ ، سالم ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٤١) الادريسى ، صفة المغرب ، ص ٦٨ .

المرابطية الأخرى ؛ والمتطلع الى هذه الزخارف يجد أنهـا صورة طبق الأصل من الزخارف النباتية فى قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمـالقة ، وبعض الآثار الزخرفيـة بقصبة المرية وجامعهـا من عصر الطوائف(٤٢) . والملاحظ أن هذه الزخارف النبـاتية التى كانت تزين منشآت المرابطين قد اختفت تماما فى عصر الموحدين ولاسيما زخارف المسجد الجامع القرويين بفاس وفى هذا الصدد يقول ابن أبى زرع : « فلما دخل الموحدون المدينة — أى مدينة فاس — وذلك فى يوم الخميس الخامس عشر لربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ، خاف فقهاء المدينة وأشـياخها أن يأخذ عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرف الذى فوق المحراب لأنهم قاموا بالتقشف والتقلل ، فقيل لهم أن أمير المؤمنـين عبد المؤمن بن على يدخل غدا المدينة مع أشياخ الموحدين برسم صـلاة الجمعة بالقرويين ، فخافوا لذلك ، فبات الحمامون بالجامع تلك الليلة ؛ فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق المحراب وحوله بالكاغيد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض فنظف تلك النقـوش كلهـا وصارت بياضا(٤٣) .

---

(٤٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٩ .

(٤٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص٣٨ ، وأنظـر أيضـا سـالم ، المغرب ، ص ٧٦١ ، ص ٧٦٢ .

ثانيـا : الحيـاة الاقتصـادية

أ ـ التجـــارة

ب ـ الصناعة

جـ ـ الزراعــة

أولا ــ التجـــارة :

حظيت التجارة بنصيب وافر فى عصر المرابطين ، فلقد كان لامتــداد رقعة الدولة فى السودان والمغــرب والاندلس عظيم الأثر فى ازدهار النشاط التجارى ، وأدى بالتالى الى فتح منافذ متعددة لتسويق المنتجات الزراعية والصناعية ، فنشطت حركة الصادر والوارد ، ونمت التجــارة الداخلية والخارجية • ولا شك أن عامل الاستقرار الســياسى فى دولة المرابطين وعلى الاخص فى عصر يوسف بن تاشفين والنصف الاول من عصر على بن يوسف كان من أهم العوامل فى تأمين طرق التجارة الداخلية بين حواضر الدولة سواء فى المغرب أو فى الاندلس ، كما أن نمو البحرية المرابطية فى عصر على بن يوسف واحتلالها مركزا ممتازا فى حوض البحر المتوســط كان له أثره الكبــير فى ازدهار التجــارة الخارجيــة المرابطية ، وتأمين طرق التجارة البحرية من الاخطار التى كانت تتعرض لها ولاسيما خطر القراصنة(٤٤) •

أهم المراكز التجــارية :

١ ــ المــرية :

كانت المرية فى عصر على بن يوسف على حد قول الادريسى « مدينة الاسلام »(٤٥) لما بلغته من شهرة فى مجــال الصناعة والتجارة ، اذ أنها كانت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا للتجارة الداخلية والخارجيــة ، فمن ميناءها كانت تبحر السفن الى شرق البحر المتوسط والى العدوة المغربية محملة بمنتجات الاندلس ، ولقد لاحظ ابن غالب الاندلسى أهمية موقع

---

(٤٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠١ •

(٤٥) الادريسى ، صفة المغرب وأرض الســودان ومصر والاندلس ، ص ١٩٧ •

المرية على البحر المتوسط فى ازدهار التجارة فقال : « فهى باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق »[٤٦] ، كذلك يذكر الرازى أنها « باب الشرق ومفتاح الرزق »[٤٧] ؛ ويقول الادريسى مشيرا الى أهمية ميناء المرية التجارى : « وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ... والمدينة فى ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون ، وكان أهلها مياسير، ولم يكن فى بلاد أهل الاندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا »[٤٨] . ويرى أستاذى الدكتور عبد العزيز سالم أن اتخاذ المرابطين مدينةغرناطة قاعدة لهم فى الاندلس كان له دخل كبير فيما أصابته المرية فى عصر المرابطين من ازدهار فى كلا المجالين الصناعى والتجارى لأنها أقرب الموانى الاندلسية الى غرناطة ، فضلا عن أنه كان يربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة ، فكانت السفن تتردد بين ثغر المرية وثغور المغرب مثل وهران وبجاية وجزائر بنى مزغنة وتنس وسبتة وتونس[٤٩] . وليس أدل على تأكيد الصفة التجارية الهامة التى تمتعت بها المرية فى عصر على بن يوسف أن عدد فنادقها بلغ على حد قول الادريسى ٩٧٠ فندقا[٥٠] .

وكانت هناك مراكز تجارية أخرى فى الاندلس غير أنها تقل فى أهميتها عن المرية ، مثل اشبيلية التى كانت من أكبر المراكز التجارية للزيت[٥١] ، ومالقة فى تجارة الفخار وخاصة المذهب[٥٢] وغيرهم .

---

(٤٦) ابن غالب ، فرحة الانفس ، ص ٢٨٣ .
(٤٧) انظر ابن سعيد المغربى ، المغرب ج٢ ، ص١٩٣ .
(٤٨) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٤٩) سالم ، المرية ، ص ٨٨ .
(٥٠) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ ، وانظر أيضا ، سالم ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
(٥١) الادريسى ، نفسه ، ص ١٧٨ .
(٥٢) المقرى ،نفح الطيب ، ج١ ، ص١٥٢ .

٢ ــ اغمــــات :

كانت من أهم مراكز التجارة الداخلية فى المغــرب فى عصر على بن يوسف ، حيث كان تجارها يعدون القوافل التجارية المتجهة نحو السودان الحاملة « لقناطير الاموال من النحاس الاحمر الملون والاكسية وثيــاب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع »(٥٣) • وكان التاجر منهم يملك ما بين سبعين ومائة جمل ، ويشير الادريسى الى مدى ثراء أهل أغمات بقوله : « ولم يكن فى دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا ، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم ، وذلك أن الرجل منهم اذ ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها فى تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرضتين من الارض الى أعلى وبنيانهم بالأجر والطوب والطين أكثر ، فاذا مر الخاطر بدار ونظر الى تلك العرض مع الابواب قائمة عدها فيعلم من عددها كم مبلغ صاحب الدار »(٥٤) •

٣ ــ ســـــلجماسة :

كانت من أهم المراكز التجارية فى عصر على بن يوسف ، ومما ساعد على احتلالها هذه المكانة تحول طريق التجــارة الذى كان يربط بين غانة ومصر والذى أهمل بسبب العواصف الرملية الى سجلماسة ، فكانت مقصد تجار من البصرة والكوفة وبغداد ، وكانت تجارتها تحمل الى الشرق عن طريق موانى المغرب أو عن الطريق البرى المؤدى الى افريقية(٥٥) • ومما

---

(٥٣) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٦٦ •

(٥٤) الادريسى ، نفسه ، ص ٦٦ ، ٦٧ •

(٥٥) الادريسى ، نفسه ، ص ٦٧ •

وانظر أيضا حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠٠ •

ساعد أيضا على احتلال سلجماسة هذه المكانة التجارية الهامة أنها كانت نهاية طريق غالبية القوافل التجارية الى ذهب بلاد السنغال(٥٦) .

وهناك أيضا مدينة أودغست ، وكانت من أكبر الاسواق التجارية وقد نافست مدينة سلجماسة ، وكانت مقصدا لكثير من التجار الاثرياء(٥٧) ، وهناك مدينة تارودنت وكانت من أهم المحطات التجارية الواقعة على الطريق التجارى الساحلى الذى يبدأ من تارودنت الى مدينة نول لمطة ومنها الى جزيرة أوليل الواقعة على المحيط الاطلسى ، وكانت تارودنت تستقبل القوافل التجارية الآتية من الجنوب ، كما كانت تقوم بتزويد القوافل التجارية المتجهة نحو السودان الغربى بكل ما كانت تحتاج اليه(٥٨) ، وهناك أيضا مدينة نول لمطة وهى احدى المحطات التجارية التى تقع على الطريق التجارى الممتد من تارودنت مارا بنول لمطة الى جزيرة أو ليل على المحيط الاطلسى(٥٩) ويشير الدكتور حسن محمود على أنه مما يدل على أهمية هذه المدينة فى ذلك العصر أنها أصبحت دارا لسك العملة بسبب الذهب الذى كانت تجلبه القوافل من بلاد السودان(٦٠) .

كما شهد عصر المرابطين نشاط الحركة التجارية بين دولة المرابطين وبين مدن الغرب الأوربى ، وقد استمرت هذه الحركة مزدهرة رغم غارات الايطاليين على سواحل المغرب الاسلامى ، وظلت العملة التى كانت تسك أنذاك فى قطلونية ومونبيليه باسم الدينار المنقوش دليلا على قيام تجارة

---

(٥٦) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٨٦ .
(٥٧)
(٥٨) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٦٢ ، مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٢ .
(٥٩) الادريسى ، نفسه ، ص ٥٩ .
(٦٠) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠٠ .

نشيطة بين بلدان الغرب الاوربى ، وبين مسلمى الاندلس والمغرب ؛ وقد استحوز تجار جنوة وبيزة على قدر كبـير من تلك التجـارة خلال العصر المرابطى[٦١] .

ثانيـا ـ الصناعات :

ازدهرت الصناعات فى عصر المرابطين ازدهارا عظيما ، فقـد توفرت المواد الخام اللازمة للصناعة ؛ وتدفقت من أسواق الاندلس والسودان ، كما أن النشاط التجارى الضخم بين موانى المغرب والاندلس قد سـاعد بدوره على رواج الصناعة التى أصبح من الميسور تسويقها وتصديرها الى أسواق الاستهلاك المختلفة ، فأقبل الصناع على مضاعفة الانتـاج وظهرت فى المغرب والاندلس مراكز صناعية ضخمة ذاع صيتها وارتفع نجمها ، وتميزت بنوع معين من الصناعات ومن أهم المراكز الصناعية فى الاندلس .

المـــرية :

احتلت المرية المركز الاول فى عصر المرابطين فى صناعة المنسـوجات الحـريرية فى الاندلس وخاصـة فى مدينة قرطبة التى كانت تتبوأ مكان الصدارة فى هذا المجال بالاضافة الى صناعة الديباج والموشى الى أن حلت محلها المرية ، وكانت قرطبة تعتمد فى صناعات المنسوجات الحريرية على مدينة جيان التى كانت تتوفر فى قراها كل مقومات هذه الصناعة اسـتنادا الى قول الادريسى : « ولها ـ أى جيان ـ زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربى بها دود الحرير »[٦٢] ، وكانت تربيـة دودة القـز قد أدخلت الى الاندلس فى القرن الرابع الهجرى على يد أسرة من الشام[٦٣] ، ثم ازدهر

---

(٦١) ارشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ٣٨٦ .
(٦٢) الادريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص٢٠٢
(٦٣) زكى محمد حسن ، فنون الاسلام ، ص ٣٨٩ .

استخراج الحرير فى الاندلس ، وأصبح يصدر منها الى سائر البلاد فى أوربا وفى العالم الاسلامى ؛ ولكن مع أوائل القرن الخامس الهجرى ، أخذت مدينة المرية تتبوأ شيئا فشيئا المركز الرئيسى لصناعات الحرير بعد قرطبة وبجانة ويعبر ياقوت عن ذلك بقوله : « يعمل بها (أى بقرطبة) الوشى والديباج فيجاد عمله وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية،فلم يثقف فى الاندلس من يجيد عمل الديباج أجادة أهل المرية»(٦٤) . ويشير الادريسى الى مقدار ما وصلته هذه الصناعات فى عصر المرابطين وعن مدى شهرة المرية فى هذه الصناعات وأنواع منسوجاتها وعدد أنوالها أو طرزها فيقول:«ومدينة المرية كانت فى أيام الملثم مدينة الاسلام وكان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى والستور المكللة والثياب المعينة والخمر والعتابى والمعاجر وصنوف الحرير الأخرى »(٦٥) . ويشير توريس بالباس الى مدى ازدهار صناعات المنسوجات الحريرية فى المرية بقوله أن الكنائس والمتاحف بأسبانيا تحتفظ حتى الآن بنماذج من المنسوجات الحريرية المصنوعة فى المرية فى عصر على بن يوسف مثال ذلك ثوب القداس الذى كان يرتديه القديس خوان دى أورتيجا والمحفوظ الآن بكنيسة أورتونيو (برغش) والذى يحمل اسم على بن يوسف ، ويرى الاستاذ جومث مورينو أن هذا

---

(٦٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

(٦٥) الادريسى ، المصدر السابق ، ص١٩٧،أما المقرى فقد أورد لنا أعدادا مختلفة مبالغ فيها من الانوال لنسج كل صنف من أصناف الحرير فيقول : (كان بالمرية لنسج الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانى مثل ذلك ، وللعتابى والمعاجر المدهشة والستور المكللة) ولكننا نرجح رأى الادريسى . انظر ايضا ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، زكى محمد حسن، فنون الاسلام ، ص ٣٨٨٩ ، سالم المرية ، ص ١٥٧ .

الثوب وغيره من المنسوجات الحريرية الأخرى المحفوظة بكاتدرائيــة شلمنقة وشنونسة قد صنعت بالمرية(٦٦) .

وفضلا عن اشتهار المرية بالصناعات الحريرية ، فقد اشتهرت أيضـا بصناعة السـفن ؛ فقد كانت المواد الخام اللازمة لقيـام هذه الصناعة متوفرة فى أرض المرية وفى مناطق متعددة بالاندلس ؛ فكانت أخشاب الصنوبر اللازمة لصناعة الصوارى تجلب من جبال طرطوشة(٦٧) ، أو من قصر أبى دانس (٦٨) أو من شلطيش (٦٩) ، كما كان معدنى الحـديد والنحاس يتوفران فى كثير من مدن الاندلس ، فكان الحـديد يكثر فى طليطلة(٧٠) وغرناطة(٧١) . كذلك اشتهرت المرية بصناعة التحف المصنوعة من الزجاج ، فقد ذكر المقـرى أنه كان يصنع بالمرية الزجاج العجيب وفخار مذجج مذهب(٧٢) .

قرطبـــة :

كانت قرطبة من أكبر المراكز الصناعية فى الاندلس ، وقد اشتهرت قرطبة بالكثير من الصناعات وخاصة صناعة ودباغة الجلود فقد حازت قرطبة على شهرة عظيمة فى هذه الصناعة حتى ينسب اليها الجلد القرطبى

---

(٦٦) توريس بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٦٧) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٤ .
(٦٨) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ١٨١ ، الحميرى ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .
(٦٩) الحميرى ، نفسه ، ص ١١١ .
(٧٠) الادريسى ، نفسه ، ص ١٨٨ ، الحميرى ، نفسه ، ص ١٣٣ .
(٧١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٤ .
(٧٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ، ص١٨٧ ، راجع أيضا مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الذى حمله التجار الى أوربا كسلعة غالية نادرة ، وقد عرف هنـا باسم Cordovan نسبة الى مدينة قرطبة[٧٣] ؛ كما استحوذ الجلد القرطبى على شهرة واسعة فى تجليد الكتب وصنعت منه أغلفة تعد آية فى دقة الصناعة وجمال الفن ، مما دفع الاوربيين الى تعلم هذا الفن ونقلوه عن المسلمين فى الاندلس ، وساروا على منواله فى تغليف كتبهم كذلك اشتهرت قرطبة بصناعة المنسوجات ، والتحف الزجاجية والبلورية والخزفية ، الى جانب صناعة التحف العاجية والمعدنية والآلات الحديدية وصناعة الحلى[٧٥] .

أشـبيلية :

حظيت اشـبيلية بشهرة واسـعة داخل الاندلس وخارجها بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون ، فالزيتون الذى كانت تنتجه اشبيلية يعتبر من أجود الانواع ، لما يمتاز به من وفرة الزيوت المستخرجة منه عن غيره ؛ فضلا عن أن مذاقه لا يتغير من تخزينه لفترة طويلة[٧٦] ، وكان الزيت الاشبيلى يصدر الى البلاد الاسلامية الواقعة فى حوض البحـر المتوسط ، كمـا اشتهرت اشـبيلية بصناعة الحلى من الذهب النفيس والجواهر القيمة لمقابض السيوف وحظيت اشبيلية بشهرة فائقة فى هذا المجال ، ويدل على ذلك على سبيل المثال وصية أحد ملوك اسبانيا التى يقول فيها : « أوصى أيضا لأبنى بسيفى القشتالى الذى صنع باشبيلية

---

(٧٣) بروكلمان ، الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، عاشور ، المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضـارة الاوربية ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٨٣ .

(٧٤) عاشور ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ، مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص ٢١٩ ، ٢٢٧ .

(٧٥) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٤ .

(٧٦) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢١ ، ١٠١ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر» [٧٧] • كذلك اشتهرت اشبيلية بالصناعات الحربية[٧٨] ، وصناعة قصب السكر[٧٩] •

وهناك مراكز صناعية أخرى فى الاندلس مثل مرسية التى اشتهرت بصناعة البسط والحصر ، والاسرة المرصعة ، وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة[٨٠] ، ومدينة مالقة التى اشتهرت بصناعة الفخار المذهب[٨١] ، ومدينة سرقسطة التى اشتهرت بصناعة الفراء من وبر السمور[٨٢] •

أما أهم المراكز الصناعية فى المغرب فى عصر على بن يوسف فهى: مراكش حاضرة الدولة ، وقد اشتهرت بصناعة الصابون والمغازل[٨٣] ، ومدينة فاس وكانت تشتهر بالعديد من الصناعات ولعل هذا راجعا الى أنها كانت مقصد المهاجرين الاندلسيين ، فاشتهرت بصناعة الزجاج ولاسيما الزجاج الملون ، وكذلك صناعة تسبيك الحديد والنحاس[٨٤] ، ومدينة نول لمطة التى اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية وفضلا عن الدرق اللمطية فقد

---

(٧٧) ستانلى لين بول ، العرب فى أسبانيا ، تعريب على الجارم ، مطبعة المعارف مصر ، ١٩٤٤م ، ص ١٣٥ •

(٧٨) المقرى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٨ •

(٧٩) المقرى ، نفسه ، ج١ ، ص١٩٣ •

(٨٠) المقرى ، نفسه ، ج١ ، ص١٨٧ •

(٨١) المقرى ، نفسه ص ١٥٢ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج٥ ، ص ٢١٩ •

(٨٢) المقرى ، نفسه ، ص ١٨٤ • والسمور حيوان يشبه النمس ، وجلده لين ضعيف ، ومنه تتخذ الفراء الثمينة •

(٨٣) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٧٠ ، حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠٦ •

(٨٤) الجزنائى ، زهرة الآس ، ص٥٨ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص ٤٢ •

اشتهرت نول لمطة بصناعة السروج ولجوم الخيل والاقتـاب[٨٥] وهى سروج الخيل ، وقد ازدهرت صناعة الاقتاب فى هذه المدينة نظرا لكثرة القوافل التجارية التى كانت تمر بها ؛ وهناك أيضا مدينة تارودنت وكانت من أكبر مراكز صناعة السكر ، حيث كان يتوفر بها من معاصر الســكر ومن تارودنت كان يجلب السكر الى جميـع بلاد المغـرب والاندلس وافريقية وهو السكر المشهور بالطبرزد[٨٦] .

ثالثا ــ الزراعـة :

تميزت شبه جزيرة ايبيريا باختــلاف طبيعة سطحها ما بين وديان وهضاب وسلاسل جبال ، فضلا عن تنوع مناخها واتجاه مجارى أنهارها نحو الشرق أو الغرب ، مما أثر بالتالى فى توزيع ثرواتها الزراعية . ولقد أشار الجغرافيون العرب الى هذا التباين فى طبيعة سطحها واختــلاف مناخها وتعدد منتجاتها الزراعية ، فيقـول أحمـد الرازى : « الاندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهــارها : أندلس غربى وأندلس شرقى ؛ فالغربى منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربى وتمطر بالرياح الغربية ، والشرقى المعـروف بالاندلس الاقصى وتجرى أوديته الى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقيـة »[٨٧] ونخرج من هذا النص أن شبه جزيرة ايبيريا تنقسم الى اقليمين مناخيين أحدهما رطب والآخر جاف ويمكن القول بصفة عامة أن أغلب الاندلس يقع فى المنطقة الجافة ، مما ساعد على ازدهار وتنوع المحاصيل الزراعية فى الاندلس وخاصة فى شرق الاندلس الذى امتــازت أراضيه بالخصوبة

---

(٨٥) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ٥٩ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٨٦) الادريسى ، نفسه ، ص ٦١ ، ٦٢ .
(٨٧) انظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

وساعد على ذلك طبيعة أرض هذه المنطقة السهلية وتميزها بمناخ معتدل ووفرة فى المياه • فكورة بلنسية وحاضرتها مدينة بلنسية أرضها سهلية مستوية ولخصوبة أرضها وصلاحيتها للزراعة عرفت بمدينة التراب(٨٨) ، والى جانب بلنسية مدينة مرسية فأرضها سهلية تقع على ضفة النهر الابيض وواديها قسيم وادى اشبيلية كلاهما ينبع من شقورة ، الذى تحيط به البساتين من جميع النواحى(٨٩) •

أما عن المحاصيل الزراعية ، فقد اشتهرت زراعة الزيتون فى دانية(٩٠) ومربيطر(٩١) واشبيلية(٩٢) ، كذلك ازدهرت زراعة الكروم على نطاق واسع فى دانية(٩٣) ومربيطر(٩٤) ومرسية(٩٥) ، كما كثرت زراعة الكمثرى والرمان والسفرجل فى بلنسية (٩٦) ، كما كثرت زراعة التين فى دانية(٩٨) ومالقة(٩٩) ، كما اشتهرت زراعة القمح فى مرسية(١٠٠) •

وقد لجأ المرابطون فى عصر على يوسف الى تطبيق سياسة ذات أثر

---

(٨٨) ياقوت ، المعجم ، المجلد الثانى ، ص ٢٧٥ ، المقرى، ج ١، ص ١٦٨ •
(٨٩) الادريسى ، صفة المغرب ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، المقرى ، ج ٤، ص ٢٠٧ •
(٩٠) الادريسى ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٨٠ •
(٩٢) المقرى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ •
(٩٣) الادريسى ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩٤) الحميرى ، نفسه ، ص ١٨٠ •
(٩٥) الادريسى ، نفسه ، ص ١٩٤ •
(٩٦) المقرى ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٨ •
(٩٧) العذرى ، ترصيع الاخبار ، ص ١ •
(٩٨) الادريسى ، نفسه ، ص ١٩٢ •
(٩٩) المقرى ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٤ •
(١٠٠) المقرى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ •

بعيد فى انعاش الزراعة ، فقد أقطعوا الجند أرضا يزرعونها ويستثمرونها وينتفعـون بخيراتها فى مقـابل أداء واجب الدفاع عن الوطن وقت الحرب(١٠١) ويرى الدكتور حسـن محمود أن المرابطين قد طبقوا هذه السياسة الزراعية فى المغرب فضلا عن الاندلس ، وأقطعوا جنود لمتـونة بوجه خاص وجنـود الملثمين بوجه عام أرضـا يفلحونها وينتفعـون بخيراتها(١٠٢) .

---

(١٠١) الطرطوش ، سراج الملوك ، ص ١٢٣ ، حسن حمد محمود ، قيـام دولة المرابطين ، ص ٤٠٥ .

(١٠٢) حسن أحمد محمود ، نفسه ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

ثالثا : أمثلة من الآثار المعمارية فى المغرب والأندلس

أ ــ الآثار الدينيــة .

ب ــ الآثار المدنية والمنشآت العامة .

جـ ــ الآثار الحربيــة .

فتح المرابطون أبوا بالمغرب أمام الحضارة الاندلسية فأخذت التأثيرات الاندلسية تتدفق فى عصرهم على البلاد المغربية ؛ واذا كانت هذه التأثيرات الاندلسية قد بدأت تظهر فى المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة وفاس منذ القرن الرابع الهجرى ، فان غالبية مدن المغرب الاقصى ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات الراقية حتى تدفق المرابطون الى المغرب ونجحوا فى اقامة دولة توحد بين المغرب والاندلس ، فاشتد ساعد المؤثرات الاندلسية أكثر من ذى قبل ، ولم تعد قاصرة على مدن الساحل ، بل لقد نفذت حتى اقليم الصحراء الى أغمات ومراكش[1] ، ولأول مرة ارتبط المغرب والاندلس فى وحدة فنية توثقت عراها زمن على بن يوسف الذى زود حضارة المرابطين بجرعات من التأثيرات الاندلسية أكثر مما زودها به أبوه يوسف « وأصبحت الاندلس فى المجال الفنى أستاذا للمغرب ، فساد الفن الاندلسى فى المغرب ؛ وظهرت تقاليده واضحة وضوحا تاما فيما تخلف من آثار المرابطين فى المغرب والاندلس »[2] .

وقد تجلت روائع الفن المغربى الاندلسى فى عصر المرابطين فى الابنية الدينية مثل جامع القرويين بفاس ، وجامع تلمسان ، وجامع الجزائر ، فضلا عن قبة البروديين فى مراكش ، وقبة دار الوضوء فى مسجد أبى يوسف ، وفى المنشآت المدنية مثل قنطرة تانسيفت ؛ وقصور الامراء ، كما تجلت فى التحصينات العسكرية بما تشتمل عليه من الاسوار والحصون والقلاع وغيرها .

وفيما يلى عرض سريع لأهم الآثار التى تبقت من عصر على بن يوسف على مختلف أنواعها .

---

(١) حسن حمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٩ .
(٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٤٧ .

أ ـ الآثار الدينيـــة :

(١) جامع القرويين بفــاس :

يعتبر جامع القرويين بفاس أعظم آثار المرابطين على الاطلاق ، كما يعتبر من أهم المساجد الجامعة فى بلاد المغرب وأكثرها شهرة باعتبارها جامعة اسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الازهر فى القاهرة ، ولقــد مر بناء جامع القــرويين بثــلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) ، والثانى عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) ، والثالث عندما زيدت مساحته فى عصر على بن يوسف سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م)(٣) .

ولكن ما يهمنا فى هذا الصدد هى تلك الاضافات التى أضيفت الى جامع القرويين فى عصر أمير المسلمين على بن يوسف ، فقد ازدهرت مدينة فاس ازدهارا عظيما خلال العصر المرابطى ، وضاق مسجدها الجامع بالمصلين لاسيما فى أيام الجمع عندما يؤذن للصلاة الجامعة ، فكان المصلون يؤدون الصلاة فى الاسواق والشوارع المحيطة بالجــامع ، فاجتمع الفقهــاء والاشياخ وتدارسوا هذا الامر ، وتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم أبلغوه الى أبى عبد الله محمد بن داود قاضى قضاة فاس ، وقد أوضحوا له فى تقريرهم أحوال المصلين وتضررهم من ضيق المسجد ، كما ضمنوه ضرورة توسيع المسجد ليستوعب الزيادة المطردة فى المصلين ، واطلعــوا قاضى المدينة على بعض المصادر التى يمكن الاعتماد عليها لتمويل تلك الزيادة فى

---

(٣) عن تاريخ بناء جامع القرويين بفاس ارجع الى ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٣٢ ـ ٣٤ ، الجزنائى ، زهــرة الآس ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص٢٢ ـ ٢٤ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٢ ، ٧٥٣ .

Marcais (Georges) : Manuel D'art Musulman, L'architecture, 2 Vols, Paris, 1926, vol, I p. 312.

مساحة المسجد أهمها انتزاع أوقاف المساجد التى كان قد استولى عليها أهل فاس واستخدامها لاجراء تلك الزيادة،وعلى هذا النحو استأذن قاضى فاس أمير المسلمين فى الشروع فى الزيادة ، فأذن له بذلك فى عام ٥٢٨هـ واشترط على القاضى أن يكون الانفاق على تلك الزيادة من بيت مال المسلمين ، الا أن القاضى أخبر أمير المسلمين بأن الانفاق على تلك الزيادة سيكون من الاموال التى تجمعت من الاحباس فى أيدى الوكلاء ، فأمره على بن يوسف بتقوى الله والسرعة فى اجراء الزيادة ، فانصرف القاضى الى مجلس قضاته ، فسأله عن أموال الاحباس ، فوجد أن الوكلاء الذين بأيديهم تلك الاموال قد اختلسوها ، فقام بعزلهم وأمر بتعيين وكلاء غيرهم ممن يوثق فيهم ، وطالب الوكلاء السابقين بدفع ما عليهم من أموال ، فضلا عن أحباس السنة الجديدة ، فاجتمع ما يزيد على ثمانين ألف دينار(٤) • ثم شرع فى الزيادة بالمسجد ، من جهاته الثلاثة القبلة والغرب والشرق ، واشترى فى سبيل ذلك الاراضى التى تحتاج اليها الزيادة المذكورة ، وكان أكثر ما اشتراه ديارا لليهود ، وكان كل من امتنع منهم عن البيع زاده فى الثمن بما يغريه على البيع امتثالا لما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند اقدامه على الزيادة فى المسجد الحرام ، فلما اكتمل للقاضى شراء ما يكفى من الدور لاجراء تلك الزيادة ، أخذ فى هدمها وبيع نقضها ، وشرع فى البناء ، فبنى أولا : الباب الغربى الكبير وهو باب النجارين (أو الفخارين) ويعرف الآن بباب الشماعين ، وكان القاضى يشرف بنفسه على بناء هذا الباب ، وعمل على تحسينه وتجميله ، وصنع على ظهر الباب من داخل المسجد قبة كتب عليها أن هذا الباب والقبة قد اكتملا البناء والتركيب فى شهر ذى الحجة سنة

---

(٤) ابن بى زرع روض القرطاس ، ص ٣٦ ، الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ٥٧ ، ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، ص ٤١ ، ٤٢ :
Marcais, . op - cit, p. 312.

ثمانية وعشرين وخمسمائة[٥] • وأخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما وقد فعل ذلك بالجص المقربس الفـــاخر الصنعة وزرقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد ، وركب فى الشماسات التى بجوانب القبة أشكالا متقنة من الزجاج الملون ثم أخذ فى تغطية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر[٦] •

أما المنبر ، فقـد أقيم على يد القـاضى أبى محمد عبـد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطى ؛ ولكن هذا المنبر لم يكتمل فى حياته فأتمه القاضى أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى ، وقد صنع المنبر من عود الصندل والابنوس والنارنج والعناب وعظم العاج ، وقد تولى صناعته وأشرف على أعمال النجارة فيه الشيخ الاديب أبو يحيى العتاد ؛ وكان جملة ما صرف على صناعة المنبر ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة من مال الاحباس ، وكانله غطاءان أحدهما من جلد الماعز والثانى من الكتان ، وقد اكتمل صنعه فى شهر شعبان سـنة ثمان وثلاثين وخمسمائة[٧] ، « ويعتبر هذا المنبر من أجمل منابر الاســلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانباه بتشابكات رائعــة متعــددة الضلوع قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس • ويحدد التشـــابكات المذكورة أشرطة من العاج ، وتزدان الحشوات النجمية بتوريقات نخيليـــة معروقة ومختمة وفقا للاسلوب الاندلسى المغربى • أما ظهر المنبر وعقده الامامى فمرصعان بالعاج والاخشاب الثمينة ذات الالوان الهادئة ، ومازال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين »[٨] •

---

(٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٣٧ •

(٦) الجزنائى ، المصدر السابق ، ص ٥٨ ؛ ابن القاضى ، المصدر السابق ، ص ٤٢ •

(٧) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ؛ الجزنائى ، المصدر السابق ص ٤٢ •

(٨) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٤٩١ •

أما عن صحن الجامع فقد قام بفرشه العريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن صخر الخولانى من ماله الخاص ، فقد كان له أربع من الدور موروثة عند أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج اليه وتولى فرشه بيده ؛ وعندما تولى القاضى أبو عبد الله محمد بن داود قضاء فاس أدخل بعض الزيادة الى صحن المسجد ؛ فقد عمل له مظلا من شقف الكتان تنشر عليه كل يوم جمعة فى فصل الصيف لحجب الشمس عن المصلين •

(٢) المسجد الجامع بتلمسان :

تحمل قاعدة المحراب بجامع تلمسان التاريخ الانشائى لهذا الجامع وهو عام ٥٣٠هـ (١١٣٥م) الذى يتفق مع امارة على بن يوسف[١٠] • وجامع تلمسان بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال الى الجنوب ٦٠ م ومن الشرق الى الغرب ٥٠م ، الصحن مربع الشكل تقريبا ، على جانبيه من الجهة الشمالية دهليزان تقطهما مئذنة مربعة ، وقد أنشئت هذه المئذنة بعد بناء المسجد بسبعين عاما ، ويحيط ببيت الصلاة من الجهتين الشرقية والغربية مجنبتان ، المجنبة الشرقية تتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتدادا لبلاطات بيت الصلاة ؛ والمجنبة الغربية تتألف من أربع بلاطات[١١] • ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعائم تقسم سطح بيت الصلاة الى ست أساكيب تمتد من الشرق الى الغرب وبمعنى أصح الى مجموعتين من الاساكيب كل منها يضم ثلاثة وتفصل بين المجموعتين دعائم مصلبة الشكل

---

(٩) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٤٠ •

(١٠) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية فى المغرب والاندلس ، ص ٨٦ ، سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٤٩ ، ٧٥٠ •
Marcais, Manuel d'art Musulman, p. 313.

(١١) سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٥٠ •
Marcais, op. cit. p. 313.

تقوم عليها بائكة من العقود المتعددة الفصوص تقطع المسجد عرضا بحذاء جدار القبلة • أما العقود الأخرى المتجهة عموديا على جدار القبلة فمن النوع المنفوخ الذى يشبه حدوة الفرس(١٢) •

وتعتبر مقصورة محراب المسجد الجامع بتلمسان تحفة زخرفية رائعة الجمال تفوق زخارفها كل زخرفة مغربية فى ذلك العصر مما يشهد بانحداره من أصل أندلسى ، وقد قلد عرفاء جامع تلمسان المسجد الجامع بقرطبة تقليدا مباشرا فى لوحتى الرخام اللتين تكسوان ازار واجهة المحراب بتلمسان ، ولا يقف تأثير قرطبة فى جامع تلمسان الى هذا الحد ، فسقف المسجد خشبى مسطح يعلو سطح منشورى الشكل أو مسنم على النحو المتبع فى المسجد الجامع بقرطبة،كما أن البلاطة الوسطى تزيد فى الاتساع عن البلاطات الأخرى ويقطع سطحها قبتان ، يعلوهما جوسقان من الخارج واحدة منهما تقع على الاسطوان الاوسط من القسم الشمالى من البلاطة الوسطى أى فى نفس الموضع تقريبا الذى تقوم عليه القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة فيلافسيوسا بجامع قرطبة ، أما القبة الأخرى فتتقدم المحراب وهى قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة ، والظاهر أن مهندس جامع تلمسانتأثر فى بناء هذا المسجد بجامع قرطبة ، فجاء تخطيط جامع تلمسان مماثلا لتخطيط جامع قرطبة بكل ما أضيف اليه من زيادات(١٣) •

(٣) قبة البروديين بمراكش :

تمثل قبة البروديين بمراكش أروع ما أنتجه الفن المرابطى وهى تقع

---

(١٢) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٥٠ ، قرطبة ، ج ١ ، ص ٣٦١،٣٦٢ •
(١٣) سالم قرطبة ، ج ، ص ٦٩ ، ٧٠ وانظر أيضا :
Marcais, Manuel d'art Musulman, p. 313 - 314.

بالقرب من الجامع الذى بناه أمير المسلمين على بن يوسف بمراكش ، ثم هدمه الموحدون عندما استولوا على المدينة ، ولعل هذه القبة قد شيدت فيا بين عامى ٥١٤ ـ ٥٢٥هـ (١١٢٠م ـ ١١٣٠م) وربما قصد بهـا أن تكون مدفنا لاحدى الشخصيات الكبيرة ثم تحولت آخر الامر الى ميضأة. وهذه القبة عبارة عن مبنى مستطيل الشـكل مبنى بالحجـر الآبد تتوج جدرانه من الخارج شرافات مدرجة ويغطى جزءه الاوسط قبة صغيرة مبنية بالآجر ومقواة من الخارج بعروق تقوم على قاعدة مربعة عرض ضلعها ٨٠ر٣م • وتبرز بداخلها ثمانية عقود متقاطعة تشبه فى تصميمها عقـود قبة مماثلة فى بيت الصلاة بجامع قرطبة وترسم بتقاطعها حلقة مثمنـة تعلوها قبة صغيرة مفصصة تكاد تشبه القبة التى تشغل نفس المكان من النموذج الاندلسى ، وتتحلى معظم الزقاع المحصورة بين عقودها بزخارف نباتية رقيقة من الجص المقطع تدور بأشكال محارات[١٤] •

(٤) قبة دار الوضوء فى مسجد أبى يوسف :

هى قبة الوضوء بالمسجد الذى أسسه على بن يوسف وتعبر هذه القبة عن الحيوية الفائضة لفن العمارة عند المرابطين الى حد الولع بالتعقيدات كما لو كانت روح الجعفرية فى سرقسطة قد انبعثت من جديد فى مراكش ، اذ نرى تكوينا آخر من عقود متقاطعة الا أنها تختلط فيهـا الخطوط فى تصميم مربع الشكل ، وينغلق هذا التكوين بافريز مثمن الاضلاع يحدد طبقة أخرى من العقود المنفردة ، وتغطى التكوين قبة ذات ثمانية فصوص مستديرة بين أخرى صغيرة مدببة ، ولا يزيد طول ضلع القاعدة عـلى

---

(١٤) توريس بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ص ٤٦،٤٧ ، وانظر أيضا سالم ، المغرب الكبير ، ص٧٥٢ •

٨٠ر٣م مع مفارقة شديدة فى اتساقها بالنسبة الى الارتفاع ، والبناء من قطع الآجر المكسوة بالجص وقد حفرت فيه الفجوات بين العقود مؤلفة توريقات شبيهة بتلك التى فى جامع تلمسان حول محارات كبيرة مع زخرفة مثالية من وريقات مخططة(١٥) .

(٥) منبر مسجد الكتبية :

يعتبر منبر مسجد الكتبية بمراكش من أعظم المنابر الاثرية التى و ت الينا عن عصر المرابطين ، وقد وقف الاثرى والمستشرق الفرنسى سوفاجية على نقش كتابى على هذا المنبر فى نهايته العبارة التالية : « اللهم أعن الامير على بن يوسف بن تاشفين ومن بعده ولى عهده تاشفين » ، مما يحدد لنا تاريخ هذا المنبر بالفترة الواقعة بين تنتنتى ٥٣٤ ، ٥٣٧هـ وهى الفترة الممتدة بين تولية تاشفين ولاية عهد أبيه ووفاة أمير المسلمين على بن يوسف ، ويبدو أن هذا النقش كان يتضمن تاريخ الفراغ من عمل المنبر ولكنه طمس كما طمس أيضا اسم الامير الذى أمر بصنعه وتم ذلك على أيدى الموحدين ، وهناك نقش آخر على هذا المنبر يشير الى أنه صنع بمدينة قرطبة(١٦) .

ويمتاز هذا المنبر بما فيه من ثروة عظيمة من الزخرفة والحشوات هنا تختلف عن حشوات المنابر المرابطية الأخرى بأن معظمها مثلث الجوانب ، والسدايب التى تحبس هذه الحشوات فى مكانها لا يزال بها آثار التطعيم

---

(١٥) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(١٦) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

بالعاج فهو أول مثال للمنابر المطعمة بالعاج ، هذا وتتجلى فى هذا المنبر أعمال النجارة الفنية والزخارف النبـاتية الرائعة ، وهى تعتبر من أجل المنابر شأنا بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة ؛ وفى سقف هذا المنبر بقايا من حشوات خشبية ذات أشكال مختلفة تزدان بعناصر نباتية رائعة من النوع المعروف بالارابسك(١٧) •

ب ــ العمارة المدنيـة :

أقيمت فى عصر على بن يوسف منشآت مدنية متعددة المنافع من قصور وقناطر وحمامات وفنادق جعلت من على بن يوسف من أعظم أمراء دولة المرابطين اهتماما بالبنيان وولعا به • ومن بين المنشآت المدنية التى أقامها ثم ضاعت معالمها قنطرة نهر تنسيفت وقد اسـتعان فى بنائهـا بخبراء الاندلس(١٨) ، كذلك أقيمت فى عصره القصور الجليلة التى تعبر عن روح الفخامة التى أصبحت السمة المميزة لعصر على بن يوسف وأهم هذه القصور قصر الحجر نسبة الى جبل ايجليز القريب من مراكش ومنه اقتطعت الاحجار المستخدمة فى بنيانه(١٩) • ولم يتبق من الآثار المدنية العـديدة التى شهدها عصر على بن يوسف الا بقايا قصر منتقوط فى مرسية ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات الى الشمال الشرقى من مرسية ، ويعتبر هذا القصر المثل الأول الذى احتذاه الموحدون فى قصـورهم بأشبيلية ومالقة وقرطبة ؛ والذى احتذاه بنو نصر من بعدهم فى بهو السباع بحمراء غرناطة • وأهم ما يتميز به التناسق التام فى مخارج سوره ومداخله وفى

---

(١٧) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى أسبانيا ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(١٨) الادريسى ، المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ص ٦٩ •
مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٩ •

(١٩) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٦٧ •

توزيع غرفه ، ويتوسط هذا القصر صحن مستطيل يطل على جانبيه القصيرين جوسقان مربعان بارزان يمهدان لجوسقى بهو السباع بغرناطة. ويتقاطع ممشيان يؤلفان محورى البناء على شكل صليبى ، وتمتلىء المستطيلات الاربعة الناشئة من هذا التقاطع بأشجار البرتقال والليمون[٢٠] .

(جـ) الآثار الحربيــة :

اهتم المرابطون اعتبارا من سنة ٥٢٠هـ[٢١] بالذات بالتحصينات العسكرية سواء منها الاسوار أو الحصون أو القلاع للدفاع عن دولتهم فى المغرب من الحركات السياسية المناهضة لهم ، ولمواصلة الدفاع عن الاندلس موطن الجهاد ضد القوى النصرانية فى اسبانيا .

أولا ــ الاســوار :

أ ــ أسوار مراكش :

اكتفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عندما أسس مدينة مراكش باقامة سور صغير ليحيط بالمسجد الجامع وبقصبة صغيرة كى يختزن فيها أمواله وسلاحه[٢٢] ، وظلت المدينة بدون سور يحيط بها الى أن تولى أمير المسلمين على بن يوسف فشرع فى بناء السور حولها ، وقيل أن الذى أشار

---

(٢٠) عن قصر منتقوط راجع : جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٣٣٤ ، سالم ، المساجد والقصور فى الاندلس ، ص ١٠٥ ، وانظر سالم ، العمارة الاسلامية فى الاندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الاول ، ١٩٧٧ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢١) وهى السنة التى اقدم فيها الفونسو المحارب ملك أرغون على غزو الاندلس باستدعاء النصارى المعاهدين ، ونفس السنة التى شهدت عنف حركة المهدى بن تومرت .

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

عليه ببناء السور القاضى الفقيه أبو الوليد بن رشد قاضى قضاة الاندلس حينما اشتد خطر المهدى بن تومرت على الدولة ، فاستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب والاندلس فأفتوه ببناء السور لحماية نفسه وسكان عاصمته ، فأمر الصناع والفعلة والمهندسين فى الحال ببناء السور ، فاكتمل البناء فى ثمانية أشهر وبلغ جملة ما أنفق على السور ما يقرب من سبعين ألف دينار من الذهب(٢٣) . وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء سور مراكش ، فصاحب الاستبصار يجعل تاريخ البناء بعام ٥١٤هـ(٢٤) ، وابن القطان بعام ٥٢٢هـ(٢٥) ، وابن عذارى(٢٦) وصاحب الحلل الموشية بعام ٥٢٠هـ(٢٧) ، بينما يحدد كل من ابن أبى زرع(٢٨) وابن خلدون(٢٩) تاريخ البناء بعام ٥٢٦هـ ، ولكننا نميل الى ترجيح تاريخى ٥٢٠هـ كبداية فى المنشآت و٥٢٢هـ كتاريخ للفراغ فالفقيه ابن رشد ذهب الى المغرب للقاء أمير المسلمين فى أعقاب الغزوة التى قام بها الفونسو المحارب للاندلس وقد استمرت هذه الغزوة خمسة عشر شهرا ما بين عامى ٥١٩ ، ٥٢٠هـ ، ثم عاد الى الاندلس بعد لقاء أمير المسلمين فتوفى فى ذى القعدة سنة ٥٢٠هـ ، ولذا فمن الطبيعى أن يكون أمير المسلمين قد شرع فى بناء السور عقب رحيل ابن رشد ، ويبدو أن الاستعدادات للبناء قد استغرقت عدة شهور ، ثم بدأ

---

(٢٣) مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢٠٩ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ .

(٢٤) الاستبصار ، ص ٢٠٩ .

(٢٥) ابن القطان ، المصدر السابق ،ص ١٠٧ .

(٢٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٢٧) مجهول ، الحلل الموشية ، ص ٧١ .

(٢٨) ابن أبى زرع ، نفسه ، ص ٩٥ .

(٢٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ .

البناء الذي استغرق ثمانية شهور ، ولهذا فالمعتقد أن يكون بناء السور قد اكتمل فى عام ٥٢٢هـ وهو ما يؤكده ابن القطان • وقد أضيف الى هذه الاسوار وزيد فيها عدد من الابراج سنة ٥٣٠هـ حتى أصبحت تحيط بمقابر المدينـة •

ولم يقتصر نشاط على بن يوسف على بناء سور مراكش ، بل شـيد العديد من أسوار المدن المغربية ، فقد أمر ببناء سور القوارجه التى تقع بين باب الجيسة وباب أصليتن فى مدينة فاس ، وقد قام قاضى فاس عبد الحق بن معيشة ببناء هذا السور(٣٠) •

ب ــ أســوار الاندلس :

ابتكر المرابطون نظاما جديدا فى تخطيط الاسوار فى الاندلس وخاصة فى عهد على بن يوسف ، فعمـدوا الى الاكثار من الزواياالداخليـة والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة ، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ثم يندفعون عليهم من أعلى الاسوار فيفتكون بهم ، ويتألف الســور فى الاندلس فى أعلاه من درب يسير عليه المحاربون ويسمونه المؤرخون أحيـانا بممشى السور ، وشرفات يقذفون منها سهامهم ، ودروات يحتمون خلفها ، ويتخلل جسم الدروات فتحات تساعد المحارب على النظــر الى أســفل دون أن تصيبه أسهم الاعداء(٣١) •

وقد فرض المرابطـون فى عصر على بن يوســف على أهل الاندلس

---

(٣٠) الجزنائى ، زهرة الآس ، ص ٣٢ ، سالم ، المغرب الكبـــير ، ص ٥١٧ ، ٥١٨ ، والقوارجة اصطلاح مغربى يطلق على اســوار متفــرعة من الاسوار الاساسية وتنتهى بأبراج برانية •

(٣١) سالم ، المساجد والقصور فى الاندلس ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ •

ما يسمى بضريبة التعتيب ، وقد استخدموا عائد هذه الضريبة فى بنـاء الاسوار فى المدن الرئيسية بالاندلس مثل غرناطة والمرية وقرطبة واشبيلية ولبلة وبطليوس واصلاح ما تداعى منها ، ويبدو أن هذه الضريبـة قد فرضت فى أعقاب غزوة الفونسو المحارب للاندلس ، وما أحدثته من خسائر وما أظهرته من ضعف وسائل الدفاع الاسلامى عن المدن الاندلسية • ومن أهم هذه الاسوار :

(١) اسـوار المرية:

قام باصلاح أسوار المرية أحد أبنائها ويسمى ابن العجمى وقيل ابن العائمة ، وقد أبدى سكان المدينة تعاونهم معه ، فقدموا اليه ما عليهم من ضرائب فاستعان ببعض المتخصصين من أهل الاندلس فى بناء الاسـوار واصلاحها ، وأكمل بناء الاسوار فى المدينة(٣٢)٣ •

(٢) أسوار قرطبـة :

سارع أهل قرطبة الى اصلاح أسوار مدينتهم دون أن يلتزموا بضريبة التعتيب ، فألزم والى المدينة سكان كل حى من أحيائها باصلاح الاسوار الواقعة فى حيهم والقيام بترميمها(٣٣) • ومن أهم الاسوار التى أقيمت فى قرطبة فى عصر على بن يوسف سور الشرقية ويقع الى الشمال الشرقى من قرطبة ، ويمتاز هذا السور بأبراجه المستطيلة الضخمة المتقاربة(٣٤) •

(٣) أسوار اشبيلية :

أمر على بن يوسف ببناء أسوار اشبيلية من جهة نهر الوادى الكبير ،

---

(٣٢) ابن عذارى ، البيان ، ج٤ ، ص٧٤ ، ميراندا ، على بن يوسـف وأعماله فى الاندلس ، ص ١٧٤ •

(٣٣) ابن عذارى ، نفسه ، ص ٧٤ ، ميراندا ، نفسه ، ص ١٧٤ •

(٣٤) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ •

فسارع أهلها ببناء أسوارها ، دون اعتراض ودون اسراف أيضـا[٣٥] . وربما بنى فى عهده أيضا سور استجه ومعظمه مبنى بالطابية ، وتقوم فيه أبراج مستطيلة قليلة البروز ؛ وكانت تنفتح بهذه الاسوار مداخل يحيط طرفى كل منها بابان متواجهان[٣٦] .

ثانيا : القلاع والحصـون :

اهتم المرابطون بتشييد القلاع والحصـون ، وكانت هذه القـلاع والحصون تبنى من الحجـر فى المناطق الوعرة حتى لا يستطيع الغـزاة الوصول اليها فى يسر وسـهولة ، وكان المرابطون يشحنون هذه القـلاع والحصون بالاقوات حتى تصمدللحصار مدة طويلة؛وكانوا يعهدون بالدفاع عنها لأحـد قواد لمتونة ، تعاونه قوة تتألف فى الغـالب من مائتى فارس وخمسمائة راجل[٣٧] . ومن أشهر هذه القلاع قلعة منتقوط فى مرسـية بالاندلس ، وقلاع تاسغيموت وبنى تاودا ، وآمر جو فى المغرب .

قلعة منتقـوط

تشرف قلعة منتقوط على بساتين مرسية وتسمى اليوم بالقصـير Elcastillejo وهى ترجع الى عصر على بن يوسف فى ضوء مقارنتها بالمسجد الجامع بتلمسان ؛ وهى تمثل المرحلة المتقدمة للفن الاندلسى فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر الميلادى[٣٨] .

---

(٣٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٧ ، ابن عذارى ، نفسه ، ص ٧٤ ، ميراندا ، نفسه ، ص ١٧٤ .

(٣٦) توريس بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ص ٣٦ .

(٣٧) البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت ، ص ١٢٨ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩٨ .

(٣٨) جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

قلعة تاسغيموت :

وهى من أعظم القلاع التى أسسها المرابطون فى المغرب لمدافعة الموحدين ، بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حامية مرابطية تتألف من مائتى فارس وخمسمائة راجل لحراسة هزرجة(٣٩) ، ويشير توريس بالباس الى أن عليا بن يوسف قد أسس هذه القلعة بتوجيهات من رجل أندلسى يسمى بالفلكى(٤٠) ، وهى اشارة الى أن فن العمارة المرابطى قد تأثر بفن العمارة الاندلسى • وتقع قلعة تاسغيموت على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقى مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرقى أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف يصعب على الغازين ارتقاؤها ، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها(٤١) • وقد استولى الموحدون على هذه القلعة عندما خرجت اليها سرية موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، تواطأت مع حامية القلعة وتمكنت من دخولها ليلا وقتلوا واليها المرابطى ومن معه من المرابطين ، وحمل الموحدون باب القلعة الحديدى الضخم وركب فيما بعد على باب الفخارين بتينملل(٤٢) •

قلعة بنى تاودا :

بنيت هذه القلعة بقطع حجرية غير مهذبة القطع ، ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية فى صفوف منتظمة ، ولم يتبق من هذه القلعة الا أجزاء يسيرة تقتصر على الاسوار ، وفى وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة(٤٣) •

---

(٣٩) البيذق ، نفسه ، ص ١٢٨ •

(٤٠) توريس بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ص ٣٦ •

(٤١) سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٥ ، ٧٦٦ ،

(٤٢) البيذق ، ص ١٢٨ ، سالم ، نفسه ، ص ٧٦٦ •

(٤٣) سالم ، المغرب الكبير ، ص٧٦٤ •

قلعة آمرجــو :

« تقوم قلعة آمرجو على مرتفع من الارض يشرف على وادى ورغة المتفرع من وادى سبو جنوبى قلعة بنى تاودا ، وهى من أروع أمثلة العمارة الحربية فى المغرب فى عصر المرابطين ، وفى بناء هذه القلعة تتداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الاندلسية التى تدفقت على المغرب الاسلامى فى عصر على بن يوسف والتـأثيرات الاسبانية المسيحية التى حملهـا النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى ؛ وتتجلى هذه التأثيرات المسيحية فى الابراج المستديرة الشكل وفى السور الامامى »(٤٤) .

(٤٤) سالم ، نفسه ، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

رابعـا : الحيـاة الأدبية والعلميـة

أ ــ الحيـاة الأدبية

١ ــ الشعر والنثر

٢ ــ الموشحات والأزجال

ب ــ الحياة العلمية

١ ــ علوم الفقه والحديث

٢ ــ علوم اللغـة

٣ ــ التاريخ والجغرافية

٤ ــ التصـوف

٥ ــ الطب

٦ ــ الفلك والتنجيم والفلسفة

أ ـ الحركة الأدبية فى عصر على بن يوسف

١ ـ الشعر والنثر :

عندما قامت دولة المرابطين ، لم يبلغ لديهم الاهتمام بالآداب والشعر وتشجيع الحركة الادبية ما بلغه الحال فى بلاط بنى عباد مثلا ومع ذلك فلم يكن الوضع فى عصر المرابطين أسوأ حالا مما كان فى بقية دول الطوائف ، ولعل الصورة القاتمة التى نتصورها عن الحركة الادبية فى عصر المرابطين وتأخرها عما كانت عليه فى عصر الطوائف ، وأخص بالذات مجال الشعر لعلها رد فعل للعصبية الاندلسية التى تعبر عنها رسالة الشقندى ففيها اسراف فى الثناء على ملوك الطوائف ومدى اهتمامهم بالشعر والمكانة السامية التى بلغها الشعراء فى عهدهم ، يقول الشقندى فى رسالته : « فما كان أعظم مباهاتهم الا قول العالم الفلانى عند الملك الفلانى والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى وليس منهم من بذل وسعه فى المكارم ونبهت الاملاح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم ، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية بنو عباد وبنو صمادح وبنو الافطس وبنو ذى النون وبنو هود ، كل منهم قد خلد فيه من الإمداح ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح »[١] . ويواصل الشقندى حديثه منوها بمآثر ملوك الطوائف ومدى اهتمامهم بالشعر والشعراء وعلى الاخص ببنى عباد الى أن يصل الى هدفه من وراء هذا المديح وهو ذم المرابطين وعلى رأسهم يوسف ابن تاشفين مؤسس الدولة فيقول : « وبالله الا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، ابسقوت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطى ؟ أم

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٨٨ ، ١٨١ .

بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الاندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا ، ولا رفعوا لملكه قدرا . وبعد ما ذكروه بوساطة المعتمد بن عباد ، فان المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز . ولما انصرف عن المعتمد الى حضرة ملكه كتب له المعتمد بن عباد رسالة فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء على يوسف بن تاشفين هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سودا وبيضا ، فقال له القارىء : لا يامولنا ، ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا ، لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لأن ليالى الحزن ليالى سود ، فقال له يوسف : والله جيد ، أكتب له فى جوابه له أن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده »(٢) .

هذه هى الصورة التى رسمها الشقندى لحال الشعر فى عصر المرابطين ، وهى صورة ظالمة للحكم على هذا العصر ، فقد ينطبق ذلك على عصر يوسف بن تاشفين لأنه كان عصر جهاد وكفاح ، الا أن هذا لا ينطبق على عصر على بن يوسف ، فقد ازدهر سوق الشعر فى عصره ، وأقبل الشعراء على الامراء يمدحون ويتملقون ، كما أن أبناء الجيل الثانى الذى تبع جيل يوسف بن تاشفين كان يستسيغ النثر والنظم وكان يطرب للحن والغناء ، وعادت مجالس الامراء عامرة بالشعر والمداحين ، ويعبر غرسية

---

(٢) المقرى ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .

جومث عن ازدهار الشعر فى عصر على بن يوسف بقوله : « ان الشعر الاندلسى لم يمت فى عصر المرابطين ، وكل ما حدث أنه كيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التى أحاطت به ، بيد أنه من الانصاف أن نقرر أن خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الاندلسية القاهرة ، وأصبحوا أقرب الى الاندلسية منهم الى الافارقة »(٣) .

فقد ازدحم بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بنخبة من أعظم شعراء الاندلس نذكر منهم الشاعر الكبير أبا العباس أحمد بن عبد الله القيسى المعروف بالاعمى التطيلى الذى نظم فى مدح على بن يوسف بقصيدة ؛ نذكر منها هذه الابيات :

يا على العلاء فى كل يوم وما أنت الملك بالسائس
يا ربيع البلاد يا غيمة العا لم من بين مؤتل ومـوال
يا قريع الأيام عن كل مجـد يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبى يعقوب ذكرى مكارم وفعال(٤)

ومنهم الشاعر أبو بكر بن سهل اليكى الذى خاطب أمير المسلمين بقوله :

على حمى الملك من ساسه وما أنت للملك بالسائس
من السوس أصبحت تخشى النفاق وقد جاءك النحس من باديس(٥)

---

(٣) غرسية جومث ، الشعر الاندلسى ، ترجمة د . حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) الاعمى التطيلى ، الديوان ، تحقيق احسان عباس ، بيرت ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٤ .

(٥) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

والشاعر محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوى وكان شاعرا مطبوعا، ومن قوله في مدح على بن يوسف :

أيا ملكا يسمو بسعد مساعد — وقدر على علو الكواكب صاعد
نظمت قصيدا فى علاك مضمنا — ثلاث قواف فى ثلاث قصايد
اذا فصلت أغنى عن البعض بعضها — وأن وصلت كانت ككعب وساعد (٦)

وكان الشعراء يقصدون ولى عهد الدولة الامير تاشفين بن على نذكر منهم الفقيه أبا بكر يحيى بن محمد بن يوسف ، وله فى انشاد تاشفين بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك قوله :

يا أكرم الناس عفوا عند مقدره — وأجمل الناس فى خلق وفى خلق
قد نافس العيد أعيادا لك اطردت — على الفتوح اطراد الخيل فى الطلق
فأهنأ بعيدك من أعياد ذى ظفر — له نظائر تأتى بعد فى نسق
لازال ملكك يعلو كعبة أبدا — هام الملوك كما تعلو على السوق (٧)

كما حظى الشعراء فى هذا العصر بمكانة عظيمة لدى أمراء الاسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الاقاليم المختلفة ومن هؤلاء الامير أبو اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تافلويت ، الذى كان قصره محط أنظار الشعراء ، نذكر منهم الشاعر الاندلسى الكبير ابن خفاجة الذى مدح ابن تافلويت بقوله :

فعن حب ابراهيم أعرب صاهلا — وفى نصر ابراهيم كر تشيعا

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .
(٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

امام يبـاهى الحمـد وشيا مذهبا   به وبرأس المجد تاجا مرصعـا
غشـيت به أندى من المـزن راحة   وأطيب أفيـاء وأمرع مرتعـا
طوى الجـود فى يمنـاه وربمـا   تدفق فى أرجائهـا فتدفعـا (8)

وكان الامير عبد الله بن مزدلى موضع اهتمام الشـعراء ، منهم ابن عطية الذى قال فيه

ضـاءت بنـور ايابك الايـام   واعتز تحت لوائك الاسـلام (9)

كذلك كان الشعراء يقصدون أباه ويمدحونه بقصائدهم ومن بينهم أبو عامر بن أرقم الذى مدحه بقوله :

أنت الامير الذى للمجـد همتـه   وللمسـالك يحميهـا وللـدول
لمـزدلى لـواء كان يرفعـه   مناسب كالضحا والشمس فى الحمل
يا أيها الملك المرهب صـولته.   وارتجى غوثه فى الحادث الجلل (10)

واذا كان أمير المسلمين والامراء كانوا موضع مديح الشعراء ، فقـد كان الفقهاء والقضاة وكبار علماء الدين محل احترام الشعراء لمكانتهم العالية التى كانوا يشغلونها فى دولة على بن يوسف ولذلك انتجعـوهم وقصدوهم ، فهذا هو الاعمى التطيلى يمدح القاضى الفقيه ابن حمدين قاضى الجماعة بقرطبة بقوله :

(8) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٤١ ، ابن خفاجة ، الديوان ، ص ٥٨ .
(9) ابن خاقان ، المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
(10) ابن خاقان ، نفسه ، ص ١٣٣ .

اليك ابن حمدين وان بعد المدى | وان غربت بى عنك احدى المغارب
صبابة ود لم يكدر جمامة | مرور الليالى وازدحام الشوائب
وذكرى عساها أن تكون مهزة | ترد على أعقابه كل شاغب
بأية ما كان الهوى متقاربا | وخطوى فيه ليس بالمتقارب(١١)

واذا كان مدح أمراء الدولة وفقهائها وقضاتها قد شاع فى هذا العصر، فقد شاع أيضا نقد المرابطين والتندر بهم ، وبفقهاء دولتهم ، وممن اشتهر بالهجاء والتندر فى هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكى ، الذى هجا المرابطين من ذلك قوله :

فى كل من ربط اللثام دناءة | ولو أنه يعلو على كيوان
ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا | من بطن زانية لظهر حصان
الملتمون لحمير لكنهم | وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطلبن مرابطا ذا عفة | وأطلب شعاع النار فى الغدران(١٢)

ومن هؤلاء الهجائين أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى وله فى فى هجاء فقهاء المرابطين قوله :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم | كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك | وقسمتمو الاموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب | وبأصبغ صبغت لكم فى العالم(١٣)

وقد ازدهر فى عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعنى به

---

(١١) الاعمى التطيلى ، الديوان ، ص ٤ ، ٥ .
(١٢) ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .
(١٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧١ .

شعر الطبيعة ، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين نبغوا فى هذا الفن الشعرى ، نذكر منهم ابن سارة الشنتريني وابن الزقاق وابن خفاجة البلنسى وعبد الحق بن عطية ، من ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف بركة :

مسجورة فى شكل ناظرة
من الأزهر أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهانى تقامصها
فى مائها ولها من عرمض لخف
تنافر الشط الا حين يحضرها
برد الشتاء فتستدلى وتنصرف
كأنها حين بيديها تصرفها
جيش النصارى على أكتافها الجحف(١٤)

وقول أبى الحسن على بن عطية بن الزقاق يصف فرسا أغر :

وأغر مصقول الأديم تخاله ... برقا اذا جمع العتاق رهان
يطأ الثرى متبخترا فكأنه ... من لحظ من فى متنه نشوان
فكأن بدر التم فوق سراته ... حسنا وبين جفونه كيوان(١٥)

وأبو جعفر بن سلام المعافرى (المتوفى فى عام ٥٥٠هـ) يصف الثلج :

ولم أر مثل الثلج فى حسن منظر
تقربه عين وتشنعه نفس

---

(١٤) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٧١ ؛ الشكعة ، الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥ ، ص٣١٠ .
(١٥) ابن دحية ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١٠٦ .

فنـــار بلا نــور يضيء له ســـــنا
وقطـــــر بلا مـاء يقلبـــه اللمس
ترى الارض منه فى مثـــال زجـاجة
كأن كئـوس المـاء يجمعـه كأس(١٦)

وأبو الحسن على بن عطية بن مطراف بن سلمة اللخمى يصف قوسا :

يارب مائســـة الأعطـــاف مخطفـه
اذا دنا نزعهـــا فالعيش منتـــزح
ظلت ترن فظـــل النزع يعطفهـــا
كمـــا ترنم نشـوان به قـــــرح
وقد تألق نصـــل السـهم مندفعـــا
عنهـا فقـل كوكب يرمى به قزح(١٧)

ولابن خفاجة قمة شـعراء الطبيعـة فى عصر على بن يوسف يصف الربيـــع :

أذن الغمـام بديمـــة وعقـار ... فأمزج لجينـا منهما بنضـار
وأربع على حكم الربيـع بأجـرع ... هزج النـدامى مفصح الأطيار
وكمـامة حدر الصباح قناعهـــا ... عن صفحة تنـدى من الأزهـار
فى أبطـح رضعت ثغـور أقـاحة ... أخلاف كل غمـامة مــدرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا ... دور النـدى ودارهم النــوار

---

(١٦) ابن عبد الملك المراكشى ، (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الانصارى الاوس المراكشى) ، الذيل والتكملة لكتابى الموصـول والصلة ، السـفر الخامس ، القسم الاول ، تحقيق احسان عباس ، طبعة بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

١٧) ابن عبد الملك ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .

وقد ارتــدى غصن النقى وتقلدت حلى الحباب ســوالف الأنهــار
فحللت حيث الماء صفحة ضــاحك جذل وحيث الشط بدء عـــذار
والروح تنفض بكره لمم الربــا والطل ينضح أوجه الأشجار (١٨)

وهكذا تألقت سماء الشعر والشــعراء فى هذا العصر ، الذى أصبح يضارع عصر ملوك الطوائف فى الاندلس ، فقد وجد الشعراء فى بلاط أمير المسلمين وفى قصور أمراء وفقهاء وعمال الدولة المرابطية ما عوضهم عما فقدوه بعد سقوط دويلات الطوائف ، بل ان بعض أمراء المرابطين قد فاق فى كرمه ملوك الطوائف كالامير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين الذى كان قصره كعبة يقصدها شعراء المغرب والاندلس فى هذا العصر ، وهكذا نستطيع أن نرد على بعض الآراء التى نسبت الى دوزى وتزعم بأن الشعر قد انحط انحطاطا كبيرا فى عصر المرابطين . والواقع أن عصر على بن يوسف كان امتدادا لعصر الطوائف لإهتمام الامير بالشــعر وتشجيعه للشعراء ، وليس هذا غريبــا فقد تربى على بن يوســف وتلقى علومه ودروسه فى الاندلس ، فكانت دولته أندلسية أكثر منها افريقية مغربية .

أما فيما يتعلق بالنثر ، فقد كان مرتبطا بالشعر ارتباطا وثيقا ، اذ كان الشعراء يجيدون الكتابة نثرا كما كانوا يجيدون النظم شعرا ، ويتمثــل النثر فى الرسائل الديوانية وفى الرسائل الاخوانية ، وفى الرسائل العلمية ذات الصبغة الادبيــة ، ويتميز هذا النــوع من الكتابة بالاسراف فى اســتخدام المحسنات البديعيــة كالسجع والجنــاس (١٩) ، ومن أشهر

---

(١٨) ابن خفاجة ، الديوان ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، د. سعد اسماعيل شلبى دراسات أدبية فى الشعر الاندلسى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٧ .
(١٩) سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

كتاب المرابطين ابن خاقان ، وابن عبدون ، وابن الجد ، وابن الصيرفى ، وابن أبى الخصال ، وابن الازرق القرطبى ، والوقسى والشلطيشى ،

ومن أمثلة الرسائل الديوانية رسالة من انشاء عبد المجيد بن عبدون نيابة عن الامير سير بن أبى بكر اللتمونى ، يخبر فيها أمير المسلمين على ابن يوسف بفتح مدينة شنترين ننقل هنا بعض سطورها : « وهذه القلعة — أى شنترين — التى انتهينا الى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمدا العيون ، وأخصبها بلدا فى السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجدب ، ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها تحت الثرى راسخة ، تباهى بأزهارها نجوم السما ، وتناجى بأسرارها أذن الجوزا ، مواقع القطار فى سواها مغبرة مربدة ، وهى زاهرة تشف أضواؤها ، وكانت فى الزمن الغابر ، أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مددا ، فأبت على طاعته كل الابا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ، ومردت مرود على الزبا ، فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها »(٢٠) .

ومن أمثلة الرسائل الاخوانية ، رسالة كتبها عبد المجيد بن عبدون الى أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال يخطب مودته يقول فيها : « وأنا ما قصدت فيما خطبت به اليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وانما سلكت سبيل الاقتداء ، واتبعت دليل الاهتداء ، وأردت أن أستنير بأضوائك وأستنير من سمائك ، نجوما تهدينى فى غسق الظلام ، أورجو ما تعدينى على مسترق سمع الكلام ، فان سمح عمادى بالجواب ورجعه غالبت — بما حصل منه لدى ووصل الى — الحمام فى سجعه ، والانصار فى حسانها ،

---

(٢٠) المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

والاعصـار فى نيسانها ، وطيئا فى وليدها وحبيبها ، وسـعدا فى خالدها وشبيبها »[٢١] .

٢ ـ الموشـحات والأزجـال

أولا ـ الموشـحات :

يقول ابن خلدون فى نشأة الموشحات : « وأما أهل الاندلس ، فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسـماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافى تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة وأكثر ما تنتهى عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت عـلى أغصان عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد ، وتجاروا فى ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقة »[٢٢] . وقد تقـدم فن الموشحات وشاع شيوعا عظيما فى عصر المرابطين ، فنبغ من الوشـاحين نخبة ممتازة نذكر منهم يحيى بن بقى القرطبى ومن موشحاته فى الحب قـوله :

عبث الشـوق بقلبى فاشتكى　　　ألم الوجــد فلبت أدمعى

أيها النـاس فـؤادى شـغف
وهو من بغى الهـــوى لا ينصف
كـم أداريـه ودمـى يكـف

---

(٢١) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٦ .

أيها الشادن من علمكما بسهام اللحظ قتل السبع

بدرتم تحت ليل أغطش

طالع فى غصن بمان منتشى

أهيف القد بخد أرقشى

ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع

أى ريم رمته فاجتنبا

وانثنى يهتز من سكر الصبا

كقضيب هزه ريح الصبا

قلت : هب لى يا حبيبى وصلكا وأطرح أسباب هجرى ودع(٢٣)

ومن أشهر وشاحى هذا العصر أيضا الاعمى التطيلى وقد ذكر أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى أحد المجالس فى اشبيلية وقد استحضر كل واحد منهم موشحته التى ألفها وتأنق فيها ، فتقدم الاعمى التطيلى لانشاد موشحته وفيها يقول :

ضاحك عن جمان سافر عن در

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

وما كاد ينتهى منها حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته اجلالا للتطيلى واعجابا بموشحته(٢٤) .

---

(٢٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ ، انظر ايضا : جودت الركابى فى الادب الاندلسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٣٤٠ ، سالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢٤) المقرى ، أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ضبطه وحققه وعلق عليه =

ومن موشحاته قوله :

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار ما اجتمعا الا لأمر كبـــار
بئس لعمــــرى ما أراد العــذول عمر قصــير وعنـــاء طويل
يا زفـــرات نطقت عن غليــــــل ويا دموع قدأعانت مسيل[٢٥]

ومن أعظم وشـــاحى هذا العصر الأديب الفيلســوف ابن باجة ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخـدومه ابن تيفلويت صـــاحب سرقسطة فألقى موشحته التى فيها يقول :

جرر الذيـــل أيمـــا جر وصــل الشــكر منك بالشــكر

فطرب ابن تيفلويت لذلك ، فلما ختمها ابن باجة بقوله :

عقـــد الله راية النصـــر لأمير العـــــلاء أبى بـــــكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، وكان هو المقصود بذلك المديح صاح وأطرباه وشق ثيـــابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة بأن لا يمشى ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف ابن باجة سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليـــه الى داره[٢٦] .

=
مصطفى السقا وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، ثلاثة أجـــزاء . القاهرة ، ١٩٣٩ ، ج ٢ ص ٢٠٨ ، وانظر ايضا ، الشكعة ، الادب الاندلسى ، ص ٤٠٩ ، ص٤١٠ .

(٢٥) الاعمى التطيلى ، الديوان ، ص ٢٦١ .

(٢٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٧ ، المقـرى ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ثانيا ــ الزجـــل :

يقول ابن خلدون فى نشأة الزجل : « انه لما شاع فن التوشيح فى أهل الاندلس وأخذ به الجمهـور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظمـوا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزوا فيها اعرابا واستحدثوه فنـا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة(٢٧) ، وأول من ابتكر الأزجال امام الزجالين فى الاندلس أبو بكر بن قزمان القرطبى المتـوفى فى عام ٥٥٥هـ ، وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان فى المشرق والمغرب على السواء وجمعت فى ديوان خاص(٢٨) ، نشره دون اميليو جرثيه جومث ؛ ومن أزجال ابن قزمان فى هزيمة :

والكتف يتعلـق والقحف يقســـــم
وشـــينوران راقد فى بـرك من دم
قد حط فيه السـيف حطـــا لا يفهم
وجاءالغبار من فوق يحملنشـاره(٢٩)

ومن أزجال ابن قزمان فى مدح القاضى أحمد بن الحاج قوله :

وصـل المظلوم لحـق وانتصف غنى ومســــكين
يحضر الانـكار والاقـــرار ويقـع الفصـل فالحين

---

(٢٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤١ ، وانظر أيضا سالم ، دائرة معارف الشعب ، ع ٦٤ ، ١٩٥٩م ، ص ٢٠٤ .
(٢٨) ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ١ ص ١٦٧ .
(٢٩) نفس المصدر ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

اجتمـع فيـه الثـلاثة الورع والعـلم والدين
فيزول الحـق اذا زال ويـدوم الحـق اذا دام
وترى طالب ومطـلوب لس تـرى زوارجـلاس
الا أن كانت ضرورة كلمتـين فـلا بـاس
مرات يا قاضى الجمـاعة جزاك الله خير عن النـاس
ان مذ كنت ات حـاكم عرفت شروط الاحـكام
أى نهار نراك فى دارك وات قد جلست للنـاس
والخصـام يعطى ويمنع والزحام ومر الانفـاس
وأنت تحـكم فى المنـاكح والغصب والدين والاحباس
والمواريث والجنـايات والنظر فأموال الأيتـام (٣٠)

وخلف ابن قزمان فى صناعة الزجل أبو عبد الله بن الحاج المعروف بمد غليس ، ومن أجمل أزجاله قوله فى وصف الطبيعة :

ثـلاث أشـيا فالبسـاتين
لس تجـد فى كـل موضـع
النسـيم والخضر والطـير
شـم واتنزه واسـمع
قـم ترى النسـيم يولول
والطيـور عليـه تغـرد
والثمـار تنشر جواهـر
فى بسـاط من الزمـرد

---

(٣٠) عبد العزيز الاهوانى ، الزجل فى الاندلس الطبعة الاولى ، القـاهرة ١٩٥٧ ، ص ص٢٠١ سالم قرطبة ، ج٢ ، ص١٩١ ، ١٩٢ ، الشكعة ، الادب الاندسى ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

وبوسـط المـج الأخضـر
سـقى كالسـيف المجـرد
شـبهت بالسـيف لمـا
شـفت الغـدير مـدرع
وردا ذا دق يـنزل
وشـعاع الشمس يضـرب
فترى الواحـد يفضض
وترى الآخـر يذهب
والنبـات يشرب ويسـكر
والغصـون ترقص وتطـرب
وتـريد تجى اليـنا
ثم تسـتحى وترجـع
وجوار بحـل حـور العـين
فى ريـاض تشـبه لجنـا.(٣١)

وفى عصر ابن قزمان ظهر بشرق الاندلس الزجال مخلف الاسود ومن محاسن أزجاله قوله :

قد كنت مشبوب وأختشيت الشيب
وردنى ذا العشب لأمـر صعب
يقول فيه حين تنظر الخد الشريف
البهى تنتهى فى الحمرة الى ما تنتهى
يا طالب الكيميـاء فى عينى هى
تنظر بهـا الفضة ترجع ذهب(٣٢)

---

(٣١) ابن سعيد المغربى ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، سـالم ، قرطبة ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، الشكعة ، الادب الاندلسى ، ص ٤٤٥ ، ٤٥٦ .
(٣٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٢ .

(ب) الحيـــاة العلميـــة

(١) علوم الفقـــه والحديث :

ظهرت فى عصر على بن يوسف جمهـرة كبـير من أعلام المحدثين والفقهاء ، نذكر منهم : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠ ــ ٥٢٠هـ) قاضى الجماعة بقرطبة ، كان من أعلام الفقه المالكى فى الاندلس وقد برع فى علم الفرائض والاصول ، ومن أشهر تواليفه كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليـل ، واختصـار المبسوطة ، واختصـار مشتمل الآثار للطحاوى(٣٣) • والقاضى الفقيه أبو على الصـدفى وأصله من مدينـة سرقسطة ، حيث تلقى علومه الدينية فى الاندلس ، ثم رحل الى المشرق فى سنة ٤٨٠هـ لينهل من علومه ومعارفه ، ثم عاد الى الاندلس سنة ٤٩٠هـ واستقر بمرسية حيث توافد عليه طلاب العلم من مختلف أنحاء الاندلس: « وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسـماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين منهم والمجرحين كما كان حافظا لمصنفات الحديث ، قائما عليها ، ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخارى فى سفر ، وصحيح مسلم فى سفر »(٣٤) • وقد شارك فى موقعة كتندة واستشهد فى ربيع الاول سنة ٥١٤هـ ، كذلك برز فى ميـدان الفقه والحديث فى ذلك العصر القاضى الفقيه أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٢هـ) أعظم فقهاء الاندلس فى عصر المرابطين وكان عالما حافظا تولى قضاء اشبيلية زمنا ثم انقطـع للتـدريس والبحث والتصنيف ومن أشهر كتبـه كتـاب « العـواصم

---

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، الضبى ، بغيـة الملتمس ، ص ٥١ ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٣ •

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٤٤ ــ ١٤٦ •

والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » فى مدح الرســول ، وكتــاب « قانون التأويل » وكتاب « التلخيص فى النحو وكتاب « ترتيب الرحلة »، وكتــاب « القبس فى شرح موطأ مالك » وبلغت مؤلفــاته نحو الاربعين كتابا[٣٥] . ومن أشهر فقهائهم القاضى أبو الفضل عيــاض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى المعروف بالقاضى عياض ، ولى القضاء وهو بعد شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر فكان متمسكا بتطبيق الاحكام والحدود ثم تولى قضاء غرناطة فى سنة ٥٣٠هـ الى أن صرف عنه وكان من كبــار علماء المذهب المالكى وله كتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك[٣٦] . ومنهم أيضا أبو الحسن على بن عبــد الرحمن المعروف بابن أبى حقون ، وله مختصر فى أصول الفقه سماه « بالمقتضب الاشفى من أصول المستصفى »[٣٧] . ومنهم أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمى ، ويعرف بالرشاطى ، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ وله كتاب سماه « اقتباس الانوار والتماس الازهار فى أنساب الصحابة ورواه الآثار »[٣٨] ، ومنهم أيضا أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الانصــارى ، الذى صنف كتابا فى الجمع بين صحيحى البخارى ومسلم[٣٩]،وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة بن محمد الخزرجى وقد ألف كتــابا

---

(٣٥) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٩٠ ، ٥٩١ ، عنان،عصر المرابطين ، ص ٤٥٦ .

(٣٦) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ابن خلكــان ، وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٤٦٩ ، ابن خاقان ، قلائد العقيــان ، ص ٢٢٢ ـ ٢٣٦ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٣٧) ابن الابار ، المعجم ، ص ٣٠٠ .

(٣٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣٩) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

فى أحكام الرسول عليه الصلاة والسلام سماه « آفاق الشموس وأعلاق النفوس » ، وكتابا آخر سماه « مقـامع الصلبان ومراتع رياض أهل الايمان [٤٠] ، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطيـة المحاربى وله كتاب يسمى « بالوجيز فى التفسير » [٤١] ؛ كذلك برز فى عصر على بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد الانصارى المعروف بابن أبى أحد عشر [٤٢] ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان [٤٣] ، وأبو الوليد يوسف بن عبد العـزيز بن يوسف بن عمر بن وفيرة اللخمى ويعرف بابن الدباغ [٤٤] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن ابراهيم التجيبى المعروف بابن الحاج قاضى الجماعة بقرطبة [٤٥] .

(٢) علوم اللغـة :

نبغ فى عصر على بن يوسف عدد كبير من العلمـاء المبرزين فى النحو وعلوم اللغة نذكر منهم : أبا محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى النحوى (ت ٥٢١هـ) وكان حجة فى علمه عالما متبحـرا فى النحو وعلوم اللغة ، وكان الناس يجتمعون اليه ويقرأون عليه ، ومن تواليفه كتـاب « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وكتاب « التنبيه على الاسباب الموجبة لاختلاف الامة » ، وكتاب آخر فى شرح الموطأ وبالاضافة الى ذلك كان شاعرا مطبوعا فمن نظمه قوله :

---

(٤٠) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ص ٨٥ .

(٤١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص٣ ، النباهى المالقى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٠٩ .

(٤٢) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٤٤) ابن بشكوال ، نفسه ج ٢ ، ص ٦٨٢ ، ٦٨٣ .

(٤٥) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

أخو العلم حى خالد بعد موته
وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماشى على الثرى
يظن من الاحياء وهو عديم[٤٦]

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم فى عصر على بن يوسف أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الانصارى النحوى ، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة ، متقدما فى علم القراءات[٤٧] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله النحوى المعروف بابن اللجاش ، وكان عالما متبحرا فى النحو[٤٨] ، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميرى (ت ٥٥٥ هـ) ، ومن تواليفه كتاب « نظم القرطين وضم أشعار السقطين » ، جمع فيه أشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبى على البغدادى ، كما أن له كتاب « التوطئة فى العربية » ، وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وله فى شرح أبيات جمل للزجاجى كتاب سماه « شفاء الصدور » ، وكتاب آخر اختصره منه سماه « المختزل » ، وله أيضا كتاب « الفوائد والفرائد »[٤٩] ، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان الفهرى وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض ، وله أرجوزة مزدوجة فى قراءة نافع ، وثانية فى قراءة ابن كثير ، ومن تواليفه كتاب « فوائد الافصاح عن شواهد الايضاح »[٥٠] .

---

(٤٦) ابن بشكوال الصلة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٦٩ .
(٤٧) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
(٤٨) ابن بشكوال ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ .
(٤٩) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
(٥٠) ابن الابار ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٣ ـ التاريخ والجغرافية :

برز فى عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر فى مقدمتهم : أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الانصارى الغرناطى المعروف بابن الصيرفى كان من أعلام عصر على بن يوسف فى البلاغة والادب والتاريخ ، كتب بغرناطة عن الامير تاشفين بن على بن يوسف أيام أن كان واليا على الاندلس(٥١) وألف فى تاريخ الاندلس فى العصر المرابطى كتابا سماه « الانوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » ، وكتابا آخر سماه « قصص الانباء وسياسة الرؤساء » وهما مؤلفان لم يصلا الينا مع الاسف ، ولم يصل الينا من مؤلفه الاول سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للاندلس سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م)(٥٢) وقد توفى ابن الصيرفى بغرناطة فى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م)(٥٣) . وهناك أيضا أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢هـ/١١٤٨م) صاحب كتاب « الزخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجرى (١١م) وهى الفترة المزدهرة التى جمعت بين عصرى الخلافة الاموية وملوك الطوائف فى الاندلس ، وقد انتهى ابن بسام من كتابة تلك الموسوعة فى عام ٥٠٣هـ (١١١٠م)(٥٤) ، وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن اسماعيل الصدفى ، ويعرف بابن علقمة،وهو من أهل مدينة بلنسية وقد ألف تاريخا فى تغلب نصارى الاندلس على بلنسية سماه « البيان الواضح فى الملم الفادح » ، وقد توفى ابن علقمة

---

(٥١) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ص ١٨٨٢ .
(٥٢) عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
(٥٣) ابن الزبير ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٥٤) عنان ، ، عصر المرابطين ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

فى عام ٥٠٩هـ (١١١٤م)[٥٥] وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد بن أصبغ ، وله كتاب يسمى « عيون الامامة ونواظر السياسة »[٥٦] ، وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوى المعروف بالسالمى،وقد ألف كتابا فى التاريخ سماه « درر القلائد وغرر الفوائد »[٥٧] ، وأبو نصر الفتح بن محمد القيسى الاشبيلى ، والمعروف بالفتح بن خاقان ؛ ومن تواليفه كتاب « قلائد العقيان فى محاسن الاعيان » ، وكتاب « مطمع الانفس ومسرح التأنس » وكتاب « رواية المحاسن وغاية المحاسن »[٥٨] ، وأبو القاسم خلف بن عبدالملك ويعرف بابن بشكوال وكان من أعلام المؤرخين فى عصر المرابطين ، وأشهر تواليفه كتابه المعروف بالصلة ، الذى جعله تتمة لكتاب ابن الفرضى فى تاريخ علماء الاندلس ، ومن تواليفه أيضا كتاب « الغوامض والمبهمات » فى اثنى عشر جزءا ، وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » فى عشرين جزءا ؛ وكتاب « المحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الافاضل » فى أحد وعشرين جزءا ، وقد توفى ابن بشكوال فى رمضان ٥٧٨هـ[٥٩] .

وفى مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافى الاندلس والمغرب فى عصر على بن يوسف نذكر منهم : الشريف أبو عبد الله محمد الادريسى ، صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد ألفه الأدريسى لرجار الثانى صاحب صقلية ، ولذا يعرف هذا الكتاب فى كتب

---

(٥٥) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .
(٥٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(٥٧) ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .
(٥٨) ابن الابار ، المعجم ، ص ٣١٣ .
(٥٩) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧ .

الجغـــرافية العـــربية باســـم الكتـــــاب الرجـــــــارى Libro Rogeriano وقد نشر دوزى ودى غـــويه الجـــزء الخـــاص بافريقية والاندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فى ليدن سنة ١٨٦٦م بعنوان :

Description de l'ofrique et de l'espagne (٦٠)

ومن جغرافى عصر على بن يوسف أيضـا عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى صاحب كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » ، وقد اتخذ بنـــو سعيد كتابه أساسا لكتابهم المعروف باسم « المغرب فى حلى المغـــرب » ويقول الدكتور حسين مؤنس عن كتاب المسهب : « يندر أن نجد مؤلفـــا أندلسيا كتب بعد الحجارى دون أن يشير اليه مما يدل على أن كتـــابه كان مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الاندلسية شيئا فريدا تميز به عمن سواه ، مما جعل الرجوع اليه والاخذ به عنه ضرورة لا معدى عنها لكل من تعرض للتأليف فى أدب الاندلس وجغرافيته وتاريخه »[٦١] .

٤ ــ التصـــــوف :

ظهرت فى عصر على بن يوسف حركة دينية صوفية أمامهـــا ورائدها شيخ الصوفية فى الاندلس أبو العباس أحمـــد بن محمـــد بن موسى بن عطا الله الصنهاجى الاندلسى المريى المعروف بابن العريف ؛ ولد فى عـــام ٤٨١هـ ، ونشأ نشأة دينية وأقبل على دراسة الفقه وعلوم الدين ، واشتهر ابن العريف بالزهد والعبادة ، ومن تواليفه كتاب « محاسن المجـــالس »

---

(٦٠) سالم ، المغرب الكبير ، ص١١٢ ، ١١٣ .

(٦١) مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون لآ الاندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلدان ٧ ، ٨ ١٩٥٩/١٩٦٠ ، ص ٣٤٣ .

ضمنه طريقته الصوفية الجديدة ، التى كان جوهرها الزهد فى كل شيء ما عدا الله[٦٢] .

ولقد بعد صيته فى الزهد والعبادة وكثر أتباعه على طريقته الصوفية حتى نمى ذلك الى أمير المسلمين على بن يوسف ، ويقال أن فقهاء المرية اتفقوا على انكار مذاهبه ، فسعوا به الى على بن يوسف وحذره من جانبه ، فأمر باشخاصه اليه من المرية[٦٣] مع أبى بكر محمد بن الحسين الميورقى من غرناطة ، وأبى الحكم بن برجان من اشبيلية : « وكانوا نمطا واحدا فى الانتحال والاتصاف بصلاحية الحال ، ولأبى الحكم الشفوف عليهم حتى قيل فيهم غزالى الاندلس »[٦٤] . فسيروا جميعا الى مراكش ، ولم يقم بها ابن العريف الا قليلا ، حيث لم يلبث أن توفى ، ودفن فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، واحتفل الناس بجنازته ، وندم على بن يوسف على ما كان منه فى جانبه[٦٥] .

وكان أبو العباس بن العريف ينظم الشعر الذى يحمل السمات الصوفية الشفافة ومن ذلك قوله :

شدوا المطى وقد نالوا المنى بمنى	وكلهم بأليم الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندى روائحها	طيبا بما طاب ذاك الوفد اشباحا

---

(٦٢) سالم ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٦٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٨١ ، ابن الابار ، المعجم ، ص١٥ و١٦ ، سالم المرجع السابق ، ص ١٨٤ .
(٦٤) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
(٦٥) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٦ ، ١٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، سالم ، المرية ، ص ١٨٤ .

نسيم قبر النبى المصـــطفى لهم   روح اذا شربوا من ذكره راحـــا
يا واصلين الى المختـــار من مضر   زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحـا
انا أقمنـــا عــلى عذر وعن قــدر   ومن أقام على عذر كمن راحا(٦٦)

وقـــوله :

من لم يشـــافه عالما بأصـوله   فيقينه فى المشـكلات ظنـون
من أنـكر الأشــياء دون تيقن   وتثبت فمعـاند مفتـون(٦٧)

ومن أقطاب التصوف فى عصر على بن يوسف أبو العبـاس أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبى الزاهد ، ويعرف بابن الاقليشى ، وأصـل أبيه من اقليش ، ثم سكن دانية وبها ولد أبو العباس هذا ونشأ ، ثم تلقى العلم على شيوخ العصر فى بلنسية ثم فى اشبيلية فالمرية ، فبرز فى علوم الحديث واللغة والادب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوس حيث أخذ عنه العربية والآداب ، وسمع الحديث من صهره أبى الحسن طارق ابن يعيش ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى محمد القلنى ، وأبى الوليـد ابن الدباغ ، كما لقى بالمرية أبا القاسم بن ورد ، وأبا محمد عبد الحق ابن عطية ، وأبا العباس بن العريف(٦٨) .

رحل ابن الاقليشى الى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فأدى فريضة الحج ، ثم كر راجعا الى بلاده ، ولكنه توفى أثناء رحلة العودة ، ودفن بمدينة قوص فى صعيد مصر سنة ٥٥١هـ(٦٩) . وكان ابن الاقليشى

---

(٦٦) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٦٧) سالم ، المرية ، ص ١٨٤ .
(٦٨) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٦٠ .
(٦٩) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٦٠ ــ ٦٢ ، وانظر أيضا ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٦٧ .

عالما ، متصوفا ، شاعرا ، مجردا ، مقبلا على العلم والعبادة ، ومن تواليفه كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » ، وكتاب « ضياء الأولياء » ومن نظمه فى الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف ... له عن طريق الحق قلب مخالف
قديماً عصى عمدا وجهلا وغرة ... ولم ينهه قلب من الله خائف
تزيد سنوه وهو يزداد ضله ... فها هو فى ليل الضلالة عاكف(٧٠)

ومن متصوفى الاندلس الذين لعبوا دورا سياسيا خطيرا فى تزعم ثورة المريدين أحمد بن قسى زعيم المريدين فى شلب بغرب الاندلس ، وكان من تلاميذ ابن العريف وعليه تلقى طريقته ، وقد عكف على مزاولة رسوم المريدين فى غرب الاندلس والتف حوله الانصار والاتباع ، كان يلتقى بهم فى رباط أقامه فى شلب ، الى أن زاع أمره وانتشرت فى الآفاق شهرته ، وقد استغل وفاة على بن يوسف واشتغال تاشفين بصراعه مع عبد المؤمن ابن على وأعلن الثورة على المرابطين فى غرب الاندلس(٧١) .

٥ ـ الطب :

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية فىعصر على بن يوسف تقدما تشهد به الاسماء الأعلام التى تألقت فى حضارة الاندلس والمغرب وأشهرها ابن زهر Avenzoar وهو اسم طبيب أندلسى من أعظم أطباء الاسلام ممن تركوا بصماتهم واضحة فى تاريخ الحضارة الانسانية جمعاء ، وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر الى أسرة أندلسية لمعت فى ميدان

---

(٧٠) ابن الابار ، المصدر السابق ، ص ٦١ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٦٧ ، ص ٤٦٨ .

(٧١) راجع ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ـ ٢٠٠

الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية وعميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الايادى الاشبيلى ، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين فى علم الحديث باشبيلية ، وقد رحل أبو مروان بن زهر فى شبابه الى المشرق وسمع فى القيروان ومصر ، وعنى بدراسة الطب فى المشرق على يد أقطابه حتى نبغ فيه ؛ ثم لم يلبث أن عاد الى الاندلس واستقر بمدينة دانية ، حيث أكرمه والى المدينة وأمره بالاقامة عنده ، فمكث فى دانية ، حيث ذاعت شهرته ، وطار ذكره الى مختلف أقطار الاندلس ، وقد انتقل أبو مروان بن زهر فى أخريات أيامه من دانية الى اشبيلية ، ولم يزل بها الى أن توفى(٧٢) وقد خلفه من بعده ولده أبو العلاء زهر بن عبد الملك وقد ورث عن أبيه تفوقه ونبوغه فى الطب ، وحظى بمكانة عظيمة لدى حكومة المرابطين ومن تواليفه كتاب « الخواص » وكتاب « الادوية المفردة » ، وكتاب « الايضاح بشواهد الافتضاح » فى الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق فى كتاب المدخل الى الطب، وكتاب « النكت الطبية » ، وكتاب « الطرر » ، ومقالة فى تركيب الادوية ، وقد توفى زهر فى قرطبة سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م)، ثم حمل ودفن فى اشبيلية حيث مسقط رأس أسرته،وقد أمر أمير المسلمين على بن يوسف بعد وفاة زهر هذا بجمع كل مؤلفاته ، فجمعت بمراكش وبسائر بلاد العدوة والاندلس ؛ وانتسخت فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٦هـ ، وكان زهر فضلا عن مقدرته الطبية الفائقة أديبا شاعرا ، ومن نظمه قوله فى التغزل :

---

(٧٢) ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى) : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق د. نزار رضا ، جزءان فى مجلد ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ، ص ٥١٧ ، وانظر ايضا عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٧٣ .

يـا من كلفت به وذلت عـزتى لغرامه وهو العـزيز القـاهر
رمت التصبر عنـدما ألقى الجفـا ويقول ذاك الحسـن مالك ناصر
ما الجـاه الا جاه من ملك القـوى واطاعة قلب عزيز قـادر (٧٣)

وقد خلفه ولده أبو مروان عبد الملك بن زاهر المعروف فى الغرب باسم AVEN ZOOR ، وقد برع فى الطب براعة أبيه وجده،وذاع ذكره فى المغرب والاندلس ، ولم يكن فى زمانه من يماثله أو ينافسه فى مجـال الطب ، وكانت له الحظوة لدى الامراء المرابطين ، فقد صنف للامير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين كتابا سماه « الاقتصاد فى صـلاح الاجساد » ، ومن تواليفه أيضا كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » ، وقد ألفه للقاضى الفقيه أبو الوليد بن رشد ، وهذا الكتاب يعد من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، وله أيضا كتاب « الاغذيه » ومقـالة فى علل الكلى ، ورسالة كتب بها الى بعض أطباء اشبيلية فى علتى البرص والبهق ، وقد وشى بعبد الملك هذا الى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاستدعاه الى مراكش ، وسجن بها مدة ؛ ثم أفرج عنه ، وعاد الى بـلده اشبيلية ، حيث مكث بها الى أن توفى فى عام ٥٥٧هـ ، وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الاشهر أبو بكر بن زهر ، الذى حظى بمكانة عظيمة عند خلفـاء الموحدين (٧٤) .

ومن الاطباء الذين برعوا فى عصر على بن يوسف : أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوى وله فى الطب كتاب سماه « الشفا » (٧٥) ، وأبو

(٧٣) ابن الابـار ، التكملة ، ج ١ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٥١٧ ، ٥١٨ ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٧٣ .
(٧٤) ابن بى أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٥١٩ ـ ٥٢١ ، ابن عبـد الملك المراكشى ، الذيـل والتكملة ، ص ١٨ ، ١٩ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٧٣ .
(٧٥) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن ينق ، وكان قد لازم أبا العلاء بن زهر باشبيلية وأخذ عنه فى الطب والادب(٧٦) ، وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن جودى السعدى(٧٧) ، وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن جوشن الازدى(٧٨) وغيرهم •

ومما يؤكد اهتمام المرابطين بالطب ، وجود منصب يعـرف برئيس الصناعة الطبية(٧٩) ، وهو منصب هام كان يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة ، اذ كان فيما يبدو المسئول الأول أمام الامير عن صناعة الطب وما يتعلق بها من الادوية والعقاقير •

٦ ـ الفلك والتنجيم والفلسفة :

يعتبر علم الفلك من جملة العلوم التى تستهوى النفس البشرية ، وتثير فيها غريزة حب الاستطلاع للغموض الذى يتغلغله وما يرتبط بذلك ، من محاولات استكناه غوامض الكون والطبيعة ، وقد كان الخلفاء وسلاطين الاسلام فى العصور الوسطى لا يقدمون على خوض غمار الحروب أو حتى على الشروع فى تأسيس مدينة دون الرجوع الى آراء المنجمين ، لتعيين الاوقات السعيدة ، التى تتحقق فيها الانتصارات أو البنيـان طبقـا لحسابات علم التنجيم ، كما كان علماء الدين يولون دراسة الفلك عنـاية خاصة لاسيما علم الميقات منه لتعيين مواقيت الصلاة والصيام والحج •

وكان للتنجيم منزلة رفيعة فى عهد المرابطين ، اذ كان رئيس مجلس

---

(٧٦) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٦٨ •
(٧٧) ابن الابار ، المصدر السابق، ص ٢٩٠ •
(٧٨) ابن الابار ، التكملة ، ج ٢ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ •
(٧٩) ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٤ •

علماء المرابطين فى عصر على بن يوسف الوزير مالك بن وهيب الاشبيلى ، وكان مالك هذا حزاء ينظر فى النجوم ، وعند ظهور ابن تومرت الملقب بمهـــدى الموحـــدين فى المغـرب ، حـذر مالك بن وهب أمـير المسلمين من ابن تومـرت ، طبقـا لعـلامات ونتـائج قالهـا المنجمون والكهان ، فذكر لأمير المسلمين أن الكهان يتحدثون عن ظهور رجل فى المغرب يكون لهذا الرجل الملك على المغرب ، وقال مالك لأمير المسلمين احتفظ بالدولة من ابن تومرت ، فلعله هو ذلك الرجل الذى أشار الكهان بأن ملك المغرب سيكون له(٨٠) .

كما نبغ فى عصر على بن يوسف عدد من علماء الفلك والمتخصصين فى التنجيم أمثال : أبو العباس أحمد بن يوسف التنوخى الذى يعرف بابن الكماد ومن تواليفه كتاب « القبس والمستنبط على أرصاد أبى اسـحاق الطليطلى المعروفة بالزرقالة(٨١) ، وأبو الحسـن على بن خلف الاموى ومن تواليفه كتاب « اللؤلؤ المنظوم فى معرفة الاوقات بالنجوم »(٨٢) ، وأبو الحسن موفق مولى يوسف بن ابراهيم المعروف بالمسـنالى ومن تواليفه كتاب « الاهتداء بمصـابيح السماء »(٨٣) ، وغيرهم من الفلكيين والمنجمين .

أما عن الفلسفة ، فقد تألق نجمها فى سماء دولة المرابطين ويكفى هذا العصر فخرا ظهور المفكر العظيم والفيلسوف أبى بكر محمد بن يحيى بن

---

(٨٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ ، انظر أيضـا عبد الله على علام ، الدولة الموحدية فى المغرب ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٨١) ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ص ٢٩ .
(٨٢) ابن الآبار ، المصدر السابق ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
(٨٣) ابن الابار ، المعجم ، ص ٢٠٥ .

الصائغ المشهور بابن باجة ، الذى ذاع صيته فى الاندلس وأوربا فى العصور الوسطى ؛ حيث عرفه الناس باسم Avenpace ، وقد عاش ابن باجة فى مدينة سرقسطة فى بلاط المستعين بالله بن هود ، وبعد وفاة المستعين فى عام ٥٠٣هـ (١١١٠م) وانضواء سرقسطة فى فلك دولة المرابطين ، استطاع ابن باجة أن يحظى بثقتهم ، فاتخذه عاملها الامير أبو بكر ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تافلويت وزيرا وكاتبا له ، وظل فى خدمة ابن تافلويت الى أن توفى الاخير ، وما أعقب ذلك من سقوط سرقسطة فى أيدى النصارى ، فترك ابن باجة سرقسطة ، ورحل الى المرية ومنها الى غرناطة ؛ ثم استقر به المقام فى مدينة فاس ، حيث تفرغ للتأليف والتدريس الى أن توفى بها عام ٥٣٣هـ(٨٤) .

وقد صنف ابن باجة عددا كبيرا من التواليف بلغ عددها فيما روته المصادر ٢٥ كتابا ، الا أنه ـ للأسف ـ لم يصل الينا منها سوى القليل ، وقد اشتغل ابن باجة بشرح مؤلفات أرسطو ومن ذلك شرحه لكتاب السماع الطبيعى ، كما شرح منطق الفارابى ، وفضلا عن كون ابن باجة فيلسوفا فقد كان أيضا أديبا شاعرا وموسيقيا(٨٥) ، ومن فلاسفة عصر على بن يوسف أيضا الوزير مالك بن وهيب الاشبيلى(٨٦) .

---

(٨٤) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٧٠ .

(٨٥) بالنثيا ، المرجع السابق ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٦ .

(٨٦) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٥ ، حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

خاتمـــــــــة

اتخذت دولة المرابطين من الجهاد ونشر الاســلام هدفا أســاسيا حشدت له كل امكانياتها ، واتخذته شعارا لها ، وفى ســبيل تحقيق هذه الاهداف تحركت قبائل الملثمين من الصحراء الى السودان جنــوبا ، ثم اتجهت شمالا صوب المغرب الأقصى ، حيث فرضت سلطانها وسيادتها بفضل جهود الفقيه الكبير عبد الله بن ياسين ومن جاء بعــده من أمراء المرابطين الى أن ظهر يوسف بن تاشفين على مسرح الاحداث السياسية فى المغرب ، فلم يقف طموحه عند بسط سلطانه على المغرب الاقصى ، بل تطلع الى الاستيلاء على الاندلس تحقيقــا لحلمه فى تكوين امبراطورية كبرى تضم عدوتى المغرب والاندلس،وقد سنحت له الفرصة لتحقيق هذا الحلم عندما وقع الصدام بين ملوك الطوائف فى الاندلس وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، وبين الفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك عنــدما وضحت نوايا الفونسو بعيدة المدى التى تهدف الى انتزاع الاندلس من أيدى المسلمين .

وهكذا كان طبيعيا أن يستمد المعتمد ورفاقه من ملوك الطوائف القوة المرابطية الفتية فى التراب المغربى . ولم يتردد يوسف بن تاشفين فى تلبية هذا النداء بدافع الجهاد وبادر بعبــور المجــاز والاشتباك مع القشتاليين وحلفائهم من ملوك أسبانيا المسيحية فى وقعة الزلاقة التى انتهت بانتصار المسلمين وجاء هذا الانتصار فاتحة يمن وبركة ، فقد شبهه المؤرخون بيومى اليرموك والقادسية . ثم كان الجواز المرابطى الثانى ؛

هذه المرة لافتتاح حصن لبيط الذى كان شوكة فى جانب المسلمين بشرق الاندلس ، ولكن مهمة يوسف بن تاشفين لم تتحقق ، وانفض غاضبا عندما شهد تنازع ملوك الاندلس على السلطان ، فعاد الى المغرب وقد عزم على التخلص منهم دفعة واحدة بعد أن تبين له خيانتهم واتصالهم بنصارى أسبانيا وتقاعسهم عن الجهاد ، ولذا بات واضحا ليوسف أن حركة الجهاد فى الاندلس تستلزم القضاء أولا وقبل كل شىء على ملوك الطوائف ، وعلى هذا النحو تمكن يوسف من اسقاط جميع ملوك الطوائف باستثناء بنى هود فى سرقسطة ، وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف تشتمل على القسم الغربى من المغرب والاندلس ظل يحكمها الى أن توفى فى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) فخلفه ولده الامير على بن يوسف الذى ارتسم سياسة أبيه فى الجهاد وواصلت قواته صراعها مع قوى المسيحية فى أسبانيا وتمكنت من الاصطدام بها مرات عديدة ، وهكذا كانت موقعتا اقليش وافراغة اللتان انتصر فيهما المرابطون على أيام على بن يوسف زلاقتان جديدتان جددتا حيوية دولة المرابطين ، وكان لهما أعظم الاثر فى تحقيق الرسالة التى قامت الدولة من أجلها .

لقد تمكنت خلال دراستى الطويلة فى القسم السياسى من أبرز الدور البطولى الذى قام به المرابطون على عهد على بن يوسف واستعادتهم لهيبة الاسلام فى الاندلس وبذلك أكون قد استطعت أن أصور جهادهم تصويرا واقعيا وأن أزيل الآثار السيئة التى رسخت فى الاذهان فى عهود الموحدين ضد دولة المرابطين منصفا لهم دورهم التاريخى الجيد فى خدمة الاسلام. كذلك استطعت أن أوضح الى حد ما أسباب التحامل على المرابطين فى المغرب والاندلس المتمثل فى ثورات أهل الاندلس على نواب الامير على مبينا أن هذه الدولة المظلومة حقا لم تستطع أن تواجه المتغيرات الجديدة

بعد قيام المهدى بن تومرت بدعوته الموحدية فى الوقت الذى قامت فيه الثورات فى الاندلس ضد وجود المرابطين مما أدى بالتالى الى استنزاف قواهم فى أكثر من موقع •

ولم يفوتنى أن أتتبع علاقات دولة المرابطين على أيام على بن يوسف بالممالك المسيحية فى أسبانيا (قشتالة ، أرغون ، البرتغال ، قطالونية) •

ففيما يتعلق بقشتالة ، أبرزت مدى اهتمام على بن يوسف بمواصلة الجهاد ضد قشتالة التى ظفرت بنصيب الاسد فى حركة الاسترداد ومبادرته بغزوهم فى عقر دارهم والانتصار عليهم فى اقليش سنة ٥٠١هـ (١١٠٨م) ، وقد أوضحت أن أهم النتائج التى ترتبت على اقليش تتمثل فى أنها دعمت سلطان المرابطين على الاندلس بعد أن تعرض للاهتزاز منذ أواخر عصر يوسف بن تاشفين ، كما أنها أوقفت حركة الاسترداد المسيحى لفترة قصيرة ، لاسيما أن نتيجة المعركة لصالح المسلمين ومصرع سانشو (شانجة) ابن الفونسو السادس من زوجته زايده المسلمة كانا سببا فى وفاة الفونسو السادس ، كما ترتبت على هزيمة القشتاليين فى اقليش سقوط كثير من القلاع القشتالية فى أيدى المرابطين • كما أوضحت أن حملة اقليش كانت فاتحة لسلسلة من الحملات السنوية التى كان يوجهها المرابطين ضد قشتالة ، مبرزا جهود الامير تاشفين فى مدافعة النصارى ، الى حد أنه لو أن ولاية الامير تاشفين استمرت على الاندلس فترة أطول لكان فى أمكانه ايقاف حركة المد المسيحى فى الاندلس الى حين •

أما عن العلاقات مع أرغون ، فقد أوضحت أن العلاقات بين المرابطين وأرغون قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاقات بين المرابطين وبنى هود فى سرقسطة ، فقد ظلت العلاقات المرابطية اليهودية تقوم على أساس الود والمصالح المشتركة الى أن استشهد الامير أحمد المستعين بن هود ،

وخلفه ابنه عماد الدولة الذى بادر بعقد تحـالف مع الفونســو الأول المحارب ملك أرغون الذى تطلع الى الاستيلاء على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى الاندلسى ، غير أن المرابطين فوتوا عليه الفرصة ودخلوا سرقسطة فى سنة ٥٠٣هـ (١١١٠م) ، ومع ذلك فان الفونسو ظل يتحين الفرصـة المواتية حتى تمكن أخيرا من افتتاح سرقسطة فى رمضـان سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) ، وتبع سقوط سرقسطة فى أيدى الفونسو المحارب سقوط معظم قواعد الثغر الاعلى سيما بعد انتصاره على المرابطين فى معـركة كتندة ٥١٤هـ (١١٢٠م) ، ومما لاشك فيه أن تلك الانتصـارات التى أحرزها الفونسو المحارب جاءت لتواطؤ النصارى المعاهدين فى غرناطة مع الفونسو المحارب ضد المسلمين الامر الذى يفسر لنا غزوته التى شق فيها الاندلس واستمرت خمسة عشر شهرا ، ولكنها أسفرت عن النتـائج التالية : أثبتت نفاق النصارى المعاهدين وعدم ولائهم للمسلمين فاستحقوا العقاب ، فأفتى الفقيه ابن رشد بتغريبهم ونفيهم الى المغرب ، كما أثبتت ضعف وسائل الدفاع الاسلامى عن الاندلس وسوء القيادة العسـكرية التى كان على رأسها الامير تميم بن يوسف بن تاشفين فأفتى ابن رشـد بعزله عن القيادة واسنادها للامير تاشفين ، وكذلك أثبتت عدم صلاحية أسوار الاندلس للصمود أمام غزوات النصارى فأصدر على بن يوسف أوامره بتحصين الاسوار وترميمها .

ومع ذلك واصل الفونسو المحارب نشاطه ضد المرابطين وألحق بهم الهزيمة عند القلاعة ، غير أن المرابطين ثأروا لتلك الهزائم وأوقعوا به هزيمة نكراء عند افراغة سنة ٥٢٨هـ (١١٣٤م) ، ويعتبر هذا الانتصار صفحة مشرقة فى تاريخ المرابطين العسكرى فقد ترتب عليها عودة هيبة المرابطين العسـكرية فى الاندلس ، وأبرزت بعض قادة المرابطين ومنهم

رأسهم يحيى بن غانية ، كما انها أبعدت الخطر عن الاندلس لبعض الوقت وأوقفت حركة المد المسيحى على حساب أراضى المسلمين • وقد أوضحت أن المرابطين أخطئوا فى عدم افادتهم من هذا الانتصار الساحق وكان فى وسعهم أن يستردوا سرقسطة نفسها لو أنهم عجلوا بمحاصرتها فور وفاة الفونسو المحارب وارتباك عسكر النصارى فى أعقاب الهزيمة •

وبالنسبة للعلاقات مع البرتغال ، أوضحت كيف أن على بن يوسف أقدم على غزو أراضى المملكة الفتية عندما سير فى سنة ٥٠٤هـ (١١١١م) حملة قوية جعل على قيادتها الامير سير بن أبى بكر اللمتونى الذى تمكن من الاستيلاء على مدن يابرة وشنترين وشنترة وأشبونة ، كما قام على ابن يوسف بنفسه بغزو مدينة قلمرية عاصمة البرتغال سنة ٥١١هـ(١١١٧) واقتحمها بعد حصار دام ثمانية عشر يوما ثم انصرف عنها •

كذلك حاولت قدر طاقتى تصوير العلاقات المرابطية القطلانية ، فتعرضت لدراسة الحملة التى قادها ابن الحاج ضد أراضى امارة برشلونة وكيف أخفق فى السيطرة عليها ثم تعرض للقتل على أيدى القطلانيين ، وتتبعت ردود الفعل المرابطية وتتمثل فى توجيه حملة ضخمة بقيادة ابن تافلويت لغزو برشلونة انتقاما لمصرع ابن الحاج وقيامه بمحاصرة برشلونة ثم اضطره الى الانسحاب بعد معركة عنيفة خسر فيها المسلمون نحو سبعمائة قتيل •

ولم أغفل تتبع العلاقات مع دويلات المغرب الاسلامى فتعرضت لدراسة الصلات القائمة بين دولة المرابطين وبين كل من دولتى بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيتين مؤكدا أن هذه الصلات كانت ودية للغاية مع الدولة الزيرية فى حين تحولت مع الدولة الحمادية الى علاقات عدائية

لم تصل فى عهد على بن يوسف الى درجة الصـدام المسلح ، ومن أهم النتائج التى توصلت اليها فى مجال هذه العـلاقات أن المرابطين كان فى مقدورهم الاستيلاء على المغربين الادنى والاوسـط لاسيما بعد حالة الانهيار التى تعرض لها المغرب فى أعقـاب الغزوة الهلاليـة ، غير أن المرابطين أحجموا عن ذلك بسبب صلات القربى التى ترتبط بينهم وبين الزيريين والحماديين وكلاهما من صنهاجة بالاضافة الى أن المرابطين كانوا يستهدفون التفرغ للجهاد فى أرض الاندلس .

ولقد أثبت فيما يتعلق بالخـلافة العباسـية أن المرابطين كانوا قد اتصلوا مع العباسيين قبل وقعة الزلاقة وليس بعدها كمـا يزعم بعض المؤرخين ، كذلك أثبت أن العلاقات بينهما كانت علاقات روحية فلم يكن الامير المرابطى يلتزم تجاه الخلافة العباسية بأى التزامات الا بمزيد من الجهاد والطاعة للخلافة فحسب .

أما عن دراستى عن حضارة المغرب والاندلس فى عصر على بن يوسف فمتنوعة ، اذ خصصت الفصل الاول لدراسة نظم الحكم والادارة موضحا الاختصاصات الادارية ، وبينت فيما يتعلق بولاية العهد كيف أنه لم يكن هناك نظام ثابت لولاية العهد الامر الذى ترتب عليه قيام النزاع بين أولاد على بن يوسف حول حق كل منهما فى ولاية عهده . أما عن منصب نائب أمير المسلمين فقد بينت أن استحالة اشراف الامير على وحدة تلك الدولة مترامية الاطراف مما جعله يختار نائبا عنه لحكم الاندلس وأكثر من نائب لحكم المغرب كان يراعى فى اختيارهم أن يكونوا من أقاربه فضـلا عن توافر الكفاءة الادارية والعسكرية . أما عن ولاة الاقاليم فقد أوضحت أن عليا بن يوسف كان يحرص على مراقبتهم مخافة أن يستبد أحدهم بأمر ولايته أو يسىء معاملة رعيته ، كما كان يرسل رسالة الى كل وال

يرسم له فيها السياسة التى يجب أن يتبعها فى معاملة رعاياه • وأكدت بالنسبة لنظام الوزارة فى عصر المرابطين أنه لم يحظ باهتمام مؤرخى هذا العصر ، وأشرت الى وجود نوعين من الوزراء : عسكريون ينتمون الى قبيلة لمتونة ، وأدباء فقهاء معظمهم من أصول أندلسية • أما عن الرسائل والمكاتبات ، فقد أشرت الى حاجة تلك الدولة المترامية الاطراف لديوان للرسائل والمكاتبات يكون همزة وصل بين أمير المسلمين وعمالهمن جهة ؛ وبينه وبين مختلف القوى المحيطة بدولته من جهة أخرى ، وأكدت أن هذا الديوان كان يزخر بطبقة من كبار كتاب وأدباء الاندلس •

وبالنسبة للنظام القضائى ، أوضحت المكانة التى كان يتمتع بهـا القضاة فى هذا العصر ، مشيرا فى نفس الوقت الى اختصاصاتهم ، وأثبت أن تعيين القضاة أو عزلهم كان يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين •

وفيما يتعلق بالنظـام الحربى ، أشرت الى اهتمام الدولة بالجيش استنادا على أن الدولة قامت على مبدأ الجهاد ، فقد كانت القيادة العليا للجيش تعقد لأمير المسلمين ؛ أما قيادة الفرق فكانت تعقد لامراء الدولة ، وأثبت أن القيادة العليا فى الاندلس كانت تعقد لنائب أمير المسلمين ، أما القيادة العليا فى المغرب فكانت تخضع للاشراف المباشر لأمير المسلمين • كذلك تعرضت للدور الكبير الذى لعبته البحرية المرابطية منذ نشأتها فى عصر يوسف بن تاشفين ، وأثبت أن نشاط هذه القوى البحرية لم يقتصر على حماية سواحل الدولة فحسب بل وقفت ضد أطماع النورمنديين فى أملاك الدولة الزيرية ، وكذلك فى الاستيلاء على جزر البليار ، فضلا عن غاراتها على السواحل الجنوبية لأوربا •

أما بالنسبة للنظام المالى ، فقد تناولت بالدراسة السياسة الضريبية

التى اتبعتها دولة المرابطين فى بداية نشأتها والتزامها بتحصيل ما تجيزه الشريعة الاسلامية وأثبت أن الدولة قد اضطرت (بسبب تعدد مسئولياتها لاسيما بعد فتح الاندلس واتساع نطاق الجهاد ضد النصـارى) الى فرض أنواع جديدة من الضرائب ، كمـا أثبت أن الدولة قد عهـدت الى النصارى بجباية هذه الضرائب • أما عن العملات : فقد أكدت على أن الدينار المرابطى الذهبى كان عماد اقتصاد الدولة ، وأثبت أن هذا الدينار كان من القوة بحيث أن دول أسبانيا النصرانية اتخذته كعملة للتداول •

أما الفصل الثانى الخاص بدراسة الحياة الاجتماعية ، فقد توصلت الى حقائق هامة تتعلق بالمركز السامى الذى كانت تتبوأه المرأة فى المجتمع المرابطى وسجلت أهمية اتصال المغرب بالاندلس والآثار المترتبة عليه وأهمها تمازج واضح فى الفنون والآداب بين حضارتى المغرب والاندلس تحقق بوجه خاص فى عهد على بن يوسف •

وبالنسبة للحياة الاقتصادية ، أثبت بما لا يدع مجالا للشك فى أن عصر على بن يوسـف كان عصر ازدهار فى الاقتصـاديات المغربيـة والاندلسية ، فقد أوضحت عظم الرخاء الذى أصابته بعض المدن التجارية مثل المرية ومالقة ومراكش فى عصر على بن يوسف •

أما بالنسبة للحياة الادبية والعلمية ، فقـد أثبت أن عصر على بن يوسف لم يتخلف قط عن عصر الطوائف من حيث اهتمام الدولة بالشعراء والادباء وتشجيعها لهم بالعطايا الامر الذى سـاعد على تألق الحيـاة الادبية والعلمية فى ظل الامير على بن يوسف ، كما أثبت أن دولته لم تحاول أن تحجر على حرية العلماء والادباء كمـا يزعم بعض الباحثين المحدثين وفى مقدمتهم المستشرق الهولندى دوزى •

قائمة المصـــادر والمراجـــع العـــربية والاجنبية

أولا : المصـــادر العربيــة

— ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى)ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م

● التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، نشر وتصحيح وطبع السيد عزت العطار الحسينى القاهرة ، ١٩٥٦ .

● الحلة السيراء ، جزءان ، نشر وتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

● المعجم فى أصحاب القاضى الامام أبو على الصدفى ، القــاهرة ، ١٩٦٧م .

— ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاســم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى) ت : ٦٦٨/١٢٧٠م .

● عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، جزءان ، نشره الدكتــور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥م .

— ابن الاثير(أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الجزرى)ت : ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م .

● الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ .

— الادريسى (الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) ت : ٥٤٨/ ١١٥٤م .

● صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة

المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشره دى غويه ودوزى ، ليـدن ، ١٨٦٦م .

— ابن بسام (أبو الحسن على الشنتريني) ت : ٥٤٣هـ/١١٤٧م .

● الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسـم الثانى ، مخطـوط بغداد ، مكتبة جامعة الاسـكندرية تحت رقم ٢٦٠٢٢ صـورة شمسية حصلت عليها من مكتبة الدكتور حسين خربوش .

— ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت : ٥٧٨هـ/١١٨٣م

● الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

— البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز المرسى) ت : ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .

● المغرب فى ذكر افريقية والمغرب ، من كتاب المسالك والممالك، نشره دى سلان De Slane بعنوان : Description de l'ofrique septentrionale الجزائر ، ١٩١١م .

— البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) ت : ق ٦ هـ/١٢م .

● أخبار المهدى بن تومرت وابتـداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م .

— التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ت : حوالى ٧١٧هـ/ ١٣١٧م .

● رحلة التجانى . نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨م.

ـــ التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة)

● ديوان الاعمى التطيلى •

تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣م •

ـــ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف الاتابكى)
ت : ٨٧٤هـ/١٤٦٩م •

● النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٦م •

ـــ الجزناءى (أبو الحسن على) •

● زهرة الآس فى بناء مدينة فاس،نشره الفريد بل،الجزائر،١٩٢٢م

ـــ ابن حمدين(عبد الجبار أبى بكر محمد السرقوسى)ت ٥٢٧هـ/١١٣٣م

● الديـــوان •

صححه وقدم له الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠م •

ـــ الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) ت : ٨٦٦هـ/
١٤٦١م •

● صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧م •

ـــ ابن حوقل النصيبى (أبو القاسم محمد بن على) ت : ٣٨٠هـ/٩٩٠م

● صورة الارض •

بيروت ، ١٩٦٢م •

— ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الاشبيلى) ت:٥٣٥م/ ١١٣٤م •

● قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ •

— ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م •

● أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا ؛ نشره ليفى بروفنسال باسم تاريخ أسبانيا الاسلامية ، الرباط ، ١٩٣٤م •

● أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره أحمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى ؛ الدار البيضاء ، ١٩٦٤م •

● الاحاطة فى أخبار غرناطة •

نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان الاحاطة فى أربعة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٧م •

— ابن خفاجة (أبو اسحق ابراهيم بن أبى الفتح الاندلسى) ت : ٥٣٨هـ/١١٤٣م •

● الديوان •

تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازى ، القاهرة ، ١٩٦٠م •

— ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) ت : ٨٠٨هـ/١٤٠٥م •

● العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المقدمة طبعة مصر بدون تاريخ ، وبقية الاجزاء طبعة بيروت ، ١٩٦٨م •

— ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) ت : ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م

● وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت .

— ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن) ت : ٦٣٣هـ/١٢٣٥م .

● المطرب من أشعار أهل المغرب .

تحقيق : ابراهيم الابيارى ، ودكتور حامد عبد المجيد ، ودكتور أحمد أحمد العدوى ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

— ابن أبى دينار (أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى) .

● المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس .

تونس ، ١٣٥٠هـ .

— الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله بن أبيك)

● كنز الدرر وجامع الغرر

● «الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية» . تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٦١م .

— ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) ت : ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م .

● الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس نسخة حجرية ، طبعة فاس ، ١٣٠٥ .

— ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت : ٧٠٨هـ/١٣٠٨م •

● صلة الصلة •

نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٨م •

— الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤى) من مؤرخى القرن التاسع الهجرى •

● تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية •

تونس ١٢٨٩هـ •

— الذهبى

● دول الاسلام ، طبعة حيدر آباد ١٣٦٥هـ •

— الزيرى (الامير عبد الله بن بلكين)

● مذكرات الامير عبد الله اسماة بكتاب التبيان ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥م •

— ابن سعيد المغربى (على بن موسى) ت : ٦٨٥هـ/١٢٨٦م •

● المغرب فى حلى المغرب جزءان تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٥م •

— السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) ت : ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م •

● الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، نشر فى أربعة أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٤م •

— الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت : ٥٩٩هـ/١٢٠٣م .

● بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى) ت : ٥٢٠هـ/١١٢٦م.

● سراج الملوك ، القاهرة ، ١٢٨٩م .

— ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبى)

● رسالة فى القضاء والحسبة .

نشرها ليفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

— ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيا فى سنة ٧١٢هـ .

● البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب .

أربعة أجزاء ، الاجزاء الثلاثة الاولى تحقيق كولان وليفى بروفنسال ؛ والجزء الرابع خاص بتاريخ المرابطين نشر وتحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٧م .

— ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت : ١٠٨٩هـ/ ١٦٨٠م .

● شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

— ابن غالب الاندلسى (محمد بن أيوب الاندلسى) .

● فرحة الانفس فى تاريخ الاندلس .

قطعة نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الاول ، ج ٢ ، ١٩٥٥م .

— ابن القاضى (أحمد بن محمد بن أبى العافية المكناسى)

● جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس .

نسخة فى مجلد مطبوعة طبعة حجرية ، فاس ، ١٠٣٩هـ .

— ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد الكتامى) ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م .

● نظم الجمان فى أخبار الزمان .

نشر وتحقيق الدكتور محمود على مكى ، الرباط ، ١٩٦٤م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت : ٨٢١هـ/١٤١٨م .

● صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت .

— ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزرى)

● تاريخ الاندلس ، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، ١٩٦٥م .

— المالقى (أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن النباهى) ت : ٧٧٦هـ ١٣٧٤م .

● تاريخ قضاة الاندلس أو المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

— المراكشى (عبد الواحد بن على) ت : ٦٦٩هـ/١٢٧٠م .

● المعجب فى تلخيص أخبار المغرب .

نشر الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩م .

— المراكشى (ابن عبد الملك) ت : ٧٠٣هـ/١٣٠٤م .

● الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، نشر وتحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت .

— المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) ت : ١٠٤١هـ/١٦٣١م .

● نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . تحقيق الاستاذ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة، ١٩٤٩م .

● أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض .

تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ، ١٩٣٩م .

— مؤلف مجهول .

● كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر وتحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨م .

— مؤلف مجهـــول

● الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية •

عنى بنشره السيد البشير الفورتى ، تونس ، ١٣٢٩هـ •

— مؤلف مجهـــول •

● نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى منتخبـــة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر •

نشره ، ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤م •

— النويرى (أحمد بن عبد الوهاب محمد بن عبد الدايم البكرى التميمى القرشى) ت : ٧٣٢هـ •

● نهاية الارب فى فنون الادب •

الجزء الثانى والعشرون مخطوط مصـــور عن دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٩٥/١٩٥١م •

— ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) •

● معجم البلدان ، طبعة ليبيزج ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧م •

ثانيا : المراجع العربية الحديثة

— أشباخ (يوسف)

تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ ٠

— الأهوانى (دكتور عبد العزيز)

الزجل فى الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧م ٠

— بالباس (ليوبولد توريس)

الفن المرابطى والموحدى ، ترجمة الدكتور السيد مصطفى غازى ، القاهرة ، ١٩٧١ ٠

— بالنثيا (آنخل جنثالث)

تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥م ٠

— بروفنسال (ليفى)

الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨م ٠

— تشركوا (كليليا سارنللى)

مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٦١م ٠

— حسن (دكتور زكى محمد)

فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨م •

— حسن (دكتور حسن ابراهيم)

تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الرابع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨م •

— دندش (عصمت)

دراسة حول رسائل أبى العربى والتى تسمى برحلة أبى بكر ابن العربى •

مجلة المناهل ، العدد التاسع ، السنة الرابعة ، الرباط ، يوليو ١٩٧٧م

— الركابى (دكتور جودت)

فى الادب الاندلسى

الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦م •

— ريتسيتانو (امبرتو)

العلاقات بين النورمنديين وبنى زيرى من الفتح النورمندى لصقلية حتى وفاة رودجيرو الثانى (روجار) • ٤٥٣ — ٥٤٨هـ/١٠٦١ — ١١٥٤م •

مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ج١ ، ١٩٤٩

— سالم (دكتور السيد عبد العزيز)

● المساجد والقصور بالاندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩١ ، ١٩٥٨م

● كتاب الشعب ، عدد ٦١ ، ١٩٥٩م •

● تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٢م .
● المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ، ١٩٦٦م .
● التاريخ والمؤرخون العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
● تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩م .
● تاريخ مدينة المرية اسلامية قاعدة أسطول الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩م .
● قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، جزءان ، بيروت ، ١٩٧١/ ١٩٧٢م .
● العمارة الاسلامية فى الانداس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الاول ، ١٩٧٧م .
● صور من المجتمع الاندلسى فى عصر الخلافة الاموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة فى علب العاج ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١٩ ، ١٩٧٦ — ١٩٧٨م .

— ستانلى لين بول

العرب فى أسبانيا

ترجمة على الجارم ، طبعة مصر ، ١٩٤٤م .

— الشكعة (د . مصطفى)

الادب الاندلسى ، موضوعاته وفنونه ، بيروت ، ١٩٧٢م .

— شعيرة (دكتور محمد عبد الهادى)

المرابطون « تاريخهم السياسى » ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

ـــ شلبى (دكتور سعد اسماعيل)

دراسات أدبية فى الشعر الاندلسى ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

ـــ الشيال (دكتور جمال الدين)

● أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

● أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، سلسلة أعلام العرب ، عدد ٧٤ ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

ـــ الفاسى (علال)

الخطط الشرعية « القضاء » .

مجلة البينة ، السنة الأولى ، العددان ٦ ، ٧ ، الرباط ١٩٦٢م .

ـــ كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الاسلامية

« الامبراطورية الاسلامية وانحلالها »

ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، جزءان ، بيروت ، ١٩٤٩م .

ـــ عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح)

المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضارة الاوربية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

ـــ العبادى (دكتور أحمد مختار)

● دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية وأهميته فى دراسة تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠م .

● صور لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والاندلس ، مجلة البينة ، السنة الاولى العدد التاسع ، ١٩٦٣م .

● الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد الحادى والعشرين ، ١٩٦٧م .

● دراسـات فى تاريخ المغـرب والاندلس ، الطبعـة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٧م .

● فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٧٤م .

— عباس (دكتور احسان)

تاريخ الادب الاندلسى

« عصر الطوائف والمرابطين » ، بيروت ، ١٩٧٤م .

— عبد الحميد (دكتور سعد زغلول)

محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والاندلس ، محاضرة ألقيت فى جامعة بيروت العربية ، ابريل ، ١٩٧٣م .

— عنان (الاستاذ محمد عبد الله)

● عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القـاهرة ، ١٩٦٤م .

● عصر المرابطين والموحدين فى المغـرب والاندلس، القاهرة، ١٩٦٤م

— عـلام (عبد الله على)

الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على ، القـاهرة ، ١٩٧١م .

— غومس (اميليو غرسية)

الشعر الاندلسى ، بحث فى تطوره وخصائصه ، ترجمة الدكتـور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

— محمود (دكتور حسن أحمد)

قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

ـــ مرزوق (دكتور محمد عبد العزيز)

الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت بدون تاريخ .

ـــ مكى (دكتور محمود على)

- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع العددان ١ ، ٢ ، ١٩٥٩م .
- الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، العدد ٢٠ : ٧٩/١٩٨٠م .

ـــ مورينو (مانويل غومس)

الفن الاسلامى فى أسبانيا

ترجمة دكتور لطفى عبد البديع ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مراجعة دكتور جمال محرز ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

ـــ مؤنس (دكتور حسين)

- الثغر الاعلى الاندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ج ٢ ، ١٩٤٩م .
- السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٠م .
- سبع وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، العددان ١ ، ٢ ، ١٩٥٤م .

● تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، مدريد ، ١٩٦٧م٠

— ميراندا (امبرسيو ويثى)

● وقعة اقليش ومصرع الامير ضون شانجة ، مجلة تطوان ، العدد الثانى ، ١٩٥٧م ٠

● على بن يوسف وأعماله فى الاندلس ، مجلة تطوان ، العـددان ٣ ، ٤ ، ١٩٥٨/١٩٥٩م ٠

— لويس (ارشيبالد)

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمـد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠م ٠

— Bermejo (Joaquin Vallve) : Suaut Al-Bargawati, rey de Ceuta, Al-Andalus, Vol, XXVIII, Fasc, 1, 1953.

— Codera (Francisco) : Decadencia Y Desaparicion de los Almoravides en Espanà. Zaragza, 1899.

— Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, Three vols, leyde, 1932.

— Goldziher : Le livre de Mohamed ibn Toumert, Alger, 1903, introduction.

— Lafuente (M.) : Historia general de Espana, Barcelona, 1899.

— Lavoix (H.) : Catalogue de monnaies Musulmanes de la bibliotheque nationales de Paris. DCCCXI.

— Marcais (George) : Manuel d'art Musulman l'architecture, T, 1, Paris, 1926.

— ————— : La Berberie Musulmane et l'orient an moyen age, Paris, 1946.

— Miranda (Ambrasio Huici) : La invasion de los Almoravides y la Batalla de Zalaca. Hesperis, Annee, 1953, Tome, XL, Paris.

— Miranda, Los Luchos Del Cid Compeador con los Almoravides y El enigma de Su Hijo Diego, Hesperis, Tamuda, vol, VI., 1965.

— ————— : Historia musulmana de Valencia y Su region. Three vols, Volencia, 1969-1970.

— Pereito y Vives (Antonio) : Los reyes de Taifas, estudio Historico Musulmanes Espanoles, en el Siglo V de la hegria, Madrid, 1926.

— Pidal (Ramon Menedez) : Espana del Cid, Madrid, 1947.
— Roland Oliver, the Cambridge History of Africa, Vol, 3, London.
— Terrasse (Henri) : Histoire du Maroc, T,1, Casablanca, 1949.
— Trimingham, J.S. A History of Islam in West Africa, Oxford University, London, 1962.
— Turk (Afif) : El reino de Zaragoza en el Siglo XI de Jesu Cristo (V de la Hegira), Madrid, 1978.
— Codera, Des Y Des. de Los Almoravides, p. 16, F.J. Simonet : Mozarabes, Y Juaderios de los ciudades Hispanomusulmar.as, Al Andalus, Vol; XIX, 1954, Fasc, I,

J.A Conde, History of The dominion Arabes in Spain, London, 1909.

خـــرائط الكتـــــاب

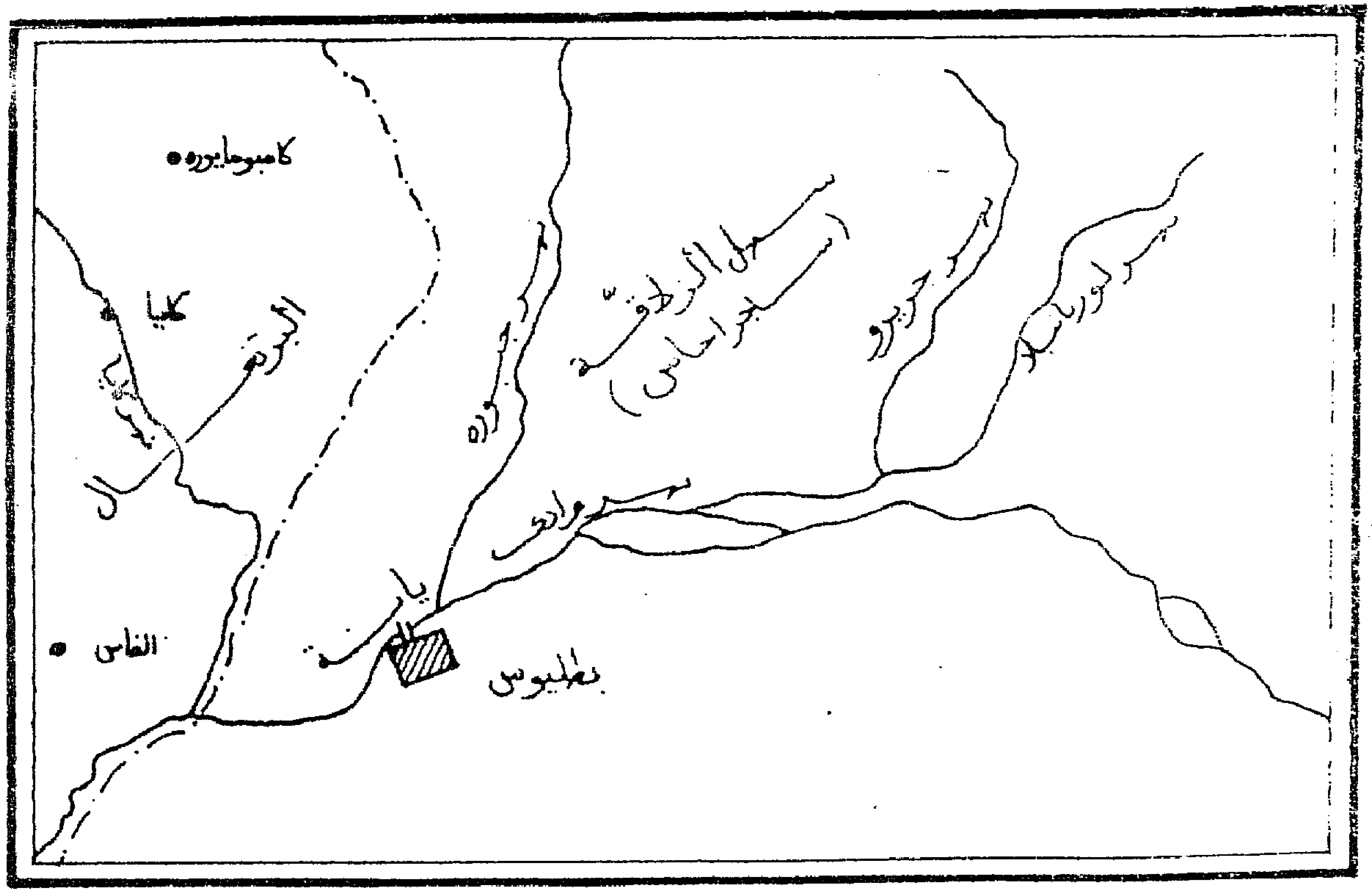

موقعة الزلاقة

نقلاً عن . عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٧ .

خريطة رقم (١)

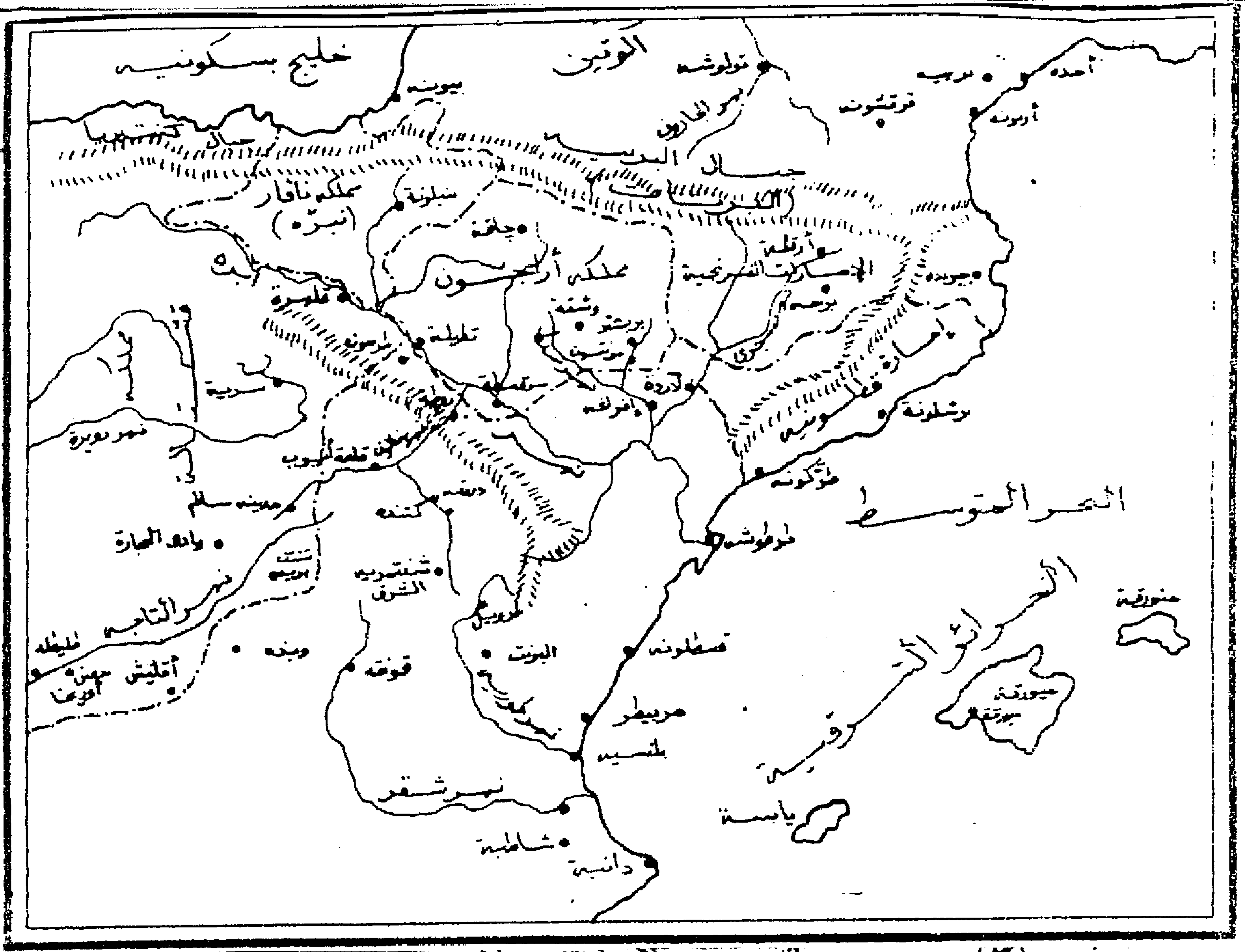

خريطة رقم (٣)

مواقع حروب المرابطين والنصارى في الثغر الأعلى

حتى موقعة إفراغة سنة ٥٢٨هـ

نقلاً عن: عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٩١

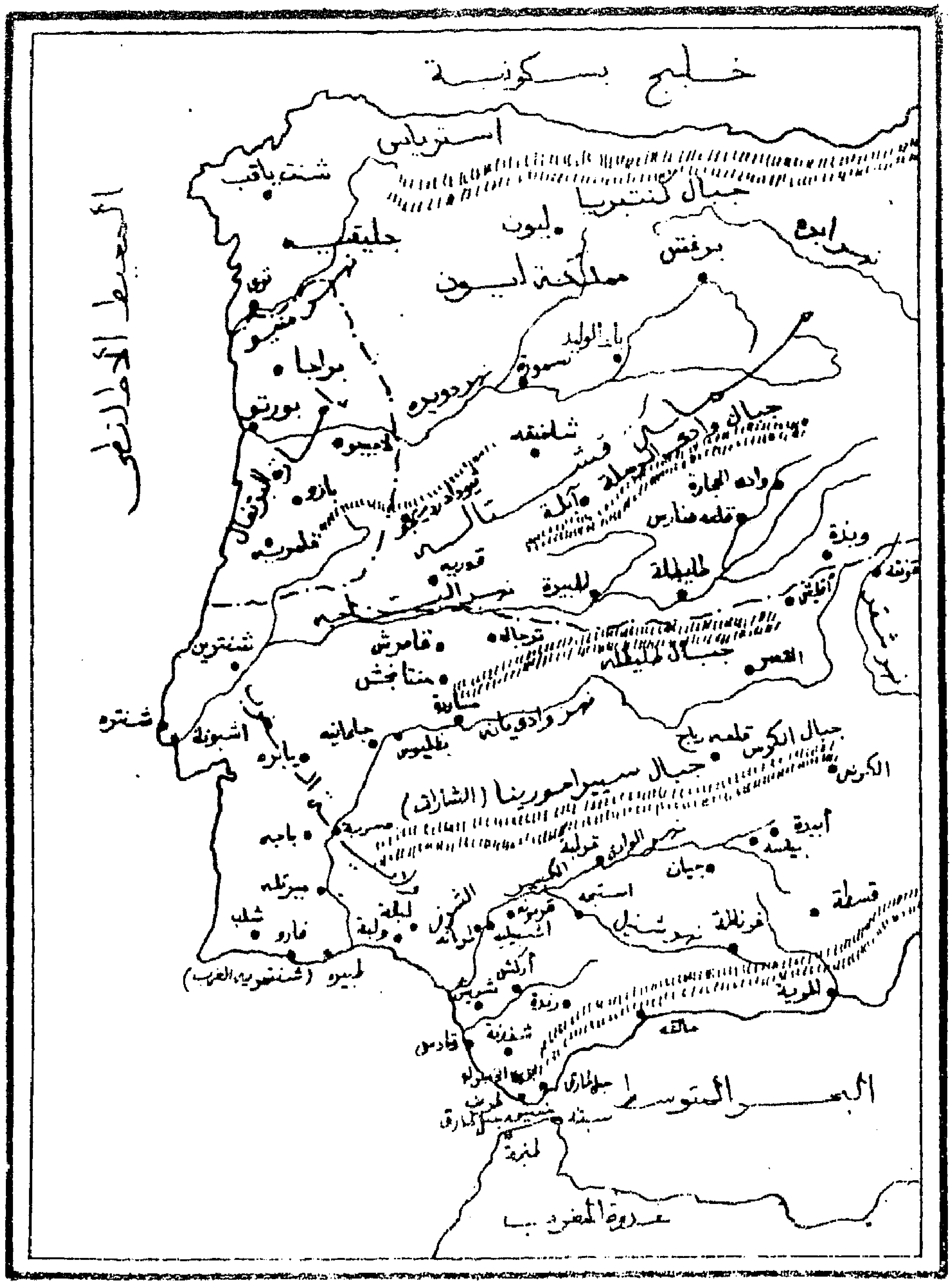

بيان رقم (٣) مواقع غزوات المرابطين التي قام بها علي و تاشفين
في أراضي قشتالة والبرتغال .

نقلاً عن : عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٧ .

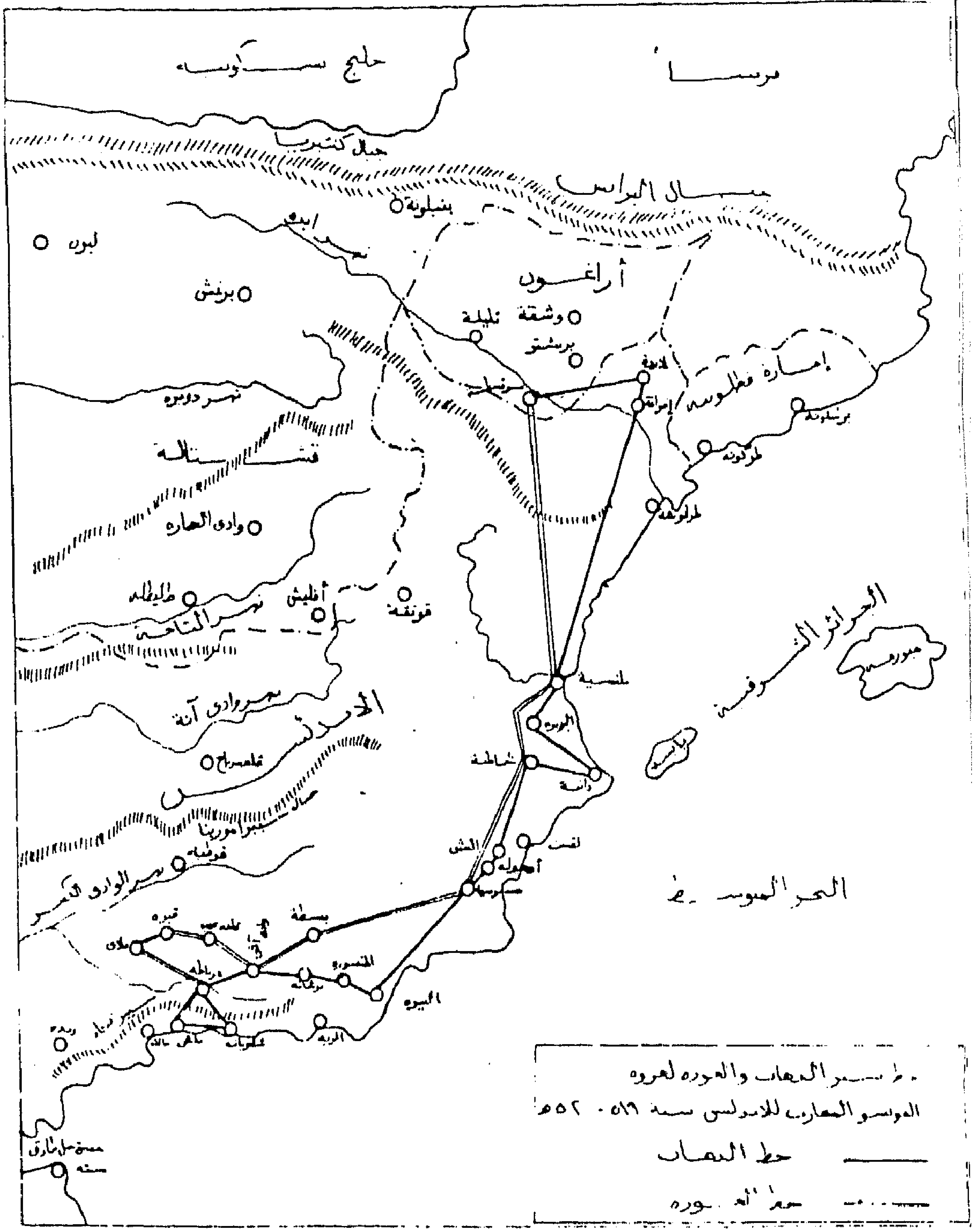
خليج بسكونية
فرنسا
جبال كنتبريا
جبال البرانس
بنبلونة
ليون
برغش
أراغون
وشقة
تطيلة
بربشتر
سرقسطة
إمارة قطلونية
برشلونة
طركونة
طرطوشة
نهر دويرة
قشتالة
وادي الحجارة
طليطلة
أقليش
قونقة
نهر التاجة
نهر وادي آنة
الأندلس
قلعة رباح
جبال سيرا مورينا
قرطبة
نهر الوادي الكبير
الجزائر الشرقية
ميورقة
بلنسية
الجزيرة
شاطبة
دانية
لقنت
الش
أوريولة
مرسية
البحر المتوسط
بسطة
المرية
غرناطة
سبتة
خط سير الذهاب والعودة لغزوة
الفونسو المحارب للاندلس سنة ٥١٩ - ٥٢٠هـ
خط الذهاب
خط العودة

خريطة رقم (٤)

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١
التعريف بأهم مصادر البحث	١٨
الدراسة التمهيدية	٣٧
(أ) قيام دولة المرابطين فى المغرب	٣٧
(ب) الوضع فى الاندلس قبل تدخل المرابطين عسكريا ...	٥٠
(جـ) الاندلس فى أعقاب الزلاقة	٦٠
(د) الاندلس فى ظل يوسف بن تاشفين	٧٤

الباب الأول

الدراسة السياسية

الفصل الأول : أهم الاحداث الداخلية فى المغرب والاندلس	
(أ) الصراع بين المرابطين والموحدين	٨١
(ب) ثورة مدينة فاس	١٢٧
(جـ) ثورة مدينة قرطبة عام ٥١٤هـ	١٣٥
الفصل الثانى : العلاقات الخارجية	
(أ) العلاقات بين دولة المرابطين والممالك المسيحية فى الاندلس	
١ ـــ مع مملكة قشتالة	١٥٣

الموضـــــوع | الصفحة

٢ — مع مملكة أرغون ١٨١

٣ — مع مملكة البرتغال ٢١١

٤ — مع مملكة قطـالونية ٢١٥

(ب) العـــلاقات بين دولة المرابطين وبين الصنهاجيين في المغربين الادنى والاوسط

١ — مع بني زيرى في المغرب الادنى ٢١٩

٢ — مع بني حماد في المغرب الاوسط ٢٢٧

(جـ) العلاقات بين دولة المرابطين والخلافة العباسية ... ٢٣٣

الباب الثاني

والدراســـة الحضـــارية

الفصل الاول : نظم الحكم والادارة

أولا : النظام الادارى ٢٤٥

ثانيا : النظام القضائى ٢٨١

ثالثا : النظام الحربى ٢٩٣

رابعا : النظام المالى ٣١٥

الفصل الثانى

بعض مظاهر الحضارة في عصر على بن يوسف

أولا : الحياة الاجتماعية ٣٢١

ثانيا : الحياة الاقتصادية ٣٤٧

الموضــــــوع الصفحة

ثالثا : أمثلة من الآثار المعمارية فى المغرب والاندلس زمن
علی بن یوسف ٣٦١
رابعا : الحياة الادبية والعامية ٣٨٠
الخاتمـــــــة ٤١٣
قائمة المصادر والمراجع العربية والاوربية ٤٢١
الخــــرائط

17.1.1999
الأهرام AL-AHRAM
٢٤,٠٠